



الكنائس الشرقية وأوطانها

الجزء الأول

رؤية عامة - كنيسة المشرق الآشورية

للكنيسة القبطية

بين الكنائس الشرقية

مقدمات في طقوس الكنيسة

٢/١

الكنائس الشرقية وأوطانها

الجزء الأول

رؤية عامة - كنيسة المشرق الآشورية

الكتاب: الكنـــائس الشَّرقيَّة وأوطـــانها

الجزء الأوَّل: رؤية عامة - كنيسة المشرق الآشوريَّة

The Eastern Churches and their Countries,

Part I, General panorama – The Nestorian Church

الكاتب: الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

(راهب من الكنيسة القبطيَّة)

المطبعة: دار نوبار ٦أ شارع مدرسة المعلمين، شبرا، القاهرة

الطَّبعة: الأولى، يناير ٢٠٠٠م

الثَّانية، أكتوبر ٢٠٠٦م، منقَّحة

التَّرقيم الدَّولي: 0 - 63 – 5674 – 977

رقم الإيداع بدار الكُتُب: ٩٩/١٨٢٥٤

ثمن النسخة ١٠ جنيهات



قداسة البابا شنودة الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

المحتويات

البَاب الثّاني: كنيسة المشرق الآشوريَّة

مقدّمات الطّبعة الأولى

أولاً: منهج الدّراسة

نبتدئ بمعونة الرّب **دراسات في طقوس الكنيسـة القبطيّـة**، وذلك على ثلاثة محاور رئيسيَّة، وضمن أربع سلاسل.

أما الثلاثة محاور الرَّئيسيَّة التي تدور حولها دراستنا فهي:

المحـور الأول: تاريخ الطُّقوس.
المحـور الثاني: نصوص ليتورجية.
المحور الثالث: إطلالة على طقوس الكنائس الشّرقيَّة الأخرى.

وأما الأربع سلاسل التي تتضمَّنها هذه الدِّراسة الطَّقسيَّة فهي:

السِّلسِّلة الأولى: مصادر طقوس الكنيسة.
السِّلسِّلة الثانية: مقدِّمات في طقوس الكنيسة.
السِّلسِّلة الثالثة: طقوس أسرار وصلوات الكنيسة.
السِّلسِّلة الرَّابعة: طقوس أصوام وأعياد الكنيسة.

وبمعونة الرَّب ستصدر هذه السَّلاسل الأربع بالتَّوازي، حيث تحمـل كل سلسلة منها رقماً مميَّزاً؛ فالكتاب رقم (١/٢) يعني: الكتاب الثاني من السِّلسِّلة الأولي، والكتاب رقم (٣/٥) يعني: الكتاب الخامس من السِّلسِّلة الثَّالثة، وهكذا.

إن هذه الدِّراسات هي ثمرة بحث وتأمُّل في طقوس الكنيسة القبطيّـة

خصوصاً، والكنائس الشَّرقيَّة عموماً، كاد أن يكون متَّصلاً على مدى خمسة وعشرين عاماً تقريباً، هي السَّنوات الأخيرة من القرن العشرين، عندما رأت هذه الدِّراسات النُّور في مستهل القرن الحادي والعشرين، حاوية - على قدر المستطاع - حصيلة جهد واجتهاد بذله الكثيرون على مدى ألفيٍّ عام في خدمة الكنيسة المقدَّسة، وما كنَّا سوى حاصدين لثمار غرس غرسه السَّابقون.

إن دراسة تاريخ الطُّقوس هي واحدة من أشق أنواع الدِّراسات وأضناها، ولاسيَّما دراسة تاريخ طقوس الكنيسة القبطيَّة؛ لأن الأقباط اعتادوا بطبيعتهم معايشة طقوسهم وليتورجيَّتهم بدون أي محاولة منهم لتأريخها ولو لمرَّة واحدة على مدى عشرين قرناً، ومن هنا كانت مشقَّة البحث على هذا المحور الأوَّل. فكان لابد لنا أن نتعرَّض لطقوس الكنائس الشَّرقيَّة الأُخرى، وهو المحور الثالث، وذلك بالقدر الذي يخدم المحور الأوَّل الرَّئيسي، والذي تدور حوله دراستنا. وأيضاً بغية أن تنجلي طقوس كنيستنا القبطيَّة كدُرَّة بين طقوس الكنائس الشَّرقيَّة، لا بغرض تفضيل طقس على غيره، بل رغبة في استكشاف السِّمات الذَّاتية لكل طقس.

وعلى ذلك، فقد نأينا عن الاستطراد في عرض المعاني الرُّوحيَّة للطقوس - ولاسيَّما أنها زاوية من الكتابة قد طالها الكثيرون من قبل - إلاَّ بالقدر الذي يعفي الدِّراسة من أن تنحو إلى دراسة أكاديميَّة بحتة، موقنين أن النُّصوص اللِّيتورجيَّة في حد ذاتها - وهى المحور الثاني من محاور دراستنا - كافية لكي تغطي هذا الجانب الرُّوحي من الدِّراسة، بل إنها بالفعل لكذلك.

وسنخطو مع القارئ الحبيب خطوة خطوة، ومن البداية، مؤازَرين بمعونة من عند أبي الأنوار، وببركة ابنه الحبيب، يسوع المسيح الذي له كل المجد وكل الفضل، مدفوعين بحب جارف لكنيسته المقدَّسة، عروسه

النقيَّة. فمادة هذه الدِّراسة الطَّقسيَّة هي في الحقيقة عصير ثمرة ألم، وحبٌ عميقٌ للكنيسة حرَّك فينا القلب والقلم.

ونود أن نشير إلى أننا عندما نستعين بأبحاث أو دراسات غربيَّة، فإنما يكون ذلك في حدود ما تساعد به فقط هذه الدِّراسات في خدمة تقليدنا وفكرنا الشَّرقي، ولكي نكمِّل جوانب الموضوع الذي نعرض له على قدر الإمكان. فَجُلّ بحثنا ينحصر تحديداً في طقوس الكنيسة القبطيَّة مع إطلالة بين الفينة والفينة على طقوس الكنائس الشَّرقيَّة، حيث تظل دراستنا في صُلبها شرقيَّة بحتة.

وفي ذات الوقت لم نغفل الإشارة إلى بعض مفاهيم غربيَّة انتقلت إلى جانب من تقليدنا الشَّرقي. ولسنا في ذلك نحط من قدر الفكر الغربي وتقليده، وإنما قناعتنا هي أن مزج الفكرَين معاً هو ضربٌ من ضروب التَّمني. فالتَّمايز في الطُّقوس والتَّقاليد المختلفة بين الشَّرق والغرب – وليس في جوهر الإيمان – يثري الكنيسة الجامعة ويعمِّق مفهوم إيمانها الواحد.

راجياً إلى الرَّب أن يجعل من هذه الدِّراسات الطَّقسيَّة دخولاً لشركة أعمق معه، ونبعاً لحب أوفر لكنيسته المقدَّسة، ببركة شفاعة العذراء كل حين والدة الإله القدِّيسة الطَّاهرة مريم، وكل مصاف السَّمائيين والشُّهداء والقدِّيسين. آمين.

ولا يفوتني أن أتقدَّم بالشُّكر الخالص للآباء الرُّهبان الذين بذلوا جهداً لا مزيد عليه، ومساعدة جدّ مخلصة صامدة، في مراجعة الكتاب وتنسيق مادته، فليعوِّضهم الرَّب الإله أجراً سماوياً.

كما أتوجَّه بالشُّكر مسبقاً لكل من يبادر بالنُّصح، لاستدراك شيء فاتني، أو لتصويب خطأ انزلقت إليه سهواً أو عن غير علم.

ثانياً: تمهيد

يتحتَّم على دارس طقوس الكنيسة القبطيَّة، أن يتعرَّف – وعن قرب قريب – على جميع الكنائس الشَّرقيَّة الأخرى، وطقوسها المختلفة، ونصوص صلواتها، وأوطانها التي نشأت فيها، ولاسيَّما إن كانت هذه الدِّراسة الطَّقسيَّة تنحى كثيراً لتتبُّع تاريخ الطُّقوس، ونُصوص الصَّلوات فيها، وهو الأمر الأصعب في دراسة طقوس أي كنيسة بصفة عامة، والكنيسة القبطيَّة بصفة خاصة.

فكنائس الشَّرق المسيحي قد أثَّرت وتأثَّرت ببعضها البعض، ولم تكن العزلة التي فرضتها أحداث التَّاريخ وأوجبتها على بعض منها، سوى عزلة مؤقَّتة – ولو طال أمدها حيناً – إذ سرعان ما انقشعت، لتجد هذه الكنائس نفسها، وإذا بها في تفاعل مباشر من جديد مع أخواتها، حتى ولو كانت قد انزوت متقوقعة على نفسها ردحاً من الزَّمن.

فحركة التَّاريخ الحديث بتطوُّرها السَّريع المتلاحق والمذهل، قد هدمت الأسوار، وحطَّمت المتاريس والحواجز، ودكَّت تحت عجلاتها كل محاولة للإحجام والانطواء والعزلة. وهكذا وجدت كل كنيسة أنه قد بات من المحتَّم عليها أن ترعى شعبها الذي انتشر في كل أرجاء المعمورة، وصار لزاماً عليها أن تسعى وراءه لتخدمه، وترعاه، وتسهر عليه، سواء طلب ذلك أو لم يطلب، وأينما حلَّ واستقر ترحاله.

فلقد تلاشت المسافات، وانفلتت رتابة الزَّمن، إذ انحل إيقاعه المبطئ، فجرَّ النَّاسَ من ورائه يجرون ويلهثون، وكأنه يُسرع الخُطى نحو غايته

المحتومة. وفي هذا الوضع الجديد، بات على الكنيسة، أن تواكب حركة التّاريخ، وتتعرَّف على كل ما يدور من حولها، و"حولها" لم يعد يعني سوى كل العالم، فهذه هي الآن حدود الكنيسة التي ينبغي أن تتحرَّك فيها لتبشِّر برسالة الخلاص من أقصاء الأرض إلى أقصائها.

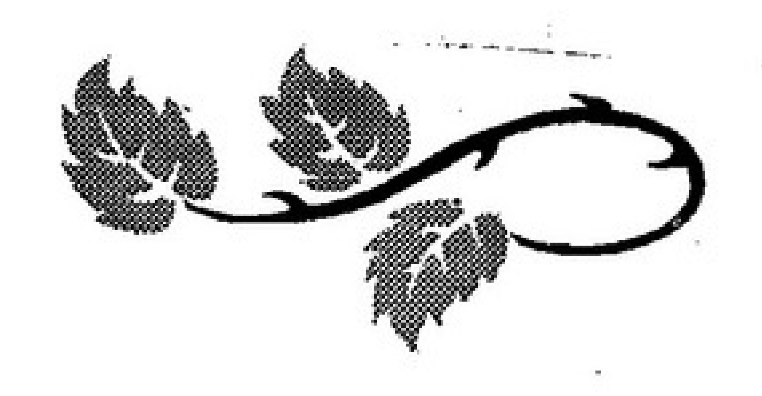
وفي هذا العالم الذي أصبح بمثابة قرية صغيرة، تسمع وترى أدق أحداثها لحظة بلحظة، صار على كل كنيسة أن تحافظ على طقسها وتقليدها الذي يميِّزها عن غيرها من الكنائس، ليس محافظة المتعصِّب المتباهي، بل محافظة الواعي لمفهوم التّمايز الذي يثري الوحدانيَّة ويجليها.

ونتيجة للطّفرة العجيبة التي حدثت في مجال السّمعيّات والبصريّات، أصبحت الطُّقوس الكنسيَّة توثَّق بالصَّوت والصُّورة، كوثيقة لا تقبل أي تأويل. وصار من السَّهل جداً أن تشاهد طقوس كل الكنائس شرقاً وغرباً وأنت جالس في بيتك. وبالتالي صار المزج بين الطُّقوس وبعضها البعض قاب قوسين أو أدنى، حتى إلى حد الخوف من ضياع هويَّة كل كنيسة على حدة. فالكنيسة الجامعة سوف تصل أوج تجلّيها يوم أن يتوحَّد إيمانها ولكن مع تمايز طقوسها. فطقوس الكنيسة على اختلافها، هي سيمفونيَّتها المبدعة، التي تنشدها، عبادةً وحباً وتسبيحاً لمسيحها القدُّوس الواحد. فالمعموديَّة واحدة من خلال طقوس متمايزة، والإفخارستيًّا واحدة في ليتورجيَّات كثيرة متناغمة. وبالإجمال إيمانٌ واحدٌ بربٍ واحدٍ في طقوس عبادة غنيَّة متنوِّعة.

والآن عندما نعرض للكنائس المختلفة في الشّرق المسيحي، سنعبر حتماً على التّاريخ المدني للوَّطن الذي نشأت فيه الكنيسة. ذلك أن تاريخ أي أمَّة هو في أصله وجوهره هو تاريخ ديني. فالدِّين في الشّرق يتداخل إلى حد التّشابُك مع الحياة المدنيَّة، ويؤثّر في السُّلوك والعادات

والممارسات اليوميَّة العاديَّة للنَّاس حتى في آداب الأكل والشُّرب.

فالنزعة الدِّينيَّة في الشَّرق شديدة قويَّة، تؤثِّر حتى في الحياة السِّياسيَّة والمدنيَّة للبِّلاد. ولقد تبيَّن لنا من دراسة تاريخ الكنائس الشَّرقيَّة، أن تاريخ الكنيسة في أي بلد من البلاد هو في حقيقته تاريخ هذا البلد، لكن من وجهة دينيَّة. فالتعرُّف على تاريخ الوطن الذي نشأت فيه الكنيسة، هو خلفيَّة الصُّورة التي يُرسم عليها شكل هذه الكنيسة. لذلك عندما عرضنا لتاريخ الأوطان التي نشأت فيها تلك الكنائس، أردنا أن نضع القارئ المبارَك - على قدر ما نستطيع - في قلب الأحداث، ليعايش حياة الكنيسة التي نتحدَّث عنها، وتاريخ ذلك الشَّعب الذي نشأت الكنيسة بين ظهرانيه. إن تاريخ أي شعب هو أيقونته المسطورة بكلمات، وكنيسته هي مركز الضَّوء فيها.



مقدّمة الطّبعة الثّانية

أشكر ربي يسوع من كل قلبي، فهو الذي أعانني حتى اليوم لكي أفي بوعدي الذي قطعته على نفسي أمام القارئ العزيز، بأن تنحصر هذه الدِّراسات الطَّقسيَّة الكنسيَّة في إطار محدَّد، ضمن محاور واضحة لا تخرج عنها. وها هو واحد من أوائل الكتب الذي صدرت عن هذه الدِّراسات، تُعاد طباعته مرَّة أخرى.

وفي هذه الطَّبعة الثَّانية، راعيتُ تصحيح بعض الأخطاء غير المقصودة، والتي لا تتعدَّى بضع كلمات هنا أو هناك، وقد أشرتُ إلى أهمها في موقعها من الكتاب، حيث أوردتُ التَّصحيح في المتن، وأشرتُ في الهامش إلى الخطأ الذي وقع في الطَّبعة الأولى وتم تصحيحه في هذه الطَّبعة الثَّانية.

راجياً إلى ربي وإلهي ومخلّصي يسوع المسيح أن يتقبَّل هذا العمل، الذي رعاه هو بنفسه منذ بدايته وحتى الآن، عملاً مخلصاً كل الإخلاص للكنيسة القبطيَّة وإيمانها، وطقوسها، وتقليدها. الكنيسة التي أكن لها كل الحب، وكل الخضوع، وكل العرفان. ببركة ذات الشَّفاعات، والدة الإله، القدِّيسة الطَّاهرة مريم، وكافة مصاف السَّمائيين. وببركة صلوات الآباء الرُّسل والشُّهداء والقدِّيسين. وببركة صلوات قداسة البابا شنوده الثالث بابا الإسكندريَّة وبطريرك الكرازة المرقسيَّة، وسائر آبائي المطارنة والأساقفة والقمامصة والقسوس، وإخوتي الشَّمامسة والرُّهبان، وكل طغمة العلمانيين المبارَكين.

ولله الآب المجد في الكنيسة في المسيح يسوع إلى جميع أجيال دَهْر الدُّهور. آمين.

البَاب الأوَّل

رؤيَــــة عامَّــــة

الفَصل الأوَّل

مراحل تقسيم الكنيسة الجامعة

تمهيد

لم يكن العالم المسيحي القديم يعرف سوى كنيسة مسيحيَّة واحدة، كما أراد لها المسيح أن تكون. ولم تظهر كنيسة شرقيَّة وأخرى غربيَّة، إلاّ نتيجة لانقسام الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة إلى شرقيَّة وغربيَّة. فأسباب تقسيم الكنيسة كانت في الأصل سياسيَّة وليست دينيَّة. ولعل أفضل ما يوضِّح ذلك أن الكنيسة الآشوريَّة عندما انتقلت إلى الإمبراطوريَّة الفارسيَّة في أقصى الشَّرق، نظرت إلى أي كنيسة مجاورة لها تقع على الحدود الشَّرقيَّة للإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة، على أنها كنيسة غربيَّة بالنِّسبة لها. ومن هنا جاءت التَّسميات: "الكنيسة السِّريانيَّة الشَّرقيَّة"، "الكنيسة السِّريانيَّة الغربيَّة". فهي تسميات خضعت في البداية للمواقع الجغرافيَّة للإمبراطوريَّات التي نشأت فيها هذه الكنائس، قبل أن تأخذ أنواع الثَّقافات المختلفة، وأحداث التَّاريخ المتتابعة، دورها البارز في وضع فوارق واضحة بين ما هو غربي، وما هو شرقي. ولنبدأ الموضوع من بدايته.

طبقاً للقَّانون السَّادس لمجمع نيقية المسكوني الذي عُقد سنة ٣٢٥م، توزَّعت الكنيسة الجامعة على ثلاث أسقفيَّات هي الإسكندريَّة وروما وأنطاكية. لأنه حتى ذلك التَّاريخ لم تكن كنيسة القسطنطينيَّة قد عُرفت بعد، لأن الإمبراطور قسطنطين بدأ في تشييد المدينة سنة ٣٢٤م. أما المدينة المقدَّسة أورشليم، فكانت تتبع كنسياً قيصريَّة فلسطين[١] عصرئذ، وكانت هذه بدورها مرتبطة كنسياً ببطريركيَّة أنطاكية.

وبعد ما يزيد قليلاً عن نصف قرن، حيث كانت مدينة القسطنطينيَّة

١– ورد في الطَّبعة الأولى – خطأ – أنها قيصريَّة الكبادوك.

قد صارت عاصمة الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة الشَّرقيَّة، ولُقِّبت بروما الجديدة - تمييزاً لها عن روما القديمة عاصمة الإمبراطورية الغربيَّة - تقنَّن هذا التَّقسيم السِّياسي على المستوى الدِّيني!، ولما لا وقد صار الإمبراطور المسيحي هو نائب الإله على الأرض؟ فدسَّ أنفه في شؤون الكنيسة، ونصَّب نفسه حامياً لها، حتى لو كان ذلك باستخدام السَّيف!.

ففي مجمع القسطنطينيَّة المسكوني سنة ٣٨١م، وطبقاً لقانونه الثالث، أصبح العالم المسيحي ينقسم إلى:

- العالم المسيحي الغربي وعاصمته روما.
- العالم المسيحي الشَّرقي وعاصمته القسطنطينيَّة.

فصار العالم المسيحي ينقسم إلى أربعة أسقفيَّات هي: روما، القسطنطينيَّة، الإسكندريَّة، وأنطاكية. وكان أسقف القسطنطينيَّة قبل ذلك التَّاريخ تابعاً أو خاضعاً لإيبارشيَّة هيراقليا Heraclea . وعلى الرَّغم من أن هذا القانون الثالث قد رفضه أساقفة الكراسي الشَّرقيَّة، ورفضه كرسي روما أيضاً، لأن أسبابه كانت سياسيَّة بحتة، ولا علاقة لها بالأمور الدِّينيَّة من قريب أو بعيد، إلاَّ أنه تثبَّت في قوانين المجامع التَّالية.

ففي مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م تحرَّرت أورشليم من سلطة قيصريَّة فلسطين، وأُعطيت المرتبة الخامسة بين الكراسي الكبرى. وهكذا أُنشئ النِّظام الذي عُرف فيما بعد باسم الرِّئاسة الخماسيَّة Pentarchie . فأصبح النِّظام البطريركي الخماسي يتضمَّن بطريركيَّات روما، القسطنطينيَّة، الإسكندريَّة، أنطاكية، وأورشليم. بعد أن أُعطي لقب بطريرك لكل أسقف من أساقفة هذه المدن الخمس، إثر مرسوم إمبراطوري أصدره الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) في القرن السَّادس الميلادي.

ولقد طرأت تطوُّرات كثيرة عبر التَّاريخ على هذا النِّظام البطريركي الخماسي القديم، وهو ما سنشرحه في السُّطور القادمة.

أولاً: انقسام الكنيسة الشَّرقيَّة

تقلّص العالم المسيحي لأوَّل مرَّة في جزئه الشَّرقي، بانفصال الكنيسة النَّسطوريَّة Nestorian Church ، أي الكنيسة الآشوريَّة، عن بطريركيَّة أنطاكية، في منتصف القرن الخامس الميلادي، فانعزلت الكنيسة النَّسطوريَّة، وانضوت تحت حكم الإمبراطوريَّة الفارسيَّة، واتَّخذت من إيران والعراق مقراً لها مبتعدة عن الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة برُمَّتها، وعمَّا يجوب أرجاءها من تيَّارات وأحداث. وعُرفت هذه الكنيسة باسم "الكنيسة السِّريانيَّة الشَّرقيَّة"، تمييزاً لها عن الكنيسة السِّريانيَّة الغربيَّة، أي كنيسة أنطاكية.

وما هي إلاَّ بضع سنين، حتى كان مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م، الذي شطر الكنيسة الأرثوذكسيَّة إلى قسمين، إذ لم تعترف بطريركيَّتا الإسكندريَّة وأنطاكية - وما يتبعهما من كنائس - بعقيدة الطَّبيعتين في شخص السيِّد المسيح، والتي نادى بها هذا المجمع.

وبعد حين انضمَّت كنيسة أرمينيا، ثم كنيسة إثيوبيا التي تتبع بطريركيَّة الإسكندريَّة، ثم كنيسة الهند التي تتبع بطريركية أنطاكية، إلى كنيستي الإسكندريَّة وأنطاكية، فأصبحت خمس كنائس هي: القبطيَّة، الإثيوبيَّة، السِّريانيَّة، الهنديَّة، والأرمينيَّة. ونظراً لعوامل تاريخية متداخلة، تكونت كنيسة أرمينيَّة أرثوذكسيَّة مستقلَّة، مقرُّها أنتلياس في لبنان[٢]. ودُعيت مجموعة هذه الكنائس التي لم تقبل مقرَّرات مجمع خلقيدونية باسم "الكنائس الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة القديمة Oriental Orthodox Churches". أما اسمها التَّقليدي فهو

٢- هناك مساع لعودة الكنيسة الأرمينية الأرثوذكسية المستقلة لتكون كنيسة واحدة تحت رئاسة كرسي إتشميازين بأرمينيا.

"الكنائس الأرثوذكسيَّة اللاخلقيدونيَّة".

وجدير بالذِّكر أن اجتماع أديس أبابا بإثيوبيا سنة ١٩٦٥م في أيام قداسة البابا كيرلس السَّادس، كان أوَّل لقاء يضم رؤساء هذه الكنائس معاً في العصر الحديث.

وحديثاً وبعد قرابة خمسة عشر قرناً ونصف، وقبل أن تغرب شمس القرن العشرين انضمت كنيسة إريتريا إلى هذه الكنائس الأرثوذكسيَّة اللاخلقيدونيَّة، بعد أن استقلَّت دولة إريتريا عن إثيوبيا سنة ١٩٩٣م، إثر حرب دامت بينهما ثلاثين سنة للحصول على الاستقلال.

كانت إريتريا طريقاً للهجرات العربيَّة إلى شرق أفريقيا حيث انتشر بها الإسلام. وطوال التَّاريخ تعرَّضت إريتريا للغزو من جانب البرتغاليين والأتراك، وأخيراً للاحتلال الإيطالي حتى نهاية الحرب العالميَّة الثانية. وبعد هزيمة إيطاليا في هذه الحرب، تم تخويل الحلفاء المنتصرين في الحرب تقرير مصير إريتريا، ولكن نتيجة لتعارض وجهات النَّظر بين الحلفاء، تم تحويل هذا الموضوع إلى الجمعيَّة العامة للأمم المتَّحدة، والتي قرَّرت إقامة اتحاد فيدرالي بين إريتريا وإثيوبيا بناء على مشروع قرار أمريكي. وقد نص هذا القرار على أن يكون لإريتريا حكومة داخليَّة، وعَلَم، ودستور، وتتمتَّع بسلطات قضائيَّة وتشريعيَّة وتنفيذيَّة، كما نص القرار على أن يكون هناك مجلس للاتحاد الإثيوبي الإريتري، يتكوَّن من الجانبين برئاسة الإمبراطور هيلاسلاسي الأوَّل إمبراطور إثيوبيا السَّابق.

وقبل سنة ١٩٦٢م اعتمد برلمان إريتريا اللُّغة العربيَّة واللُّغة التعيزيَّة لغتين رسميتين للبِّلاد. ولكن حدث في نوفمبر سنة ١٩٦٤م أن أعلنت إثيوبيا دمج إريتريا فيها، وقامت باحتلالها بقوة السِّلاح، ومنذ ذلك التَّاريخ استمر الشَّعب الإريتري في نضاله من أجل الاستقلال الذي تحقَّق له أخيراً في ٢٥ مايو سنة ١٩٩٣م.

وطلب الأرثوذكس بإريتريا من بابا الإسكندريَّة، قداسة البابا شنوده الثالث، وهو البابا المائة والسَّابع عشر من باباوات الكرازة المرقسيَّة، منحهم حق تكوين كنيسة محليَّة مستقلّة. وكان قداسته قد رسم أسقفين عموميين من الرُّهبان الإريتريين من خريجي الكليَّة الإكليريكيَّة بالقاهرة، أتبعهما في مايو سنة ١٩٩٤م برسامة خمسة أساقفة لكنيسة إريتريا من رؤساء الأديرة هناك. ثم في نهاية المطاف، قام مع أساقفة الكنيسة القبطيَّة برسامة بطريرك لكنيسة إريتريا باسم أبونا فيلبُّس الأوَّل. وفي مايو سنة ١٩٩٨م سافر قداسة البابا إلى إريتريا واجتمع بالمجمع المقدَّس هناك.

وهكذا أصبحت عائلة الكنائس الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة القديمة تضم الآن الكنائس التَّالية:

١- الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة (كرسي الإسكندريَّة).
٢- الكنيسة السِّريانيَّة الأرثوذكسيَّة (كرسي أنطاكية).
٣- الكنيسة الأرمينيَّة الأرثوذكسيَّة (كرسي إتشميازين، وكرسي أنتلياس).
٤- الكنيسة الهنديَّة الأرثوذكسيَّة.
٥- الكنيسة الإثيوبيَّة الأرثوذكسيَّة.
٦- الكنيسة الإريتريَّة الأرثوذكسيَّة.

وترتبط هذه الكنائس الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة القديمة بروابط المحبَّة والإيمان المشترك، وتتبادل فيما بينها الرَّسائل والزِّيارات، ويلتقي رؤساؤها في اجتماعات دوريَّة، تعبِّر دوماً عن رؤية إيمانيَّة واحدة.

ومن أهم الاجتماعات التي ضمَّت رؤساء كنائس الإسكندريَّة وأنطاكية وأرمينيا، وهم على التَّوالي: قداسة البابا شنوده الثالث، وغبطة البطريرك إغناطيوس زكّا الأوَّل، والكاثوليكوس آرام الأوَّل، هو الاجتماع الذي عُقد في يونيو سنة ١٩٩٦م في كاثوليكوسيَّة الأرمن لبيت كيليكيَّا في أنتلياس بلبنان، ثم أعقبه اجتماع آخر بينهم في مارس سنة ١٩٩٨م

بدير القدِّيس أنبا بيشوى بوادي النَّطرون بمصر، واتفق الآباء البطاركة فيه على أن يكون اللّقاء بينهم بصفة دوريَّة سنوياً، وبطريقة منتظمة[٣].

وفيما يلي نص مقدِّمة هذا الاتفاق: لقد وجدنا أرضيَّتنا المشتركة في الصِّيغة التي وضعها أبونا المشترَك القدِّيس كيرلــس الإســكندري: μὶα φύσις τοῦ λόγου Θεῶ σεσαρκωμένη أي "طبيعة واحدة لله الكلمة في تجسده[٤]". وفي قوله: "إنه من الكافي للاعتراف بإيماننا الرَّاسخ الحقيقي أن نقول ونعترف أن العذراء القدِّيسة هي والدة الإله Θεοτόκος".

ولقد صدر عن هذا اللّقاء المشار إليه بيانٌ مطوَّل من بين ما جاء فيه:

أولاً: إننا في شهادتنا المشتركة، لإيماننا بالابن الواحد المتجسِّد يسوع المسيح، نتمسَّك بالإيمان الرَّسولي الذي تسلَّمناه من الآبــاء الرُّسُــل في الأسفار المقدَّسة للعهدين القديم والجديد، والمجامع المسكونيَّة الثلاثة: نيقية (٣٢٥م)، القسطنطينيَّة (٣٨١م)، وأفسس (٤٣١م)، وتعــاليم الآبــاء القدِّيسين المكرَّمين في كنائسنا الثلاث، الذين جاهدوا من أجل الحفاظ على عقائد كنائسنا وعلى تعاليم هذه المجامع.

لقد جاهدت كنائسُنا، على مدى تاريخها بدماء شهدائها، من أجل الحفاظ على تعاليم مجمع أفسس بشأن تجسُّد الكلمة، المبنيَّة على تعــاليم القدِّيس كيرلس الكبير (٤٤٤م)، وقرارات المجمع المــذكور. ويهمُّنــا أن نذكر هنا بخاصة من بين آبائنا، القدِّيس غريغوريوس المنــوَّر، والقــدِّيس ديسقوروس الإسكندري، ومار فيلوكسينوس المنبجي، ومــار يعقــوب

٣- في الاجتماع الدَّوري بين هؤلاء الآباء، عُقد لقاء سنة ١٩٩٩م بدير مار أفــرآم السِّرياني بمعصرة صدنايا في سوريا. وفي فبراير سنة ٢٠٠٠م في بيت كيليكيَّا بلبنــان. وفي مارس سنة ٢٠٠١م في المقر البابوي بالأنبا رويس بالقاهرة ... الخ.

٤- وذلك حسب نص البيان، لأن σεσαρκωμένη تأتي هنا في صيغة المؤنَّث، أي أنها تعود على "الطبيعة" وليس على "الله الكلمة".

البرادعي، والقدِّيس نيرسيس ذا النِّعمة، الذين حفظوا بثبات الإيمان الرَّسولي، ودافعوا بقوَّة عن أرثوذكسيَّة تعاليم المجامع المسكونيَّة الثلاثة الأولى.

ثانياً: إن تعاليم القدِّيس كيرلس الكبير تشكِّل أساس التَّعليم الكريستولوجي لكنائسنا، وهي التي على أساسها أمكن للجنة الحوار اللاهوتي الرَّسمي المشترك بين الكنائس الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة والبيزنطيَّة(٥)، أن تضع صيغة الإيمان المشترك التي قُدِّمت، وهي قيد الدِّراسة في المجامع المقدَّسة للعائلتين.

ثالثاً: وفي تمسُّكنا وطاعتنا المخلصة بإيمان وعقائد وتعاليم آبائنا القدِّيسين، نؤكِّد بثبات رفضنا لكل التَّعاليم الهرطوقيَّة، التي علَّم بها كل من أريوس، وسابيليوس، وأبوليناريوس، ومقدونيوس، وبولس السَّاموساطي، وديودور الطَّرسوسي، وثيئودور الموبسويسيتي، ونسطور، وأوطاخي، وكل من يتبع هرطقاتهم أو يعلِّم بتعاليمهم الخاطئة والهرطوقيَّة، وباقي الهرطقات الأخرى.

رابعاً: ونؤمن أن ربَّنا يسوع المسيح، ابن الله الكلمة، قد جاء بأقنومه الخاص، ولم يتَّخذ شخصاً من البشر، بل هو نفسه بالاتحاد الأقنومي قد اتَّخذ طبيعة بشريَّة كاملة، نفساً عاقلة وجسداً، بلا خطيئة، من العذراء القدِّيسة مريم، بالرُّوح القُدُس، جاعلاً بشريَّته الخاصة به ولاهوته طبيعة واحدة، وأقنوماً واحداً للتجسُّد في لحظة التَّجسُّد باتحاد طبيعي وأقنومي حقيقي، وأن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين، وهذا الاتحاد هو اتحاد فائق للوَّصف والإدراك.

ونحن حينما نتكلَّم عن طبيعة واحدة للتجسُّد لكلمة الله، فلا نعني لاهوته فقط أو ناسوته فقط، أي طبيعة مفردة، ولكننا نتكلَّم عن طبيعة

٥- سيأتي الحديث عنها فيما بعد.

واحدة إلهيَّة وإنسانية متَّحدة في المسيح بغير تغيير (استحالة)، ولا اختلاط، ولا بلبلة (تشويش)، ولا انقسام، ولا انفصال. إن خصائص كل طبيعة لم تتغيَّر أو تنحل بسبب الاتحاد، ولا يمكن التَّمييز بين الطَّبائع إلاَّ في الفكر فقط τῇ Θεορίᾳ μονῇ .

خامساً: اتَّفقنا على ضرورة الحفاظ على مواقف موحَّدة إيمانيَّة، في جميع الحوارات اللاهوتيَّة. ولهذا السَّبب من الآن فصاعداً، فأي حوار لاهوتي مع الكنائس الأخرى والجماعات المسيحيَّة العالميَّة، سوف يجري على مستوى العائلة الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة في الشَّرق الأوسط، آملين أن يتمَّ توسيع ذلك المبدأ ليشمل كنائس العائلة على اتساعها، كما هو حاصل حالياً في عديد من الحوارات ...

ثانياً: انشقاق الكنيسة إلى شرقيَّة وغربيَّة

في القرن التاسع الميلادي بدأ التباعد والنفور يزداد رويداً رويداً بين كنيستي روما والقسطنطينيَّة، مما أدىَّ في النهاية إلى انفصال واضح ونهائي بينهما. وكان آخر اتصال بين العالم المسيحي اليوناني في الشَّرق، ونظيره اللاتيني في الغرب سنة ١٠٥٤م، ويُسمّى "عام الانشقاق العظيم". ففي أواخر مارس أو أوائل إبريل من نفس هذه السَّنة، وصل الكاردينال هومبرتو – السَّاعد الأيمن لبابا روما، والمشهور بكراهيته لليونانيين – إلى القسطنطينيَّة ليتفاوض مع سلطاتها الكنسية حول بعض الخلافات الكنسية. وفي نهاية المفاوضات اعتبر هومبرتو أن كرسي القسطنطينيَّة هو أسقفية متمرِّدة، غير خاضعة خضوع الطَّاعة لأسقفية روما. وفي ١٦ يوليو سنة ١٠٥٤، دخل هومبرتو كنيسة أيّا صوفيًا (الحكمة الإلهيَّة)، بالقسطنطينيَّة، ووضع قرار الحرم على مذبح الكنيسة.

ولقد عبر هذا الانفصال في الحقيقة على مراحل كثيرة معقّدة، حتى أن بدايته الحقيقيّة لا يمكن تحديدها بدقّة. أما عن نقاط الخلاف الأساسيّة بين الجانبين فكان من أهمها، الحقوق البابويّة papal claims . وعلى مستوى الممارسات اللّيتورجيّة، فإن مشكلة خبز الإفخارستيّا المختمر، أو غير المختمر azymes قد سبّبت توتّراً شديداً بين الطّرفين.

ولقد ترتبت آثار جمة نتيجة هذا الانفصال في كلا الشّرق والغرب. وفي السُّطور القادمة نعرض لآثار هذا الانفصال أولا في الشّرق، وثانياً في الغرب.

(أ) آثار الانفصال في الشّرق المسيحي

امتدت الكنيسة الأرثوذكسيّة البيزنطيّة إلى الشّمال، وانطلقت منها إرساليات تبشيريّة كبيرة، بدأت في منتصف القرن التّاسع الميلادي بواسطة (القدّيسَين) كيرلس وميثوديوس رسولي السلافيين، فتحوّلت بلغاريا، فصربيا، ثم روسيا، إلى الإيمان المسيحي بسبب مجهودات هذه الإرساليّات التبشيريّة البيزنطيّة. وفي ذات الوقت، تكوّنت لهذه الأقطار السلافيّة كنائسها الوطنيّة الخاصة، غير المعتمدة على الكنيسة الأم في القسطنطينيّة. إلاّ أن سقوط القسطنطينيّة في يد الأتراك سنة ١٤٣٥م جعل من الكنيسة الروسيّة أكبر هذه الكنائس الخلقيدونيّة تأثيراً في الشّرق، ومع ذلك فقد ظلت كرامة البطريرك المسكوني تحتفظ بأولويتها الشّرفيّة.

وفي الوقت الحاضر، فإن مجموعة الكنائس الأرثوذكسيّة البيزنطيّة، أي التي تمارس الطّقس البيزنطي، والتي أصبحت تُعرف باسم "الكنائس الأرثوذكسيّة الشّرقيّة – Eastern Orthodox Churches " أو باسمها

التَّقليدي القديم "الكنائس الأرثوذكسيَّة الخلقيدونيَّة[٦]"، تضم الآن ١٩ كنيسة أرثوذكسيَّة. ويمكن تقسيم هذه الكنائس إلى المجموعات الآتية:

١- الأربع بطريركيات القديمة[٧]: القسطنطينيَّة – الإسكندريَّة – أنطاكية – وأورشليم.

٢- الخمس بطريركيات الحديثة: روسيا – صربيا – رومانيا – بلغاريا – وجورجيا.

٣- ست كنائس مستقلة – Autocephalous Churches [٨]: قبرص –

٦- تمييزاً لها عن الكنائس الأرثوذكسية الشَّرقيَّة القديمة الـتي لا تعترف بمجمع خلقيدونية، حيث تُعرف أيضاً باسم "الكنائس الأرثوذكسية اللاخلقيدونيَّة".

٧- نشأت هذه البطريركيات بعد أن عزل الإمبراطور البيزنطي بطاركة الكنائس الشَّرقيَّة التي لم تعترف بمجمع خلقيدونية، وعيَّن آخرين بدلاً منهم سُموا "البطاركة الملكيين" نسبة إلى الملك أي الإمبراطور. ومنذ ذلك التاريخ صار لكل من كنيسة الإسكندرية وكنيسة أنطاكيا بطريركان، واحد هو البطريرك الأصلي، أو الوطني، والآخر هو البطريرك الملكي، والذي يتبع كرسي القسطنطينية. فظهرت مشكلة ازدواج الرئاسة الكنسية إلى يومنا هذا.

٨- الكلمة في أصلها يونانيَّة αὐτοκέφαλος وتعني حرفياً: "هو نفسه الرأس – himself the head"، وهو اصطلاح كنسي استُخدم في الكنيسة منذ زمن مبكِّر ليصف الأساقفة الذين لم يكونوا خاضعين لسلطة أعلى، فهم والأمر كذلك مستقلُّون عن سُلطة البطريرك أو المطران. ومن هؤلاء أسقف قبرص، وأساقفة أرمينيا، وإيبيريا Iberia ، حتى زمن فوتيوس Photius بطريرك القسطنطينيَّة (٨١٠ – ٨٩٥م).

أما المعنى الآخر لهذه الكلمة، فقد استُخدم ليشير إلى أساقفة الشَّرق الذين كانوا يتبعون البطريرك مباشرة دون الرجوع إلى المطران أي المتروبوليت. ومثل الكهنة أيضاً الذين يخدمون في إيبارشية البطريرك.

أما استخدامها الحالي والحديث، فهو يختص بالكنائس الوطنيَّة الحديثة، والتي تؤلف معاً الكنيسة الشَّرقيَّة الأرثوذكسية، والتي على الرَّغم من أنها في شركة مع القسطنطينيَّة، إلاَّ أنها تحكم ذاتها بنفسها، بواسطة مجمعها الكنسي الخاص بها. وفي العصور الحديثة، قد أُعطي لقب "بطريرك" لرؤساء هذه الكنائس، مثل كنيسة روسيا، وصربيا، ورومانيا، وبلغاريا، وجورجيا.

اليونان - تشيكوسلوفاكيا (سابقاً) - بولندا - وألبانيا - وجبل سيناء.

٤- أربع كنائس لها الحق الذاتي في إدارة شؤونها - Autonomos Churches [٩]: فنلندا - اليابان - أمريكا - والصين.

ولقد تأسَّست كنيسة اليابان الأرثوذكسيَّة، والكنيسة الأرثوذكسيَّة بأمريكا، نتيجة العمل الكرازي الرُّوسي، وحصلتا على حق الاستقلال الذَّاتي من بطريركيَّة موسكو، برغم عدم موافقة بطريرك القسطنطينيَّة. وعلى ذلك فإن هاتين الكنيستين هما في شركة مع باقي كنائس العائلة الخلقيدونيَّة، ولكن لا يشارك رئيساها في الاجتماعات التي تضُم رؤساء الكنائس الأرثوذكسيَّة لهذه العائلة!.

أما الكنيسة الأرثوذكسيَّة في الصين، فقد تكوَّنت هي الأخرى بالعمل الكرازي الرُّوسي، وبعد الحكم الشيوعي للصين انقطعت أخبار تلك الكنيسة عن العالم الخارجي، ولكنها اليوم في ازدهار مستمر، بعد أن تغيَّرت موازين القوى في العالم. وفي سنة ١٩٩٨م ذكرت الكنيسة في الصين أن الحكومة الصينيَّة أصبحت أكثر حساسية لمطالبها، وأن أوضاع الكنيسة قد تحسَّنت في النصف الثاني في التسعينيات من القرن العشرين، ولكن مما لا شك فيه أن الطَّريق لازال طويلاً أمام الكنيسة الصينيَّة لتتمتع بحريتها كاملة.

والكلمة تنطبق أيضاً على الدَّير المستقل في جبل سيناء (دير سانت كاترين). وهي تقابل في الإنجليزية كلمة autonomos . وبرغم ذلك فقد اختص التعبير Autocephalous بها.

Cf. The Oxford Dict. of the Christ. Church, (ODCC), (2nd edition), p. 1043.

٩- وهذه الكنائس لها الحق في إدارة شؤونها الرَّعويَّة، ولكن لا يحق لمجمعها المقدَّس رسامة رئيس للكنيسة. ورئيس كل كنيسة منها برتبة "رئيس أساقفة"، ويقوم برسامته البطريرك المسكوني. ويُطلق على هذه الكنائس اسم autonomos .

وإذا قارنا وضع الكنيسة في الصين اليوم بما كانت عليه في الخمسينيات مثلاً، لوجدنا تحسناً كبيراً قد طرأ على الكنيسة هناك. فقد كان رجال الكنيسة يُعاملون بكثير جداً من الخشونة والجفاء، لا لشئ إلاّ لأنهم مسيحيين. أما اليوم فتعترف الحكومة الصينيَّة بكل الطوائف المسيحيَّة فيها، شريطة أن تسجِّل نفسها لدى الحكومة، وأن توافق بأن تظل تحت المراقبة الرسميَّة.

ومن جهة الثقافة واللُّغة، فإن كنائس اليونان وقبرص وجبل سيناء، هي كنائس يونانيَّة، أما كنائس روسيا وصربيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا، فهي كنائس سلافونيَّة، بينما تنتمي كنيسة رومانيا للثقافة اللاتينيَّة.

وانتشرت الكنيسة الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة في قارات العالم الخمس، بهجرة أعداد كبيرة من أبنائها. وفي غضون الرُّبع الأخير من القرن العشرين شهدت الكنيسة القبطيَّة هي الأخرى هجرة ضخمة لخيرةٍ من أبنائها إلى كل أقطار الدُّنيا، لأسباب كثيرة نعرض لها عند الحديث عن الكنيسة القبطيَّة على وجه التَّخصيص.

(ب) آثار الانفصال في الغرب المسيحي

ومثلما حدث أن انقسمت الكنيسة في الشَّرق إلى ثلاث كنائس هي:

- الكنيسة الآشوريَّة.
- الكنيسة اللاخلقيدونيَّة.
- الكنيسة الخلقيدونيَّة.

هكذا انقسمت أيضاً الكنيسة في الغرب إلى ثلاث كنائس هي:

- الكنيسة الكاثوليكيَّة.
- الكنيسة البروتستنتيَّة.

- الكنيسة الأنجليكانيَّة(١٠).

كانت البداية الأولى في أوائل القرن السَّادس عشر، عندما ظهرت في إيطاليا حركة عُرفت باسم "حركة الأدب الإنساني"، وكان هدفها إثراء المسيحيَّة بأجمل ما في الأدب القديم من روعة وجمال. فواصَل أتباع هــذه الحركة نشر أهم مؤلّفات الأدباء الإغريق والرُّومان، يساعدهم علــى في ذلك اختراع الطِّباعة التي عرفتها أوروبا لأوَّل مرَّة سنة ١٤٤٠م.

وبغية فهم فكر الأدباء القدامى ومؤلّفاهم، اتجه أصــحاب حركــة الأدب الإنساني إلى دراسة الحضارتين الإغريقيَّة والرُّومانيَّة بدقّة كاملــة، بكل ما فيهما من لغة، وقواعد، ونظام سياسي، وديانة، وقانون ... الخ. وأنشأوا لذلك علم فقه اللغتين اليونانيَّة واللاتينيَّة، والذي سمح لهم بتحليل نصوص الأدب القديم، وفهمها وشرحها.

وامتدت حركة الأدب الإنساني من إيطاليا لتنتشر في كل من ألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا، وهولندا، حيث لمع الأديب إيراسم Erasm (١٤٦٥-١٥٣٦م) الذي وُلد في روتردام بهولندا، ودخل في شبابه السِّلك الرَّهباني، ولكنه ما عتّم أن غادر الدَّير، وأخذ يتجوَّل في أوروبا، وكثيراً ما كــان يتهكَّم على تجاوزات رجال الإكليروس آنئذ. ولكونه كان متضــلّعاً في العلوم والآداب، أخذ على عاتقه نشر النُّصوص العلميَّة الدَّقيقة لكتــاب العهد الجديد، ومؤلفات الأدباء من الحضارة اليونانيَّة - الرُّومانيَّة القديمة، وكذلك كتابات آباء الكنيسة الغربيَّة مثل القدّيسَين إيرونيموس (٣٤٢-٤٢٠م) وأغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م) ... الخ.

١٠- منقولة بتصرف عن مجلة المسرة، تموز - آب، سنة ١٩٩١م، وكتاب "دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة" بقلم الأب جان كومبي، دار المشرق، بيروت، سنة ١٩٩٤م، وهو متــرجم عن كتاب صدر بالفرنسيَّة بعنوان: Jean Comby, *Pour Lire L'histoire de L'Eglise*, Edition du Cerf, Paris, 1986.

كان أصحاب "المذهب الإنساني" في غالبيتهم من المؤمنين الأتقياء المتمسكين بإيمان الكنيسة الكاثوليكيَّة، خاصة في إنجلترا، وألمانيا، وفرنسا. لكنهم أخذوا يشعرون ببعض الضِّيق في حضن الكنيسة في أواخر القـــرن الخامس عشر، إذ كانوا يتوقون إلى ديانة مسيحيَّة أكثر روحانيَّة وتعمُّقاً، تعف عن مظاهر الأبَّهة في الاحتفالات الدينيَّة، ويرغبون مخلصين في العودة إلى جذور المسيحيَّة في قرونها الأولى. ورغبة منـــهم في تعريـــف النَّـــاس بالكتاب المقدَّس، وتحبيبه إليهم، راحوا ينشرونه ترجمة وشرحاً وتعليقـــاً. فقادتهم أبحاثهم أحياناً إلى استنتاجات رهيبة، وتبيَّن لهم أن الكنيســـة في تلك الأيام كانت تعلِّم بعض تعاليم بمفهوم يختلف تماماً عن تعاليم الكتاب المقدَّس، وتعاليم الآباء، فأشاروا إلى قرَّائهم ونصحوا تلامـــذتهم باتّبـــاع تعاليمهم هم، فأسهموا بذلك فيما سُمي بـــ "الإصلاح" وساندوه.

في ذلك الوقت ارتفعت الأصوات تطالب بعقد مجمـــع إصـــلاحي. وهكذا افتتح البابا يوليوس الثَّاني سنة ١٥١٢م المجمع اللاتـــراني الخـــامس الذي اختتم أعماله سنة ١٥١٧م بعد أن أعدَّ برنامجاً إصلاحياً، لكن لم يجد البرنامج سبيله إلى التَّنفيذ.

كان البعض من أصحاب "الأدب الإنساني" يرى أن لاهوتيي ذاك العصر من الكاثوليك، لم يستطيعوا أن يعطوا جواباً يهدئ روع الإنسان الباحث عن الخلاص، كما أن تقاعس الباباوات وانشغالهم عن الرُّوحيَّات بالدنيويَّات كان هو السَّبب الذي دفع لوثر وكلفن إلى الانفصـــال عـــن الكنيسة الكاثوليكيَّة الرومانيَّة، وبالتالي عن بابا روما.

مارتن لوثر Martin Luther

وُلد مارتن لوثر (١٤٨٣- ١٥٤٦م) في إيسليبن Eisleben بألمانيا من عائلة فقيرة، فعاش طفولة خشنة، وانخرط في سلك الرَّهبنة الأغســـطينيَّة

سنة ١٥٠٥م، ونال شهادة الدكتوراه في اللاهوت، ثم عُيِّن مدرِّساً لتعليم الكتاب المقدَّس في جامعة فيتينبيرج Wittenberg الكاثوليكيَّة في سنة ١٥١٣م، حيث بدأ في سنة ١٥١٥م بتدريس رسائل القدِّيس بولس الرَّسول. وإذ كان يراوده القلق والرِّيبة في أن يظل خاطئاً بالرَّغم من كل جهاداته وتقشفاته وصلواته، وجد في دراسته لرسالة القدِّيس بولس الرَّسول إلى أهل رومية سبيلاً آخر للخلاص - بحسب فكره - مغايراً لما تلقنه هو من معلميه، ولاسيَّما من تعليم القدِّيس أُغسطينوس.

فاللاهوتيون في العصر الوسيط كانوا يعلِّمون أن الإنسان يسهم في أمر خلاصه بأعماله الصَّالحة التي تؤهِّله قدر الإمكان للخلاص، أما لوثر فكان على العكس يعتقد ويعلِّم طلاَّبه أن الإنسان حتماً خاطئ بوصمة الخطيَّة الأصليَّة - وهو تعليم القدِّيس أغسطينوس - ولذا فلا يفعل سوى الشَّر، ولا طاقة له البتة في خلاص نفسه. وتوغل الله في حياة المسيحي يفيض في قلبه شعوراً مفعماً بالفرح والأمان والشُّكر، وهو ما يسميه لوثر "الإيمان". من هنا، ومن هذا التَّعليم انطلق الشِّعار الذي تمسَّك به لوثر، ومن بعده كل الكنيسة البروتستنتيَّة "الخلاص بالإيمان وحده، دون أية علاقة بالأعمال الصَّالحة!".

لم يكن لوثر قد انفصل عن الكنيسة الكاثوليكيَّة حتى ذلك الوقت. ولكن بعد سنوات قلائل، وفي سنة ١٥١٧م، أصدر لوثر نشرة من ٩٥ بنداً أو تصريحاً، يبرهن فيها أن "الغفرانات[١١]" تشكِّل خطراً على إيمان

١١- "صكوك الغفران" هي وصمة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكيَّة في الماضي، وكانت تهدف إلى إعفاء من يشتريها بالمال من عقوبات على الأرض أو عقوبات في المطهر في السَّماء، نتيجة خطاياه، وذلك بعد أن ينال الحل في سر الاعتراف، وذلك بتتميمه بعض الصَّلوات أو الأعمال المفروضة. فالبابا لاون العاشر مثلاً، منح غفراناً لكل مؤمن معترف يتبرع بصدقة ما لإتمام بناء كاتدرائيَّة القدِّيس بطرس التي أُعيد بناؤها لكي تكون على شكلها الحالي ابتداء من سنة ١٥٠٦م.

المسيحيين وتقواهم. وألصق النَّشرة على باب كنيسة قصر فيتينبيرج Wittenberg ، وهو في ذلك لم يكن يفكّر في الانشقاق عن الكنيسة، إنما كان يطرح أمام اللاهوتيين نقاشاً للبحث يوضِّح معنى هذه الغفرانات ويبين مدى جدّيتها. لأنها تناقض تماماً تعليمه عن أن الإنسان يخلص بالإيمان وليس بالأعمال. وقد لاقت هذه البنود الـ ٩٥ قبولاً شعبياً كبيراً في أنحاء ألمانيا وأوروبا.

وعندما دار النِّقاش واحتدم بينه وبين مناوئيه، واضطر لوثر إلى التهكُّم عليهم بكتابات لاذعة، أخذ يتنكّر علناً لبعض تعاليم الكنيسة الكاثوليكيَّة الأساسيَّة، وسجَّل فكره هذا في ثلاثة مؤلّفات كبرى، نشرها سنة ١٥٢٠م، هي: "نداء إلى الأشراف المسيحيِّين في الأمَّة الألمانيَّة"، "أسرار الكنيسة في بابل"، "حريَّة المسيحي". ودعا فيها إلى عقد مجمع مع التأكيد على أن المجمع غير معصوم من الخطأ، وكان قد صرَّح سنة ١٥١٩م بقوله: "أكاد لا أشك في أن البابا هو المسيح الدجَّال". فحرمه البابا لاون العاشر سنة ١٥٢٠م، فازدرى لوثر بالحرم، وأخذه وألقاه في النَّار أمام حشد من مناصريه.

وفي السَّنة التَّالية، استدعى شارلكان (شارل الخامس) (١٥٠٠-١٥٥٨م) ملك أسبانيا وصقلية، وإمبراطور ألمانيا، لوثر للمثول أمام المجلس الأعلى للإمبراطوريَّة، فرفض الحضور فاضطر المجلس إلى التَّشهير به واعتباره خارجاً عن القانون سنة ١٥٢١م، فدعاه حاكم مقاطعة الساكس وأخفاه في قصر لحمياته. وفي تلك العزلة قام لوثر بترجمة كتاب العهد الجديد إلى الألمانيَّة.

ولكنه سرعان ما رضخ ومثل أمام المجلس المذكور، فحكم عليه بالحرم من شركة الكنيسة. وسرعان ما انتشرت آراء لوثر ليس فقط في ألمانيا، بل أيضاً في البلاد الإسكندنافيَّة، وسويسرا، وفرنسا، ونَجَمَ عن ذلك

اضطرابات ليست بقليلة.

وتتلخَّص تعاليم لوثر في قصر السُّلطة على الكتاب المقدَّس وحده، باعتباره المصدر الوحيد للإيمان، مما حمله على نبذ التَّقليد والسُّلطة البابويَّة، ورذل إكرام السيِّدة العذراء والقدِّيسين، ورفض تعليم الكنيسة الكاثوليكيَّة عن المطهر، والذَّبيحة الإلهيَّة، وضرورة البتوليَّة للكهنة، والنُّذور الرهبانيَّة، ومن الأسرار السَّبعة لم يستبق سوى سريّ المعموديَّة والتناول.

وتمنى لوثر ألاَّ تتدخَّل الدَّولة في الشؤون الدِّينيَّة، ولكنه لم يستطع في الحقيقة تنظيم كنيسته إلاَّ بإخضاعها إخضاعاً صارماً للسُّلطة المدنيَّة الحاكمة التي اعتنقت اللوثريَّة.

وبالرَّغم من سطوة الإمبراطور شارلكان وجبروته، إلاَّ أنه لم يستطع سحق اللوثريَّة، أو إخضاعها للكنيسة الكاثوليكيَّة، فأعلن عن معاهدة سلام سنة ١٥٥٥م سُمح بموجبها لأمراء الإمبراطوريَّة، ومجالس بلديات مدنها الحرَّة أن يعتنقوا ما يشاءون من اللوثريَّة أو الكاثوليكيَّة، أما الشَّعب فكان مرغماً أن يكون على دين حكامه.

وهكذا، وفي أقل من ربع قرن بعد ظهور حركة التَّصالح مع لوثر، اندثرت الوحدة الوحيدة الباقية في ألمانيا في القرن السَّادس عشر، ألاَّ وهي الوحدة الدِّينيَّة، فعرف العالم ألمانيتين، الواحدة كاثوليكيَّة، والأخرى بروتستنتيَّة.

كانت تعاليم الإصلاح اللوثري قد غزت فرنسا منذ سنة ١٥٢٠م، فرشقها السُّوربون - أعرق جامعات فرنسا - بالحرم، وأُلقي ببعض أتباع لوثر وهم أحياء إلى النِّيران وذلك في العاصمة باريس سنة ١٥٢٣م، غير أن مرجريت شقيقة الملك فرنسوا الأوَّل (١٤٩٤-١٥٤٧م) كانت منحازة إلى اللوثريَّة، فمنعت الملك من أن يفتك بأتباع

الإصلاح، بل ودفعته إلى دعم الأمراء الألمان البروتستنت ضد شارلكان.

وفي سنة ١٥٣٤م أُلصقت في باريس منشورات تُلحق الإهانة بالبابا، وبسر الذّبيحة الإلهيَّة، وأُلصق بعضها على باب غرفة الملك نفسه، فطارد فرنسوا الأوَّل الهراطقة، وكان كلفن Calven من بين أولئك الذين غادروا باريس خوفاً من الاضطهاد.

يوحنا كلفن J. Calven

يوحنا كلفن (١٥٠٩- ١٥٦٤م) هو مصلح فرنسي، وُلد في مدينة نويون Noyon بفرنسا، درس الأدب والحقوق، واعتنق مبادئ الإصلاح اللوثري، ولكنه كان علمانياً، ولم يكن من رجال الإكليروس، شأن معظم رجال الإصلاح الأوَّلين، ومن جهة أخرى كان فرنسياً، في حين أنهم كانوا من الألمان. طاف أنحاء فرنسا، وأصبح لاهوتياً في خدمة المنشقين الفرنسيين. لجأ إلى بال Bâle حيث ألَّف في سنة ١٥٣٦م كتاباً في اللاهوت باللاتينية دعاه "إنشاء الدِّين المسيحي" ليوفر للمسيحيين الفرنسيين تعليماً قويماً ودفاعاً عن ذكرى الشُّهداء. واستوحى جزءاً من آرائه وتعاليمه من لوثر.

انتقل كلفن إلى جنيف بسويسرا سنة ١٥٣٦م بدعوة من صديقه فاريل الذي كان قد رد سكان المدينة من الكاثوليكيَّة إلى الإصلاح، وكان زفنجلي[١٢] Zwingli قد مات منذ ما يقرب من خمس سنوات.

١٢- زفنجلي: هو الرَّجل الثالث في حركة الإصلاح (١٤٨٤- ١٥٣١م) بعد لوثر، وكلفن، وكان متضلعاً في الآداب القديمة وتلميذاً لإيراسم الروتردامي Erasme de Rotterdam (١٤٦٩- ١٥٣٦م)، وكان كاهن رعية في سويسرا. ورافق رعاياه المتطوعين في خدمة البابا في الحروب التي خاضتها إيطاليا، ولما أصبح كاهن رعيَّة زيورخ Zurich وجَّه المدينة إلى صفوف الإصلاح، فعلمن الأديرة، وأدخل الألمانية إلى الليتورجيَّة، وحطَّم التَّماثيل، ولم يتردد في اللجوء إلى الإكراه لإرغام المعارضين،

فهيَّجا الرأي العام في سويسرا، وكذا السُّلطة الحاكمة، فأُمرا بمغادرة جنيف فوراً، وكان ذلك سنة ١٥٣٨م، فلجأ كلفن إلى ستراسبورج ومكث بها مدة ثلاث سنوات إلى أن استدعاه سكان جنيف ثانية سنة ١٥٤١م، ومكث بها حتى يوم مماته. وفي هذه السَّنة نفسها ترجم الكتاب المقدَّس إلى الفرنسيَّة، وطُبع عدة مرَّات. وكان تنظيمه لمدينة جنيف نموذجاً يُحتذى، انتشر فيما بعد انتشاراً واسعاً في أوروبا والعالم كله.

وفي سنة ١٥٦٤م أنشأ أحكاماً ترتكز على مبادئ الإنجيل، ووضع كتاب "كاتيشزم" يثبِّت به مبادئ إيمان أتباعه، وكتاب "الأنظمة الكنسيَّة" الذي يعلِّم كيف يجب على المسيحي الصَّالح أن يعيش. وقد تعرَّض مراراً للطَّرد والقتل من قِبَل حكَّام المدينة. وفي تعصُّبه أمر بنفسه أن يُحكم بالإعدام على أعدائه السِّياسيين أو مناوئيه الدِّينيين!!.

تخلى كلفن عن بعض تعاليم لوثر، وأنشأ مبدأً لاهوتياً جديداً، فقامت الكلفنة إلى جانب اللوثريَّة، كمنهج آخر للبروتستنتيَّة، وتسمت الكلفنيَّة بالدِّيانة المُصلَحة.

وكانت اللوثريَّة قد اعتراها الضَّعف بسبب تسلُّط الأمراء الألمان على مقدراتها، ولتفككها السَّريع إلى شيع. فحلت الكلفنيَّة محل اللوثريَّة. وفي سنة ١٥٥٩م كان كلفن قد أسَّس في جنيف أكاديميَّة التحق بكليتها وجامعتها مئات الطُّلاب الذين تلقنوا مبادئه اللاهوتيَّة، ونشروا الكلفنيَّة في هولندا، وغربي ألمانيا، وسويسرا، وبولندا، والمجر،

واختلف عن لوثر في موضوع الإفخارستيَّا، ولم ير فيها سوى حضور رمزي للمسيح. وقال: إن الأسرار هي مجرَّد تذكارات ووعود. وأضاف بأن المعموديَّة ليس لها فعالية في حد ذاتها، بل تعني أن الله اختار فحسب. لكن بعض الكونتات السويسرية عارضت انتشار الإصلاح فكانت الحرب الأهلية، ومات زفنجلي في ساحة القتال، وهو في صحبة جيش زيورخ، وامتد تأثير زفنجلي إلى كل أنحاء سويسرا.

واسكتلندا، وبخاصة فرنسا. أما السويد والدانمارك والنرويج، فقد اختارت قبلاً المذهب اللوثري.

فماذا حدث في إنجلترا؟

نشأة المذهب الأنجليكاني

كان الملك هنري الثامن (١٤٩١- ١٥٤٧م) ملك إنجلترا كاثوليكياً نزيهاً حيّ الضّمير، وصديقاً لإيراسم[١٣] Erasm . فأخذ على عاتقه إصلاح سوء التّصرفات في كنيسة إنجلترا، وفي أمانته لكنيسته الكاثوليكيَّة، وغيرته على الدِّيانة، ألّف كتاباً يدحض فيه تعاليم لوثر، وسُمي لذلك "المدافع عن الإيمان" أي الإيمان الكاثوليكي طبعاً.

وحوالي سنة ١٥٣٠م نشب خلاف حاد بينه وبين البابا كليمندس السابع (١٥٢٣- ١٥٣٤م) لأن هذا الأخير رفض إعلان بطلان زواجه من زوجته كاترين الأراغونيّة الأسبانيَّة الأصل، وهي عمَّة شارلكان، والتي لم تنجب له سوى بنت. فما كان من الملك هنري إلاَّ أن أجبر رئيس أساقفة كانتربري على فسخ زواجه، وتزوج مرَّة ثانية في سنة ١٥٣٣م من آن بولين، إحدى وصيفات الملكة كاترين. فأعلن البابا كليمندس أن هذا الزَّواج باطل، وحرم الملك هنري، فرد الملك على الحرم بالخروج على

١٣- هو أمير المتضلعين في الثقافة القديمة، وُلد من أب كاهن، وكان هو أيضاً راهباً وكاهناً، غادر ديره وطاف في أنحاء أوروبا سعياً وراء الأدباء وبحثاً عن المخطوطات، فعاش في فرنسا، وإنجلترا، وإيطاليا، وألمانيا، وتوفي في بال Bâle . ومن أشهر مؤلفاته "مذبح الجنون" ألّفه سنة ١٥١١م، وفيه يهجو جميع فئات المجتمع، وينتقد جميع الأوساط الاجتماعية نقداً لاذعاً. ومن أشهر مؤلفاته النقديَّة، العهد الجديد باليونانيَّة سنة ١٥١٦م، وألّف أيضاً مقالات في شتّى المواضيع، كالتربية المسيحيَّة، والزَّواج، والحرب والسلم، والأزمة اللوثريَّة ... الخ، وأراد بمؤلفاته أن يجدّد علم اللاهوت بالعودة إلى الجذور، أي إلى نص الكتاب المقدَّس الأصلي، وإلى مؤلفات آباء الكنيسة.

سلطة الكرسي الرَّسولي هو وجميع شعبه. وفي سنة ١٥٣٤م حصل من البرلمان على لقب "الرَّئيس الأعلى لكنيسة إنجلترا".

ثم حلَّ كل الرَّهبانيَّات المتواجدة على أرض مملكته، وصادر جزءًا من أملاكها، وضمَّه إلى أملاك العرش، وباع الباقي. وكانت أملاك الرَّهبانيَّات تغطي ربع مملكته إنجلترا. فأثرت أُسَر بريطانيَّة عديدة من استيلائها على أرزاق الرُّهبان أو شرائها.

ولم يعترض الشَّعب على تلك الإجراءات، لأن الرأي العام منذ زمن بعيد قد أخذ ينفر من تصرفات الكُرسي الرَّسولي، ويعادي الرُّهبان. ومع هذا كله، وبالرَّغم من عدائه لسلطة البابا، ونكران حقه على المملكة، كان الملك هنري الثَّامن يجاهر بإيمانه الكاثوليكي، وفي ذات الوقت يأمر بإعدام كل من ينكرون عليه رئاسة كنيسة إنجلترا - كما فعل بمستشاره الخاص توماس مور (١٤٧٨-١٥٣٥م) - وتعذيب من يعتنقون اللوثريَّة.

وبعد موت هنري الثَّامن سنة ١٥٤٧م توالى على العرش أولاده الثَّلاثة الذين فرضوا على المملكة إيمانهم ومعتقدهم الخاص. فإدوارد السَّادس (١٥٣٧- ١٥٥٣م) الذي اعتلى العرش في سن العاشرة، ولم يعمّر طويلاً، أفسح المجال للبروتستنتيَّة تحت ضغط أوصيائه، فعمَّت الأفكار الكلفنيَّة أرجاء مملكته، وتغلغلت في كتاب الصَّلوات سنة ١٥٤٩م.

ثم خلفته الملكة ماري الأولى تودور (١٥١٦- ١٥٥٨م) ابنة هنري الثامن من زوجته الأولى كاترين الأراغونيَّة، فأعادت الكاثوليكيَّة إلى المملكة، واضطهدت البروتستنت بشراسة، حيث أعدمت أكثر من مئتي شخص حتى لُقبت بماري السفَّاحة.

وخلفتها سنة ١٥٥٨م الملكة إليزابيث الأولى (١٥٣٣- ١٦٠٣م) ابنة الزَّوجة الثَّانية آن بولين. فعرضت على شعبها ديانة هي أشبه بخليط من

الكاثوليكيَّة والبروتستنتيَّة، وعُرفت باسم "الأنجليكانيَّة". واتَّخذت لقب "حاكمة المملكة المطلقة في الأمور الرُّوحيَّة والزَّمنيَّة".

مبادئ الأنجليكانيَّة

في سنة ١٥٥٩م طلبت الملكة إليزابيث الأولى إلى البرلمان الإنجليزي أن يُقر مبدأ "الرِّئاسة العُليا"، وهو المبدأ الذي يخوِّل للملك السُّلطة الدِّينيَّة العُليا في إنجلترا، ويحظرها على أي إنسان سواه كائناً من كان. ثم حصلت من البرلمان أيضاً على مبدأ "التَّشابه" الذي فرض على الإكليروس كله "كتاب صلوات" رسمياً واحداً، وأُرغم الشَّعب - تحت طائلة العقاب - على حضور الحفلات الدِّينيَّة الأنجليكانيَّة. وأخيراً فرضت سنة ١٥٦٣م على الجميع الاعتراف بمبادئ الإيمان التسعة والثلاثين التي ثبَّتت المعتقدات الإلزاميَّة الأساسيَّة.

إن الاعتراف بهذا الإيمان كان يلغي ليس فقط سلطة البابا، بل أيضاً التَّقليد والإكرام الواجب للقدِّيسين وذخائرهم، ويرفض الاعتراف بالمطهر، وكذلك عزوبيَّة الكهنة، ولا يُبقي من الأسرار السَّبعة سوى على سري المعموديَّة والإفخارستيَّا.

والأنجليكانيَّة لا تعتبر نفسها لوثريَّة، أو كلفينيَّة، ولم تنخرط قط في سلك الكنائس البروتستنتيَّة. وعلى كلٍ فالملكة إليزابيث الأولى قد احتفظت من الكثلكة بأبَّهة الاحتفالات اللِّيتورجيَّة، وعلى الصَّلوات مترجمة من اللاتينيَّة إلى الإنجليزيَّة، وعلى الزي الكهنوتي، وأخيراً على رتب الإكليروس من كهنة وأساقفة ورؤساء أساقفة.

وبما أن الأنجليكانيَّة ظهرت وكأنها خليط من الكاثوليكيَّة والكلفنيَّة، فقد رفضها كلا الطَّرفين، فتعرضا للاضطهاد، واتُّهم أتباعهما بالخيانة العُظمى.

فالكاثوليك كانوا يؤكّدون أن إليزابيث لم تكن الملكة الشَّرعيَّة، لأنها ابنة زنا بعد أن أعلن البابا كليمندس السَّابع أن زواج والديها باطلاً، فنظَّموا ضدَّها عدَّة مؤامرات سُحقت بشراسة، آملين أن ينصّبوا ملكة مكانها، وهي نسيبتها ماري ستيوارت (١٥٤٢- ١٥٨٧م) ملكة اسكتلندا التي اعتلت العرش تحت الوصاية منذ اليوم السابع من عمرها. ولكن الملكة إليزابيث الأولى تمكنت في النهاية من قطع رأسها سنة ١٥٨٧م.

وانتقاماً من الإنجليز الكاثوليك أمرت الملكة فحُظر عليهم إقامة شعائرهم الدِّينيَّة، بل واضطروا، تحت طائلة الغرامة والسِّجن والقتل، إلى أن يحضروا الاحتفالات الأنجليكانيَّة، وفي الوقت نفسه، حُرموا من حق مباشرة الوظائف الحرَّة، وأُقصوا عن الالتحاق القضاء والجيش والطّب.

ومن جهة أخرى، استاء الكلفنيون في إنجلترا من أن الأنجليكانيَّة حافظت على ما أسموه "بالعبادة الباباويَّة"، وكانوا يودون أن يطهّروا المملكة منها. ولذا فقد لُقبوا "بالمتزمتين"، وأنكروا أيضاً مبدأ الرِّئاسة العُليا الذي يُخضع الكنيسة لسُلطة الملك الحاكم، فتعرَّضوا هم أيضاً للاضطهاد، ولكن لم يمنعهم ذلك من كسب أتباع عديدين، لاسيَّما من بين طبقات النُّبلاء في الريف الإنجليزي، وكان منهم أعضاء في مجلس العموم، مما خلق بين المتزمتين والأنجليكان صراعاً تأجَّج سعيره داخل مجلس العموم نفسه، فوقف المتزمتون في وجه الملك السُّلطة الحاكمة الأنجليكانيَّة المذهب، ولعبوا دوراً هاماً في تاريخ إنجلترا في القرن السَّابع عشر.

ولقد صدر قانون في سنة ١٧٠٠م يُسمى "قانون التسوية - Act of Settelment"، وهو ينص على أن العرش يرثه الابن الأكبر لصاحب العرش، أو الابنة الكبرى إذا لم يكن لصاحب العرش ابن مولود قبل وفاته، أو في بطن أمه في الوقت الذي توفي فيه صاحب العرش. ويشترط القانون

أن من يتولى العرش يجب أن يكون مسيحياً من أتباع كنيسة إنجلترا Church of England وذلك لأنه يُعتبر عند توليه العرش رئيس هذه الكنيسة. واللّقب الأصلي لصاحب العرش هو "(فلان) بنعمة الله رئيس المملكة المتّحدة المؤلّفة من بريطانيا العظمى وأيرلندا الشّماليّة، ورئيس الممتلكات والأراضي ورئيس الكومنولث، وحامي الإيمان".

وقد تغيَّرت سلالة الإرث للعرش سنة ١٩٣٦م عندما تنحى الملك إدوارد الثامن عن العرش بسبب رغبته في الزّواج من سيدة أمريكيَّة مطلّقة.

وجدير بالذّكر أن تنحي الملك عن العرش لم يكن من المتطلبات القانونيَّة، ولكنه كان استجابة للرأي العام المحافظ في ذلك الوقت. وقد تحصل في بريطانيا نفس المشكلة إذا ما تزوج الأمير تشارلز بعد طلاقه من مطلّقة، ولكن الرأي العام والعادات والتّقاليد في تطور مستمر. ويمكن القول إن الطّلاق في بريطانيا لم يعد شيئاً منبوذاً، كما أنه ليست هناك دلائل تشير إلى أن الكنيسة الأنجليكانيَّة وإن امتعضت من كون رئيسها مطلّقاً أنها ستنبذه أو ترفضه أو أن تحتج عليه.

ولا يتقاضى أفراد العائلة الحاكمة بدءاً من صاحب العرش أي راتب حكومي، فلهم ممتلكاتهم الخاصة أو قد تحدّد لهم الحكومة مخصّصات من الخزينة العامة، ويترتب عليهم دفع الضَّريبة عن دخلهم بعد خصم المصاريف التي يتكبدونها في تأدية المهام الرّسميَّة التي تحدّدها لهم الحكومة.

وحتى اليوم؛ لازالت مشكلة الأولويَّة الرومانيَّة تبقى دوماً هي المشكلة الأصعب حلاً في مناقشات لاهوتيي الطّرفين ولقاءاتهم. فالكاثوليك إجمالاً - ما عدا الفرنسيين منهم - اعتبروا أن الكنيسة الأنجليكانيَّة كنيسة من كنائس الحركة الإصلاحيَّة، فقد تعامل معها كرسي روما ككنيسة خارجة عن الكثلكة، ولكن المجمع الفاتيكاني الثّاني خصّ الكنيسة الأنجليكانيَّة بتقديره إذ قال في المرسوم المجمعي في الحركة

المسكونيَّة: "... والانشقاقات الأخرى وقعت من بُعد بعد أكثر من أربعة قرون في الغرب، نتيجة أحداث ألفوا تسميتها بالإصلاح، فنتج عن ذلك أن عدَّة تكتلات قوميَّة أو مذهبيَّة قد انفصلت عن الكُرسي الرُّوماني، وبين من يحتفظ منها جزئياً بالتَّقاليد الكاثوليكيَّة، تحتل الشَّركة الأنجليكانيَّة المحل الممتاز".

وفي سبتمبر سنة ١٩٨٩م قام الدكتور روبرت رانسي رئيس أساقفة كانتربري بزيارة الفاتيكان على رأس وفد كبير من الكنيسة الأنجليكانيَّة، والتقى بالبابا يوحنا بولس الثاني بابا روما. وفي ختام الزيارة صدر عن الحبرين بيان أكدا فيه التزامهما بتحقيق الوحدة المرئيَّة، وتمام الشَّركة بين كنيستيهما، مع اطلاعهما على كل العقبات التي تحول دون ذلك. وتشكِّل رسامة بعض النِّساء لدرجات الكهنوت والأسقفيَّة، أسوأ العقبات التي تدخل في إطار المسائل العقائديَّة والكنسيَّة التي لا يمكن أن يقبل بها الفاتيكان أو يقدِّم بشأنها أية تنازلات.

وإن تصرّف الكنيسة الأنجليكانيَّة الغريب على الفكر المسيحي شرقاً وغرباً فيما يختص برسامة النِّساء في الدَّرجات الكهنوتيَّة ليس بنفس الغرابة في فكر الكنيسة الأنجليكانيَّة نفسها، ذلك لأن هذه الغرابة تنتفي إذا علمنا أن الرَّئيس الأعلى للكنيسة الأنجليكانيَّة امرأة، وهي الملكة إليزابيث الثانية، ملكة بريطانيا، ورئيسة الكومنولث.

وجدير بالذِّكر أن المجمع المقدَّس للكنيسة القبطيَّة في جلسته بتاريخ ١٧/٦/ ١٩٨٩م قد شجب قرارات مؤتمر لامبث Lambeth للكنائس الأنجليكانيَّة المنعقد في كانتربري في سنة ١٩٨٩م. وهي القرارات الخاصة برسامة النِّساء في الكهنوت، وتعدُّد الزَّوجات في أفريقيا، والدِّفاع عن حقوق الشَّواذ جنسياً!. وقرر المجمع تفويض قداسة البابا في تقديم مذكِّرة إلى رئيس أساقفة كانتربري بخصوص قرارات هذا المؤتمر، وإصدار بيانات

احتجاج، وكُتب باسم المجمع المقدَّس ترد على هذه التَّعاليم الخاطئة[١٤].

ومع هذا كله، وبرغم هذا كله، فقد أسفنا أن يصرِّح رئيس أساقفة كانتربري في مطلع سنة ١٩٩٧م بتقرير عن ضعف الحياة الكنسيَّة التي سادت كل إنجلترا، إذ أن من بين عدد المسيحيين الإنجليز الذي يبلغ ٥٥ مليوناً، لا ينتظم في حضور الكنيسة أسبوعياً سوى مليون واحد فقط، أي أن النسبة أقل من ٢ % من عدد المسيحيين في إنجلترا. ثم عاد يُعزي سبب هذا الضَّعف إلى أن اهتمام الكنيسة بالشَّبيبة قد صرف الكبار والشيوخ عنها!، وهو تبرير زادنا أسفاً على أسف.

الإصلاح الكاثوليكي في القرن السَّادس عشر

حتى أواسط القرن السادس عشر، كان أحبار الكنيسة الرُّومانيَّة الكاثوليكيَّة من التبعيَّة الإيطاليَّة ورجال دين ودنيا، أسهموا كل الإسهام في إعلاء شأن النَّهضة الحديثة، ولكن لم يُجهدوا النَّفس في تشخيص المصائب التي ألَّمت بالكنيسة في أوروبا، مما جعلها لدى أدنى اهتزاز تتطاير شيعاً وبدعاً كادت تقضي على الإيمان الكاثوليكي. لذا كان على الكنيسة الرُّومانيَّة أن تسارع وتثبت موقفها بخطوات ثلاث حازمة ومصيرية:

١ ـ أن تؤكِّد وتوضِّح وتعلن مبادئ الإيمان الكاثوليكي التي أخذ الإصلاح البروتستنتي ينكرها ويرفضها.

٢ ـ أن تَعمَد إلى تقويم الشَّطط والمخالفات والعبث بالدِّين، الأمر الذي كان سبباً في تذمُّر الكاثوليك أنفسهم منذ أمد بعيد.

٣ ـ أن تقرر أخيراً الحد من تقدُّم الإصلاح البروتستنتي، وتعمل على

---

١٤ ـ القرارات المجمعية في عهد صاحب القداسة والغبطة البابا شنودة الثالث (١١٧)، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٥٦

استرداد المناطق الكاثوليكيَّة التي سلبها.

وإعادة هذا التّنظيم، وهذا التّجديد الرُّوحاني هو ما عُرف في القرن السادس عشر بـ "الإصلاح الكاثوليكي" . ففي سنة ١٥٤٠م ثبَّت البابا بولس الثالث (١٤٦٨- ١٥٤٩م) القوانين التأسيسيَّة للرَّهبنة اليسوعيَّة (الجزويت) التي أسَّسها إغناطيوس دي لويولا[١٥]، وأنشأ محكمة التفتيش التي أُسند إليها مهمة الحفاظ على صحة الإيمان الكاثوليكي بمطاردة ومحاكمة كل الذين ينحرفون عن الإيمان الكاثوليكي. وفي سنة ١٥٤٥م، دعا إلى عقد مجمع عُرف في التاريخ باسم "المجمع التريدنتيني[١٦]". وكان من قرارات المجمع:

١- استخدام اللُّغات القوميَّة في الصَّلوات الليتورجيَّة.

٢- إنشاء الإكليريكيَّات، والتي كانت لها انعكاسات هامة على مستقبل الكنيسة الكاثوليكيَّة.

٣- إن قال أحدٌ أن يسوع لم يؤسِّس جميع أسرار الشَّريعة الجديدة، وأن هناك أكثر أو أقل من سبعة أسرار، وأن أحد هذه السَّبعة ليس سراً بالمعنى الحصري فليكن محروماً.

٤- إن أنكر أحدٌ أن سرّ الإفخارستيّا يحتوي - حقيقة وفعلاً

١٥- هو مؤسِّس جمعية يسوع سنة ١٥٣٤م، التي كانت البداية لنشأة الرَّهبنة اليسوعيَّة. وُلد في الباسك سنة ١٤٩١م، وتعرَّف على الله سنة ١٥٢١م، وتعلم اللاتينية والفلسفة واللاهوت، وسافر إلى باريس سنة ١٥٢٨م لمتابعة دروسه هناك، وتعرَّف على يوحنا كلفن المصلح الفرنسي، وصاحب مذهب الكلفنية.

١٦- عُقد في ترانتو، وكان هدف المجمع هو السَّعي لمحاولة تلاقي أهل الجنوب مع أهل الشَّمال، ولكن أهل الشَّمال لم يحضروا، إذ بدأ المجمع جلساته و لم يحضر فيه سوى ٣٤ عضواً من ٥٠٠ أسقف كاثوليكي في العالم. توقَّف المجمع ثلاث مرَّات ثم عاد واستأنف أعماله، واستمر معقوداً من سنة ١٥٤٥م - سنة ١٥٦٣م، في عهود البطاركة بولس الثالث، ويوليوس الثالث، وبولس الرابع، وبيوس الرابع.

وجوهرياً – جسد يسوع المسيح ودمه مع نفسه ولاهوته، بل قال إنه ليس فيه إلاّ بالإشارة والصورة فقط، أو بالقوَّة، فليكن محروماً.

٥ـ إن قال أحد أنه ليس في العهد الجديد كهنوت منظور أو خارجي، أو أنه لا وجود لسلطان التَّقديس، أو لتقريب جسد الرب ودمه الحقيقيين، أو لحل الخطايا أو ربطها، بل هناك مجرَّد وظيفة للكرازة بالإنجيل، وخدمة لإعلان البشارة، أو أن الذين ينقطعون عن الوعظ لم يعودوا كهنة، فليكن محروماً.

٦ـ الذين يُقدمون على عقد زواج بدون حضور خوري الرَّعيَّة، أو أي كاهن آخر فوَّضه الخوري أو المطران، وأمام شاهدين أو ثلاثة، يصرِّح المجمع بأنهم غير أهل على الإطلاق لعقد زواج، وبأن مثل تلك العقود باطلة وغير صحيحة.

لقد كانت هذه الأمور العقائديَّة الكاثوليكيَّة غير محدَّدة صراحة في الماضي، ولكن المجمع وضعها لمقاومة المذهب البروتستنتي من وجهة نظر كاثوليكيَّة. أما الكنيسة الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة فكانت بعيدة عن هذا الصِّراع بين الكاثوليكيَّة والبروتستنتيَّة، على الأقل في البداية.

ولقد لعبت الرَّهبنة اليسوعيَّة دوراً هاماً في اتخاذ الحلول الجذريَّة للقضاء على كل ما كان يعوق مسيرة الكنيسة الكاثوليكيَّة. فاليسوعيون ينذرون النذور الثلاثة كسائر الرُّهبان "الفقر – العفة – الطَّاعة"، بالإضافة إلى نذر رابع بالطَّاعة لبابا روما، وتكريس حياتهم ورسالتهم لخدمة كرسي روما. وسرعان ما ثبَّت البابا بولس الثالث قوانينها التأسيسيَّة سنة ١٥٤٠م، وأطلق يدها للأخذ بالإصلاح الكنسي المنشود:

(أ) فانتشر الرُّهبان اليسوعيون في كنائس روما وغيرها من البلاد، واعتلوا منابر الوعظ، وفندوا آراء الإصلاح البروتستنتي، ودخلوا القصور وبلاط الملوك، وحاشية النبلاء والأساقفة وعلَّموهم، بالإرشاد والاعتراف

بخطاياهم، والعودة إلى الله، فمالت القلوب من جديد إلى الكاثوليكية وإلى بابا روما.

(ب) وأمر إغناطيوس دي لويولا بفتح المدارس والمعاهد والكليَّات، والتحق بها أجيال من الشَّباب المولعين بالعلم من كل الطبقات، فصهر اليسوعيون بذلك طبقات المجتمع للتعامل فيما بينها بالمحبة.

(ج) وشدد إغناطيوس دي لويولا على رفاقه الأولين ثم على جميع الطالبين الالتحاق بالرَّهبنة اليسوعيَّة أن يتثقفوا بعلم اللاهوت تثقيفاً يؤهِّلهم لمواجهة التَّيارات المعادية، والعمل على إصلاح الكنيسة، فأتقن اليسوعيون جميع العلوم اللاهوتيَّة، والفلسفيَّة، والكتابيَّة، ووقفوا سداً منيعاً في وجه البروتستنتيَّة، وأوفدوا الرُّهبان الأوَّلين يجوبون كل أنحاء أوروبا، ليعيدوا إلى الكنيسة مناطق مالت وراء الإصلاح اللوثري والكلفني في فرنسا وبلجيكا وألمانيا والنِّمسا وبولندا.

(د) ومن أوروبا انطلق اليسوعيون إلى الشَّرق الأقصى فبشروا الهند والصين واليابان، إلى جانب أفريقيا والبرازيل وأمريكا الوسطى ... الخ.

وفي أوائل التسعينيات من القرن العشرين وصل عدد الرُّهبان اليسوعيين إلى حوالي ٢٥ ألف راهب، منهم ١٢٤٠ راهباً في أفريقيا وحدها يعملون في ٢٩ بلداً في هذه القارة.

وبذلك عالجت الكنيسة الرومانيَّة الكاثوليكيَّة الأوضاع السَّائدة في القرن السادس عشر، فانتظمت الكنيسة في أوروبا، وعمَّ الزُّهد الأديرة وبيوت الأساقفة، وحلّ التقشف في بلاط البابا في عهد بولس الرابع (١٤٧٦- ١٥٥٩م)، وخلفه بيوس الخامس (١٥٠٤- ١٥٧٢م). وكان هذا الأخير من الرَّهبنة الدُّومينيكانيَّة وعضواً في محكمة التفتيش الكنسيَّة. فأمر بتطبيق قرارات المجمع التريدنتيني، الذي ثبَّت العقيدة الكاثوليكيَّة، وحارب الفساد المتفشي في أوساط الإكليروس الروماني، ونبَّه على تثقيف

النشء الذي يتهيأ لخدمة للكهنوت.

وفي عهد البابا بيوس الخامس كتب سفير البندقيَّة تقريراً جاء فيه:

"لم نعد نرى في شوارع روما كرادلة ملثَّمين، أو مقنَّعين يتنزهون مع السَّيدات، ممتطين صهوات الجياد، أو في العربات كما كانت العادة، حتى هذه الأيام الأخيرة. أما اليوم فقلَّما نراهم في عربات حتى وحدهم. وفي كل مكان حُدَّ من المآدب ومن رحلات الصَّيد المتنوعة والبذخ الصَّارخ الفاحش. وحُظر تماماً على العلمانيين أصحاب الرُّتب العالية، وعلى والدي الباباوات وأنسبائهم العيش في القصر البابوي كما كانت العادة. وأُمر رجال الإكليروس كلهم بارتداء الزى الإكليريكي أو الرَّهباني ... حتى أنك بنظرة خاطفة على المجتمع، ترى أن الإصلاح عمَّ الحياة كلها في روما".

ولا زالت روما هي عاصمة العالم المسيحي الغربي، تلك المدينة التَّاريخيَّة التي تقع على ضفاف نهر "التيبر" والتي يزيِّن ميادينها ١٤ مسلَّة مصريَّة فرعونيَّة، يرجع أقدمها إلى القرن السادس قبل الميلاد. وتضم بين جنباتها حاضرة الفاتيكان(١٧) مركز الرِّئاسة الدِّينيَّة لبابا روما، الذي يدين

١٧- هي أصغر دولة في العالم، تقل مساحتها عن نصف كيلومتر مربع، أنشئت سنة ١٩٢٩م، في عهد موسيليني بناء على اتفاقية مع الحكومة الإيطاليَّة. وبموجب الاتفاقية تكون كاتدرائيَّة القدِّيس بطرس مقراً للبابا، وتكون دولة الفاتيكان ذات سيادة مطلقة، وتمارس كل سلطاتها كدولة، وأبرزها تبادل التَّمثيل الدِّبلوماسي. وقبَّة الفاتيكان التي تبلغ مساحتها ٥٢٠ متراً مربعاً، هي أعلى وأشهر قمة في مدينة روما، صمَّمها الفنَّان الشَّهير "مايكل أنجلو" سنة ١٥٤٧م لتعلو كنيسة القدِّيس بطرس، وزيَّنها بمجموعة من الصُّور الرَّائعة في ثلاث مجموعات، الأولى تصوِّر موضوعات متَّصلة بخلق الكون، والثانية تصوِّر خلق آدم وحواء والطَّرد من الجنَّة، والثالثة تتناول قصة نوح والطُّوفان. وكذلك تمثال "الرَّحمة" الشَّهير في مدخل الكنيسة، وهو تحفة فنية رائعة، قام بنحتها وعمره آنئذ ٢٥ عاماً. وهو أوَّل تمثال يُنحت بالحجم الطبيعي لشخصين في عمل واحد.

بالولاء له قرابة مليار (١٠٠٠ مليون) مسيحي كاثوليكي في العالم.



وصمم الميدان الفنان العظيم "برنيني" على شكل نصف دائرة تضم ٢٨٤ عاموداً من الطراز اليوناني، ارتفاع كل منها ١٩ مترا. وفوق السّطح القائم على هذه الأعمدة وكذلك الكنيسة هناك ١٤٠ تمثالاً ارتفاع كل منها ٣,٢ مترا.

وتحاط دولة الفاتيكان بأسوار عالية تتخللها بوابات ضخمة يحرسها حراس سويسريون بملابسهم التقليديّة المميَّزة. ويبلغ عدد سكان الفاتيكان ٩٠٠ شخص كلهم من رجال الدّين، وتسير الحياة اليوميّة فيها من خلال مجموعة هيئات أشبه بوزارات. ورئيس الوزراء يُسمى "سكرتير الدّولة". وتضم حاضرة الفاتيكان محكمة ومكتبة شهيرة تعد من أهم مكتبات العالم، ومتحف شهير يضم أعمالاً لا توجد في غيره من متاحف العالم. ويتبع الفاتيكان خمس جامعات ، ١٢ معهداً في إيطاليا، إلى جانب الكثير من الجامعات الكاثوليكيّة في العالم. وتمتلك حاضرة الفاتيكان أيضاً قناة تليفزيونيّة، ومحطة إذاعة، ومسرح كبير، ويصدر عنها جريدة ناطقة باسم الفاتيكان تُسمى: "لوبزيرفاتور رومانو".

الفَصل الثّاني

الحـــــوار المســــــكوني

أولاً

الحوار المسكوني من أجل الوحدة المسيحيَّة بين عائلتي الكنيسة الأرثوذكسيَّة في الشَّرق

يمتد تاريخ الخلاف بين عائلتي الكنيسة الأرثوذكسيَّة في الشَّرق إلى خمسة عشر قرناً من الزَّمان، وكان لُب الخلاف فيه هو التَّعبير عن طبيعة السيِّد المسيح، وكيفيَّة تفسير ماهيَّة العلاقة بين ما هو إلهي وما هو إنساني فيه. والعجيب حقاً أن يكون المسيح نفسه، له المجد، هو محور الخلاف!!

وإنه لأمر مدهش حقاً أنه بعد مضيّ ١٥٠٠ سنة من الخلاف، وما جرَّه من معاناة وأهوال، أن تكتشف الكنيسة الأرثوذكسيَّة في كل من عائلتيها، أنها على نفس الإيمان الواحد فيما يختص بطبيعة السيِّد المسيح، ولكن بتعبيرات مختلفة. وأصبحت المشكلة الحقيقيَّة الآن والتي تقف حائلاً دون تحقيق الوحدة، ليست في تحديد مفهوم واحد مشترك، وإنما في تخطي العقبات والنتائج التي ترتَّبت على هذا الخلاف الذي دام قروناً عديدة. فلسبب طول زمان الخلاف صارت العقبة ليس في أسباب الخلاف في حد ذاته بل في نتائجه؛ تماماً كما تفعل الخطيَّة في النَّفس عندما تملك على الإنسان زمناً طويلاً.

والواقع أنه في خلال الثلاثة قرون من الخامس إلى السَّابع الميلادي، ظهرت في الكنيسة ثلاث بدع حول شخص السيِّد المسيح:

الأولى: بدعة نسطور بطريرك القسطنطينيَّة، الذي فصل بين الطَّبيعتين الإلهيَّة والنَّاسوتيَّة في شخص السيِّد المسيح. ورفض - بناء على ذلك - تلقيب العذراء بوالدة الإله، مكتفياً بتسميتها "أم المسيح".

الثَّانية: بدعة أوطيخا، الذي رأى في شخص السيِّد المسيح طبيعة إلهيَّة فقط، وأن تجسده كان خيالياً.

الثَّالثة: طوموس τομός لاون بابا روما الذي فرَّق تفريقاً صارخاً بين الطَّبيعتين النَّاسوتيَّة والإلهيَّة في شخص السيِّد المسيح، وهو ما تبناه مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م، ورفضته الكنائس الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة القديمة.

وما أن أعلنت الكنائس الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة القديمة جنوح مجمع خلقيدونية عن الإيمان، رافضة الاعتراف بالبيان العقائدي للمجمع، ومعه طوموس لاون، إلاَّ وتعرَّضت لاضطهاد شرس من قِبَل كنيسة القسطنطينيَّة بمؤازرة الإمبراطور البيزنطي، قدَّمت فيه شهداء وتضحيات وآلام فاقت ما قدَّمته في اضطهاد الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة الوثنيَّة لها، قبل أن تصبح إمبراطوريَّة مسيحيَّة. وكأن الاضطهاد الذي شنَّته الكنيسة البيزنطيَّة على هذه الكنائس هو الإيمان الحقيقي بعينه!!

محاولات صلح مبكِّرة لم تُجد نفعاً

لم تحدث القطيعة مباشرة، وإنما حاول بعض البطاركة رأب الصَّدع الذي حدث عقب مجمع خلقيدونية الذي حرم البابا الإسكندري ديسقوروس، تصفية لحسابات قديمة!!

فظهرت أوَّل محاولة صُلح من جانب البابا تيموثاوس الإسكندري الـ ٢٦ والذي خلف البابا ديسقوروس بعد نياحته في منفاه سنة ٤٥٧م. واستطاع البابا تيموثاوس استصدار عفو من الإمبراطور عن الأساقفة المنفيين بسبب رفضهم لمجمع خلقيدونية. ثم عقد مجمعاً حضره ٥٠٠ أسقف، وافقوا بعد التَّداول على اقتراح البابا تيموثاوس بإرسال خطاب دوري إلى جميع أساقفة الكنائس في العالم يُعلن فيه إيمان كنيسة الإسكندريَّة. وأدَّت هذه الرِّسالة إلى صُلح دام بضع سنوات بين كنائس

الإسكندريَّة وأنطاكية وأورشليم والقسطنطينيَّة.

وجاءت المحاولة الثَّانية من البابا الإسكندري بطرس الثَّالث الـ ٢٧، والذي استطاع بالحوار الهادئ والمداولات الرُّوحيَّة مع أكاكيوس بطريرك القسطنطينيَّة أن يستصدر منشوراً من الإمبراطور زينون يدعو فيه الكنائس كلها إلى الوحدة حول قرار إيمان واحد، اعتمده مجمع انعقد في القسطنطينيَّة، وسُمي بالمنشور الوحدوي، ويُعرف في اليونانيَّة باسم "هينوتيكون – Henotikon". ولكن عوامل كثيرة حالت دون إزالة أسباب الفُرقة.

أما المحاولة الثَّالثة للمصالحة فقد بادر بها سرجيوس بطريرك القسطنطينيَّة في القرن السَّابع، والذي اقترح على الإمبراطور البيزنطي هرقل عبارة جديدة هي: "الفعل الواحد للمسيح" ظناً منه أنها تستطيع إعادة الوحدة بين شطري الكنيسة الأرثوذكسيَّة. ولكن هذه الصِّيغة وغيرها، حرمها مجمع عقدته الكنائس الخلقيدونيَّة في القسطنطينيَّة سنة ٦٨١م.

وعلى إثر غزو الفُرس للشَّام ومصر، ثم الغزو العربي الذي أعقبه، انعزلت كنيستا مصر وأنطاكية، وما يتبعهما من كنائس، عن بقية كنائس الشَّرق والغرب، ودار كلٌ في فلكه، لا يعرف عن الآخر سوى ذكرى جُرح عميق ظل يدمي عبر السِّنين.

محاولة صلح يتيمة في القرن التَّاسع عشر

منذ القرن السَّابع الميلادي وحتى القرن التاسع عشر انطوى التَّاريخ على ذاته، وغابت أي محاولات لاستعادة الوحدة المنهارة، إلاَّ من محاولة فردية بعد غيبة اثني عشر قرناً، قام بها أحد أساقفة الكنيسة الروسيَّة، وهو

الأسقف بورفير أوسبنسكي الذي درس كتب اللاهوت والليتورجيّة القبطيَّة، إذ أنه بعد دراسات له امتدت بضع سنوات، انتهي إلى القول: "إن الكنيسة القبطيَّة هي كنيسة أرثوذكسيَّة من حيث مضمون إيمانها"، وكأنه اكتشاف جديد جدير بالتَّسجيل. فتقدَّم بتقرير إلى المجمع المقدَّس للكنيسة الروسيَّة، مؤكداً فيه هذه الأرثوذكسيَّة، ولكن لم يُسمع عن أي رد فعل من جانب المجمع المقدَّس للكنيسة الروسيَّة على هذا التَّقرير.

بداية الحوار المسكوني في منتصف القرن العشرين

تشارك الكنيسة الأرثوذكسيَّة الآن في الحركة المسكونية[١]، وجميع كنائسها ممثلة في مجلس الكنائس العالمي[٢]. ومنذ أن بدأت "الحركة المسكونية" عام ١٩٤٨م في استقبال مندوبي الكنائس الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة من كافة أنحاء العالم، أتيحت الفرصة للكنائس الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة القديمة أن تتلاقى مع الكنائس الأرثوذكسيَّة البيزنطيَّة في اجتماعات مجلس الكنائس العالمي، للتَّلاقي والمواجهة والحوار معاً بغية الوصول إلى الوحدة المنشودة بينهما. ورويداً رويداً اكتشف الطَّرفان أن كليهما يشهد لنفس "الإيمان الرَّسولي الواحد". وفي هذا الصَّدد كتب

١- بدأت هذه الحركة المسيحيَّة سنة ١٩٤٨م، وعندما نشطت في الستينيَّات، كانت أولى ثمارها اللِّقاء التَّاريخي بين البابا الروماني بولس السَّادس، وبين البطريرك المسكوني أثيناغوراس في القدس في يناير سنة ١٩٦٤. وفي السبعينيَّات وبالتَّحديد في سنة ١٩٧١، زار مار إغناطيوس يعقوب الثَّالث بطريرك أنطاكيا وسائر المشرق للسِّريان الأرثوذكس الفاتيكان، والتقى بالحبر الرُّوماني. وفي سنة ١٩٧٢م قام البابا شنوده الثَّالث بطريرك الإسكندريَّة بزيارة بطريرك القسطنطينيَّة ديمتريوس الأوَّل، ويُعد أوَّل لقاء بينهما منذ مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م.

٢- تأسس سنة ١٩٤٨م، ويحمل اسم World Council of Churches (W.C.C.) وانضمت إليه الكنيسة القبطيَّة في سنة ١٩٦١م، حيث صار نيافة الأنبا صموئيل أسقف الخدمات الاجتماعية عضواً في اللَّجنة المركزيَّة للمجلس.

المطران جورج خضر – مطران جبل لبنان، وأحد مطارنة الكنيسة الخلقيدونيَّة، ومؤسِّس حركة الشَّبيبة الأرثوذكسيَّة – مقالاً بعنوان "الوحدة الشَّرقيَّة" نشرته مجلة النُّور اللبنانيَّة سنة ١٩٥٩م، يقول فيه: "... ومن عاشر هؤلاء القوم جميعاً وسألهم عن إيمانهم، وتحرى إدراكهم لشؤون المسيح، ليستغرب أسباب الاستمرار في الانفصال عنهم ...[٣]".

أربعة اجتماعات غير رسميَّة

التقى مندوبو الكنائس الأرثوذكسيَّة المهتمُّون بالعلوم اللاهوتيَّة، وتناقشوا حول أسباب الخلافات التاريخيَّة القديمة التي أدت إلى انقسام الكنيسة بعد مجمع خلقيدونية، وذلك نتيجة لمسعى دءوب من لجنة الإيمان والطَّقس[٤] في مجلس الكنائس العالمي Faith and Order Commision. فانعقدت تحت رعايتها أربعة اجتماعات غير رسميَّة:

الاجتماع الأوَّل: في مدينة آروس بالدَّنمارك في أغسطس ١٩٦٤م.

الاجتماع الثَّاني: في مدينة بريستول بإنجلترا في يوليو ١٩٦٧م.

الاجتماع الثَّالث: في مدينة جنيف بسويسرا في أغسطس ١٩٧٠م.

الاجتماع الرَّابع: في أديس أبابا بإثيوبيا في يناير ١٩٧١م.

فكانت هذه الاجتماعات بمثابة اجتماعات تمهيديَّة تُعد وتهيئ للقاء مقبل بين الرِّئاسات الكنسيَّة لهذه الكنائس.

ولا يتسع المقام[٥] هنا للخوض في دقائق وتفاصيل المناقشات

٣– مجلة النُّور، لبنان، مايو ١٩٥٩م، ص ١٢٩، ١٣٠.

٤– هي لجنة من بين لجان مجلس الكنائس العالمي في مقره بجنيف بسويسرا، تختص بمناقشة المسائل العقائديَّة والإيمانيَّة بين الكنائس المشتركة في المجلس.

٥– أصدر مجلس الكنائس العالمي سنة ١٩٨١، كتاباً يحوي نصوص الكلمات والتعليقات التي ألقيت في هذه الاجتماعات الأربعة، وهو كتاب Does Chalcedon Divide or Unite وتُرجم إلى العربية تحت عنوان "مجمع خلقيدونية، يفرِّق أم يوحِّد؟".

والحوارات التي دارت بين الفريقين خلال هذه الاجتماعات الأربعة. ولكننا نود أن نلقي، في إيجاز، بعض الضَّوء على آراء اللاهوتيين الخلقيدونيين، ثم نستعرض العقبات ونقاط الخلاف من وجهة نظر اللاهوتيين اللاخلقيدونيين التي تعترض طريق الوحدة المنشودة.

لقد كانت أهم القضايا في موضوع الخلاف بينهما والتي تم التحاور بشأنها هي:

١- إلى أي مدى اعتمد مجمع خلقيدونية في إعلانه العقائدي على تعليم القدِّيس كيرلس الكبير بشأن طبيعة المسيح.

٢- هل عُزل البابا الإسكندري ديسقوروس وأُدين بسبب هرطقة في عقيدته عندما تمسك بعبارة "طبيعة واحدة من طبيعتين" بدلاً من "طبيعة واحدة في طبيعتين"؟ وهل مجمع أفسس الثَّاني الذي عقده القدِّيس ديسقوروس قبل مجمع خلقيدونية صار محروماً بسبب هرطقة تعاليمه؟ أم ماذا؟

٣- ما هو موقف علماء اللاهوت في الكنائس الخلقيدونيَّة الآن من طوموس لاون الذي برَّر للأباطرة البيزنطيين اضطهاد الكنائس اللاخلقيدونيَّة التي لم تعترف به وبمجمع خلقيدونية؟

٤- التَّفسير الذي قَبله علماء اللاهوت الخلقيدونيين لعبارة القدِّيس كيرلس الكبير الشَّهيرة "طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد".

وكانت أهم آراء لاهوتي الكنيسة الأرثوذكسيَّة الخلقيدونيَّة في النقاط الأربع السَّابقة هي كالآتي:

١- القدِّيس كيرلس الكبير هو الحَكَم:

إذا كانت الكنيسة اللاخلقيدونيَّة تصر على استخدام عبارة "طبيعة واحدة من طبيعتين" بدلاً من "اتحاد في طبيعتين"، فيمكننا استخدام تعبير القدِّيس كيرلس الكبير "طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسِّد". على اعتبار

أن الكنيسة اللاخلقيدونيَّة تعني بـــ "الطبيعة الواحدة" "أقنوم واحد" أو "شخص واحد" لكلمة الله الذي تجسَّـــد، والكنيســـة الأرثوذكســـيَّة الخلقيدونيَّة تقبل هذا التَّفسير.

٢- أرثوذكسية البابا ديسقوروس:

• البابا ديسقوروس كان معتبراً من قِبَل الآباء الأعلام في مجمـــع خلقيدونية أرثوذكسياً في إيمانه، كما أكَّد ذلك البطريرك أناطوليوس في المجمع.

• إن رفض الأساقفة المصريين التَّوقيع على قرارات مجمع خلقيدونية، كان بسبب طلبهم استثنائهم من التَّوقيع بعد حَرم باباهم، لأنهم لا يملكون أن يتصرَّفوا في الأمور الإيمانيَّة والعقائديَّة في غيبة رئيسهم، وهذا بحســـب التَّقاليد الكنسيَّة في مصر.

• حول رفض آباء مجمع خلقيدونية لمجمع أفسس الثَّـــاني ســـنة ٤٤٩م، الذي عقده البابا ديسقوروس بوصفه مجمعاً مكانيـــاً ولـــيس مسكونياً، فإن أي مجمع مكاني يُعتبر مسكونياً في طبيعتـــه إذا أعلـــن بوضوح الإيمان الأرثوذكسي.

• إن مجمع خلقيدونية المعتبر أنه مسكوني، يُنظر إليه على أنه مجمـــع إمبراطوري في طبيعته، لأنه دُعي للانعقاد من قِبَل الإمبراطور، لكي يعطي علماً للدَّولة عن أمور الإيمان المختلف عليها، ولكي يجهِّز بياناً عقائـــدياً يدخل ضمن مجموعة قوانين الدَّولة. (وهنا يبرر المتحدِّث لمـــاذا كانـــت قرارات المجمع ملزمة آنذاك).

• البيزنطيون في مجمعهم الخَامس لم يرفضوا تعبير البابا ديسقوروس "طبيعة واحدة من طبيعتين" بشرط ألاَّ يكون المقصود بكلمة "طبيعـــة واحدة" معنى "جوهر واحد". (وليس بالطَّبع في عقيدة الكنيسة القبطيَّة أي إشارة إلى هذا المعنى الأخير).

٣- طوموس لاون:

• لم يتَّخذ مجمع خلقيدونية من طوموس لاون أساساً، لأنه كان قصاصة ورق ضمن أوراق كثيرة من أوراق المجمع، ولكن المجمع تبنّى فوق كل شئ تعليم القدِّيس كيرلس الكبير. ولقد رفض الآباء الشَّرقيون هذا الطوموس قائلين: "إن لنا آباءنا الذين هم المعلّمون الحقيقيون للإيمان".

• ليس من شك في أن لاون انتحى نحو الفصل والتَّمييز بين أعمال المسيح بطريقة جعلت من الطَّبيعتين - البشريَّة والإلهيَّة في المسيح - تبدوان وكأنهما تعملان كشيئين منفصلين. ولم تكن ألفاظ اللغة اللاتينيَّة الخاصة بعلم اللاهوت الرُّوماني - والتي استخدمتها كنيسة روما - غنيَّة بالمصطلحات اللاهوتيَّة غنى اللُّغة اليونانيَّة بها، لذلك فقد أخفق لاون في فهم كيف أن كلمة "طبيعة - physis" كانت تُستخدم في الشَّرق بمعنى آخر غير ما تعنيه الكلمة اللاتينيَّة المقابلة natura . فقد كانت كلمة "طبيعة" تعني لدي الشَّرق كله "أقنوم - hypostasis" أو "شخص - prosopon".

• كان هناك تردُّد كبير بين أعضاء مجمع خلقيدونية لتأييد التَّوفيق بين طوموس لاون، وتعاليم القدِّيس كيرلس الكبير. وهو ما حاول مندوبو البابا لاون أن يفعلوه. وحينما حاول المندوبون الرُّومان الدِّفاع عن هذا البيان لرفضه سابقاً إدانة "نسطور" صاح آباء المجمع قائلين: "نسطوري، نسطوري".

• لم يقبل المجمع المسكوني الخامس طوموس لاون ليكون أساساً للإيمان، بينما اعتُبرت كتابات القدِّيس كيرلس الكبير بمثابة تحديدات رسميَّة للإيمان.

٤- شرح معنى كلمة "طبيعة واحدة" التي تمسكت بها الكنائس اللاخلقيدونيَّة:

• فسَّرت الكنائس اللاخلقيدونيَّة كلمة "طبيعة واحدة" بمعنى "أقنوم واحد" أو "شخص واحد" لكلمة الله بعد أن تجسَّد، ونظروا لهذه العبارة على أنها مساوية في المعنى لآية الإنجيل «والكلمة صار جسداً[٦]».

• لقد كانت كلمة physis التي تُترجم عادة "طبيعة"، وكلمة hypostasis التي تُترجم عادة "أقنوم" تستخدمان قديماً بنفس المعنى الواحد أحياناً، لذلك فإن خطأ نسطور هو أنه ادّعى أن المسيح "طبيعتين" بمعنى "أقنومين" أو "شخصين"، لذلك فإن الكلمة التي استخدمها القدِّيس كيرلس للرّد عليه هي كلمة physis بمعنى "أقنوم" أو "شخص". أي أن المسيح من بعد اتحاد الطبيعتين البشريَّة والإلهيَّة، هو شخص واحد، وأقنوم واحد[٧].

• إن مجمع أفسس الثّاني سنة ٤٤٩م لم يكن هرطوقياً، حيث أن رد اعتبار أوطاخي الذي حدث في هذا المجمع كان قائماً على أساس اعترافه الذي قدَّمه في هذا المجمع، بأن السيِّد المسيح واحد في الجوهر مع أمه العذراء ... أي واحد في الجوهر معنا نحن البشر.

وتكلم الأب جورج فلوروفسكي[٨] في المؤتمر الأخير من هذه المؤتمرات معقباً على المناقشات التي دارت فيها بقوله:

• إن القدِّيس كيرلس لم يكن جُل اهتمامه هو الألفاظ والتَّحديدات الأكاديميَّة المدرسيَّة للمعاني اللاهوتيَّة، ولكن اهتمامه كله كان منصباً على الحق، ولذا ينبغي علينا أن نعطي انتباهاً أكثر فأكثر للإلهام الذي كان عند

٦- يوحنا ١٤:١

٧- كان اللاهوتيون الخلقيدونيون يظنون أن إيمان الكنيسة اللاخلقيدونيَّة في موضوع "الطبيعة الواحدة" يعني طبيعة واحدة إلهيَّة بدون الطبيعة البشريَّة، وهي هرطقة أوطاخي.

٨- هو أستاذ اللاهوت في الكنيسة الروسيَّة في المهجر، انتقل في الثمانينيَّات من القرن العشرين عن عمر يناهز التسعين عاماً، وقد تتلمذ على يديه كثير من علماء اللاهوت في الكنائس الروسيَّة والصربيَّة.

القدِّيس كيرلس من جهة الخلاص.

• إن التَّوضيح باستخدام الألفاظ والتعبيرات اللاهوتيَّة يجب أن يكون فقط من وحي الضَّرورة، ويميل النَّاس دائماً إلى عدم الاعتداد بالدِّقة المتناهية في الألفاظ.

• نحن ما زلنا سجناء لألفاظ "الطبيعة الواحدة"، "الطبيعتين"، ويجب علينا أن نضع في اعتبارنا اللُّغات الوطنيَّة للكنائس اللاخلقيدونيَّة.

• يجب أن نتذكَّر دائماً أن الكلمات لا يمكنها أن تعبِّر عن الأفكار من تلقاء نفسها، فالأهم هنا أن نلتفت إلى الرؤية الأساسيَّة للكنيسة الأولى.

كانت هذه هي أهم الآراء التي أبدتها الكنيسة الخلقيدونيَّة تجاه الكنيسة اللاخلقيدونيَّة. فماذا كانت العقبات التي تراها الكنيسة اللاخلقيدونية في سبيل إتمام الوحدة، والتي عرضت لها في هذه الاجتماعات غير الرَّسمية، والتي كان آخرها سنة ١٩٧١م؟.

• لا تعترف الكنائس اللاخلقيدونيَّة إلاَّ بثلاثة مجامع مسكونيَّة هي: نيقية (٣٢٥م)، والقسطنطينيَّة (٣٨١م)، وأفسس (٤٣١م). أما الكنائس الأرثوذكسيَّة البيزنطيَّة (الخلقيدونيَّة) فتضيف إليها أربعة مجامع أخرى، هي: خلقيدونية (٤٥١م)، والقسطنطينيَّة الثاني (٥٥٣م)، وترولو (أي القبَّة) (٦٩٢م)، ونيقية الثَّاني (٧٨٧م)[٩].

• وهناك أيضاً مجامع مكانية أخرى عُقدت في الشَّرق، امتد تأثيرها على تعليم وعقائد الكنيسة الأرثوذكسيَّة عموماً. فالكنائس اللاخلقيدونيَّة

٩- هنا نذكر ما قاله البروفسور جراسيموس كونيداريس عن المركز القانوني واللاهوتي للمجامع المسكونيَّة. فمع أن هذا الأستاذ يعتقد بقانونيَّة المجامع المسكونيَّة السَّبعة، إلاَّ أنه يضع خطاً فاصلاً بين مركز المجمعين الأوَّلين اللذين صاغا قانون الإيمان الذي تعترف به كل الكنائس، وبين باقي المجامع الخمسة التي انحصرت في مجرد شرح وتوضيح قانون الإيمان هذا.

تعترف بتسعة مجامع مكانية هي: قرطاجنة (٢٥٧م)، أنقرة (٣١٤م)، قيصريَّة الجديدة (٣١٥م)، غنغرا (٣٤٠م)، أنطاكية (٣٤١م)، سرديقه (٣٤٣م)، اللاذقيَّة[١٠]، القسطنطينيَّة (٣٩٤م)، وقرطاجنَّة (٤١٩م). أما الكنائس الخلقيدونيَّة فتعترف بمجامع مكانية أخرى حديثة من أهمها: القسطنطينيَّة (١٣٤١م)، (١٣٥١م)، ومجمع جاسي Jassy (١٦٤٢م)، وأورشليم (١٦٧٢م). حيث صاغ المجمعان الأخيران التَّعليم الأرثوذكسي البيزنطي بخصوص الإفخارستيَّا، وطبيعة الكنيسة.

• بعد مجمع خلقيدونية أصبحت كل كنيسة لا تعترف بقداسة آباء الكنيسة الأخرى. فعلى سبيل المثال لا تعترف الكنيسة الخلقيدونيَّة بقداسة البابا ديسقوروس، والبطريرك الأنطاكي ساويرس، بينما تكرِّم الكنائس اللاخلقيدونيَّة هذين القدِّيسَين مع باقي آبائهم الذين عاشوا بعد هذا التَّاريخ.

وقد يكون المجمع الخامس لدي الخلقيدونيين قد ساهم في تصحيح بعض التطرُّف الوارد في المجمع الرَّابع. ولكن ماذا عن المجمعين السَّادس والسَّابع اللذين اعتبرا أن "أوطيخا وديسقوروس عدويّ الله". إن العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م)، والقدِّيس ديديموس الضَّرير (٣١٣-٣٩٨م)، وأوغريس قد أدينوا بالهرطقة الأوريجانيَّة. وهناك أشخاص أدانهم المجمع ذاته بـ "هرطقة المشيئة الواحدة"، ولكن ما هي الهرطقة التي أُدين بسببها القدِّيس ديسقوروس، حتى يُدعى بهذا اللَّقب المذموم؟!

• اتخذ المجمع السَّادس من طوموس لاون أساساً وليس من تعليم البابا كيرلس الإسكندري، ونحن نعتبر أن تعليم البابا لاون هرطوقياً بسبب تعليمه أن المشيئة والفعل في المسيح إنما يُنسبان إلى الطبيعتين في المسيح وليس إلى شخص المسيح الواحد، فنحن لا نقبل الحد الذي قرره المجمع

١٠- اللاذقية الواقعة في فريجية بآسيا الصُّغرى، وهي غير اللاذقية في سوريا. وتاريخ انعقاده غير معروف بالتَّحديد.

السَّادس المؤسَّس على تعاليم لاون.

• مشكلة ازدواج الرِّئاسات في الإقليم الواحد. إذ يوجد أكثر من بطريرك يحمل نفس اللَّقب في الإقليم الواحد، ففي أنطاكية يوجد بطريركان يحملان نفس الاسم "بطريرك أنطاكية" أحدهما يتبع العائلة اللاخلقيدونيَّة، والآخر يتبع العائلة الخلقيدونيَّة، وكلاهما يقع مركز كرسيه في سوريا. وكذلك الحال في مصر، حيث يوجد بطريركان، يحملان نفس لقب "بابا الإسكندريَّة"، ولكل منهما رعيَّته وكنائسه الخاصة(١١). ويحدونا الأمل أنه كلما نمت الثِّقة المتبادَلة بين الكنائس في التَّقليد اللِّيتورجي، فإن إعادة تنظيم وضع الرِّئاستين سيكون أمراً ممكناً.

هذه إطلالة على أهم الأفكار التي دارت في هذه الاجتماعات غير الرَّسميَّة، التي عُقدت في الفترة ما بين سنة ١٩٦٤م، سنة ١٩٧١م.

وفي سنة ١٩٧٢م قام بطريرك الكنيسة القبطيَّة قداسة البابا شنوده الثَّالث بزيارة بطريرك القسطنطينيَّة ديمتريوس الأوَّل، تُعتبر الأولى من نوعها منذ خلافات مجمع خلقيدونيَّة سنة ٤٥١م، أي منذ أكثر من ١٥٠٠ سنة. وقد وجَّه قداسة البابا الإسكندري الدَّعوة إلى قداسة بطريرك القسطنطينيَّة لزيارة القاهرة، تدعيماً لروح الوحدة المسيحيَّة، وقَبِل قداسته الدَّعوة. وقد تناقلت أخبار هذا اللِّقاء التَّاريخي جميع إذاعات وصحف العالم.

وفي لقاء تاريخي آخر بقداسة بابا الإسكندريَّة في فندق برستول في بيروت مع ممثلين عن الكنائس الأرثوذكسيَّة الخلقيدونيَّة واللاخلقيدونيَّة، وقف جبران حايك رئيس تحرير جريدة "لسان الحال" وهي واحدة من

١١- تنحصر جنسيَّة رعيَّة الكنيسة الخلقيدونيَّة في مصر في المغتربين السوريين واللبنانيين واليونانيِّين.

أقوى صحف بيروت المسائيَّة اليوميَّة ليقول بحماس: "نريد الوحـــدة ... كفانا خصاماً طويلاً أفقدنا الكثير ...".

وقد زار بابا الإسكندريَّة في جولته هذه، الكنائس الأرثوذكســيَّة في كل من روسيا وأرمينيا ورومانيا وتركيـــا وســوريا ولبنـــان، والتقـى برؤسائها، وذلك في رحلة بلغ طولها حوالي عشرة آلاف كيلومتر.

بدء الاجتماعات الرَّسميَّة

في ديسمبر سنة ١٩٨٥ وبمبادرة من غبطة بطريــرك القســطنطينيَّة ديمتريوس، بدأ الحوار الرَّسمي بــين الكنــائس الأرثوذكســيَّة بعائلتيهـــا الخلقيدونيَّة واللاخلقيدونيَّة، في المركز الأرثوذكسي بمدينـــة تشـــامبزي Chambesy بسويسرا، بهدف العمل على اكتشاف المبادئ الأساسيَّة تجـــاه عقيدة طبيعة المســيح Christology ، وطبيعـــة الكنيســـة Ecclesiology المشتركة بين جميع هذه الكنائس. وتكوَّنت هذه اللَّجنة من مطارنة يمثلون الكنائس الأرثوذكسيَّة الخلقيدونيَّة، وهي:

- كنيسة القسطنطينيَّة.
- بطريركية الرُّوم الأرثوذكس بالإسكندريَّة.
- كنيسة أنطاكيا للرُّوم الأرثوذكس.
- بطريركية أورشليم للرُّوم الأرثوذكس.
- بطريركية موسكو بروسيا.
- أساقفة يمثلون كنائس يوغوسلافيا، ورومانيا، وقبرص، وبولنــدا، وجورجيا، وتشيكوسلوفاكيا، وفنلندا.

أما المطارنة والأســاقفة الــذين مثَّلــوا الكنــائس الأرثوذكســيَّة اللاخلقيدونيَّة، فكانوا من:

- الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة.

- الكنيسة الإثيوبيَّة الأرثوذكسيَّة.
- الكنيسة الأرمينيَّة الأرثوذكسيَّة.
- كنيسة أنطاكيا للسِّريان الأرثوذكس.

وقد تم إنتخاب رئيسَين لهذه اللَّجنة المشتركة أحدهما مطران من بطريركية القسطنطينيَّة، والآخر مطران من الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة.

ولقد أعقب هذا اللِّقاء الرَّسمي الأوَّل لقاءان آخران في سنة ١٩٨٩، وسنة ١٩٩٠م. وفي هذه الفترة تزايدت اللِّقاءات بين رؤساء الكنائس في زيارات وديَّة، بعد أن تبيَّن للجميع أن الإيمان بينهم واحد، وإن اختلفت صيغ التَّعبير عنه. فما يطلقه البعض على الكنائس اللاخلقيدونيَّة من صفة "مونوفيزايس – monophysis"، ليس إلاَّ تعبير القدِّيس كيرلس الكبير عن المسيح، كونه "طبيعة واحدة، وأقنوم واحد". وظل هو هو موقف القدِّيسَين ديسقوروس، وساويرس الأنطاكي دون أي اتفاق مع أوطاخي الذي أنكر مساواة المسيح في الجوهر مع الآب من جهة لاهوته، ومساواته معنا من جهة ناسوته أي بشريَّته.

أما عن موقف الكنائس الخلقيدونيَّة من عقيدة طبيعة المسيح، فهو ما يُعرف باسم "ذيوفيزايس – Diophysis"، بمعنى أن المسيح هو أقنوم واحد في طبيعتين، وهو مفهوم مغاير لمفهوم الهرطقة النَّسطوريَّة. وإذا كان مجمع خلقيدونية لم ينحرف عن عقيدة القدِّيس كيرلس الكبير المختصة بطبيعة السيِّد المسيح، فقد كان يهدف إلى استبعاد الهرطقة الأوطاخيَّة، إلاَّ أن عقيدة طبيعة المسيح التي أعلنها مجمع خلقيدونية قد فسِّرت فعلاً بطريقة نسطوريَّة من قِبَل بعض المشايعين للمجمع. وقد أُدينت هذه التَّفسيرات من قِبَل الكنيسة الأرثوذكسيَّة الخلقيدونيَّة نفسها في المجمع

الخامس في القسطنطينيَّة سنة ٥٥٣م[١٢].

وبالتالي فالمفهوم الإيماني لعقيدة طبيعة السيِّد المسيح واحد، ولا يبقى الآن سوى عقبة الإجراءات الإداريَّة الكنسيَّة.

وفي غضون هذه الفترة، صرَّح أحد مطارنة الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكية الأرثوذكسيَّة، بأن البطريركيتين الأرثوذكسيتين اللّتين تحملان اسم "بطريركية أنطاكية"، وهما الكنيسة السِّريانيَّة الأرثوذكسيَّة (اللاخلقيدونيَّة)، وكنيسة الرُّوم الأرثوذكس (الخلقيدونيَّة)، وكلتاهما في سوريا ولبنان، يمكن إتمام الوحدة بينهما دون انتظار رأي باقي الكنائس الأرثوذكسيَّة البيزنطيَّة، في المجمع الأرثوذكسي العام[١٣].

وعلى صعيد آخر، فقد التقى في مصر بطاركة كل من الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة، وكنيسة أنطاكية للرُّوم الأرثوذكس، وكنيسة الأرمن الأرثوذكس في مصر، وكنيسة الإسكندريَّة للرُّوم الأرثوذكس، وذلك في دير القدِّيس أنبا بيشوى بوادي النطرون في ضيافة قداسة البابا شنوده الثالث، وأصدروا بياناً مشتركاً قالوا فيه: إن كنائسهم (بعائلتيها الخلقيدونيَّة واللاخلقيدونيَّة) قد حفظت أساساً وبطريقة جذرية نفس الإيمان في ربِّنا يسوع المسيح بالرَّغم من اختلاف التَّعبيرات والصِّيغ، وما نجم عن ذلك من جدال ونزاع.

١٢– لعل القارئ المبارَك قد تدارك بعد هذا القدر من الاسترسال، أن موقف الكنيسة الخلقيدونيَّة إزاء مجمع خلقيدونية هو موقف دفاعي عن أخطاء لا تجد مفراً من الاعتراف بها، بينما ظل موقف الكنائس اللاخلقيدونيَّة إزاء هذا المجمع موقفاً واحداً لم يتزحزح، ولم يتغيَّر طيلة خمسة عشر قرناً.

١٣– ظلت الأمنيات حبيسة النوايا الحسنة، إذ غربت شمس القرن العشرين دون أن تلوح في الأفق أي خطوات تنفيذية في هذا الشأن.

لقد حث الآباء البطاركة الأربعة على ضرورة إتباع "الحوار الرَّسمي" بين العائلتين، وذلك بعد اجتياز المرحلة التَّمهيدية من "الحوار غير الرَّسمي" الذي قام به اللاهوتيُّون من قبل.

وخلال الفترة من سنة ١٩٨٦ - سنة ١٩٩٠، أعدَّ قسم الإيمان والوحدة في مجلس كنائس الشَّرق الأوسط[١٤] عدَّة دراسات وأوراق منها:

- ورقة عمل تبحث في إيجاد سبيل للاتفاق على تاريخ موحّد للتعييد بعيد القيامة.

- مشروع نص عربي موحَّد للصَّلاة الرَّبانيَّة.

- إعداد مشروع مبدئي لنص موحَّد لترجمة عربيَّة لقانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني.

- إعداد ورقة عمل عن محاولات استمالة أعضاء كنيسة للانضمام إلى كنيسة أخرى، وعن الفرَق والمجموعات المسيحيَّة الخارجة عن طاعة كنائسها الأم، وكذلك الحركات الدِّينيَّة المحدَثة، وما تشكّله من تحدِّيات رعائيَّة.

من ناحية أخرى، عقدت اللّجنة المشتركة للحوار بين الكنائس الأرثوذكسيَّة اجتماعها الرَّابع في نوفمبر سنة ١٩٩٣م، وذلك في المركز الأرثوذكسي ببطريركية القسطنطينيَّة في تشامبزي بجنيف بسويسرا لمناقشة

١٤- Middle East Council of Churches (M.E.C.C.) . وكان المتنيح نيافة الأنبا صموئيل أسقف الخدمات الاجتماعيَّة (١٩٢٠ - ١٩٨١م) هو أول من سعى لتأسيس هذا المجلس ليحل محل مجلس كنائس الشَّرق الأدنى الذي كان قاصراً على الكنائس الإنجيليَّة بالمنطقة. وعقد المجلس أوَّل اجتماعاته في قبرص سنة ١٩٧٤م. وظل نيافة الأنبا صموئيل رئيساً لهذا المجلس حتى نياحته. والمجلس يضم منذ إنشائه ثلاث أسرات هي: الكنائس الشَّرقيَّة الأرثوذكسيَّة، وكنائس الرُّوم الأرثوذكس، والكنائس البروتستنتيَّة. وقد انضمت الكنيسة البروتستنتيَّة إليه في أوائل التسعينيَّات. وفي سنة ١٩٩١م رغبت كنيسة المشرق الآشوريَّة في الانضمام إلى هذا المجلس.

الإجراءات العمليَّة لاسترجاع الشَّركة الكاملة بين الكنيستين. والتقى في هذا الاجتماع مندوبون عن كنائس ألبانيا، والنِّمسا، وقبرص، وجمهوريَّة التشيك (بعد تفكك تشيكوسلوفاكيا إلى جمهوريتين)، ومصر، وإثيوبيا، وفنلندا، واليونان، والهند، ولبنان، وبولندا، ورومانيا، وروسيا، وسويسرا، وسوريا، والمملكة المتَّحدة (إنجلترا)، والولايات المتَّحدة الأمريكيَّة.

وفي نهاية الاجتماع صدر البيان التَّالي بإجماع جميع الحاضرين:

١ – على ضوء تصريح الاتفاق على عقيدة طبيعة المسيح، الذي تم في دير أنبا بيشوى سنة ١٩٨٩م، والتَّصريح المشترك الثَّاني في تشامبزي بسويسرا سنة ١٩٩٠م، اتفق ممثلو الكنائس من كلا العائلتين على أن رفع الحرومات، وقرارات الإدانة التي صدرت في الماضي، يمكن أن يكون على أساس اعترافهما المشترك بحقيقة أن المجامع والآباء الذين حُرموا وأُدينوا هم أرثوذكس (مستقيمو العقيدة) في تعاليمهم.

كذلك أيضاً في ضوء الاجتماعات الأربعة للمشاورات غير الرَّسميَّة التي انعقدت في أعوام ١٩٦٤، ١٩٦٧، ١٩٧٠، ١٩٧١م، والاجتماعات الرَّسميَّة الثَّلاثة التي تبعتها في أعوام ١٩٨٥، ١٩٨٩، ١٩٩٠م، تفهَّمنا أن كلا العائلتين تحتفظان بولاء للعقيدة الأرثوذكسيَّة الأصيلة بطبيعة المسيح، وللتعاقب الرَّسولي، بالرَّغم من استخدامهما لمصطلحات مختلفة.

٢ – إن رفع الحرومات يجب أن يتم في تزامن وبإجماع رؤساء الكنائس من كلا الجانبين وذلك بالتَّوقيع على قرار كنسي مناسب، يتضمَّن اعتراف كل طرف بأن الطَّرف الآخر أرثوذكسي من كل وجه.

٣ – يجب أن يتضمَّن رفع الحرومات:

(أ) استرجاع الشَّركة الكاملة مع كلا الجانبين، والذي لابد أن

يتحقّق فوراً.

(ب) عدم تطبيق أية إدانة سابقة ضد الطّرف الآخر، سواء كانت مجمعيَّة أو شخصيَّة.

(ج) الاتفاق على تلاوة أسماء رؤساء الكنائس في القدّاس الإلهي فيما يُسمّى ''الذبتيخا''.

٤ - وفي نفس الوقت يلزم اتخاذ الخطوات التالية:

(أ) يجب أن تستمر اللّجنة الفرعيَّة المشتركة للقضايا الرِّعائيَّة في أداء رسالتها الهامة جداً، بحسب ما تمّ الاتفاق عليه في اجتماع اللّجنة المشتركة عام ١٩٩٠م.

(ب) على الرؤساء المناوبين للّجنة المشتركة أن يزوروا رؤساء الكنائس لتزويدهم بالبيانات الوافية عن نتائج الحوار.

(ج) اختيار لجنة فرعيَّة للّيتورجيًا من كلا الجانبين، لفحص المضمون اللّيتورجي الذي سينشأ عن استرجاع الشّركة، ولاقتراح صيغة مناسبة للاحتفال المشترك باللّيتورجيًا.

(د) تُترك الأمور المختصَّة بالتّنظيم الإداري الكنسي، للتنسيق من قِبَل السُلطات المعنية في الكنائس المحلية، طبقاً للمبادئ القانونيَّة والمجمعيَّة.

(هـ) يضع الرّئيسان المناوبان للّجنة المشتركة[١٥] بالاشتراك مع سكرتيري لجنة الحوار التّرتيبات اللازمة، لإخراج المطبوعات المناسبة التي تشرح مفهومنا المشترك للإيمان الأرثوذكسي الذي أدىَّ بنا إلى التغلّب على انقسامات الماضي، وأيضاً لمباشرة عمل اللّجان الفرعيَّة الأخرى[١٦].

---

١٥ - وهما من الكنيسة البيزنطيَّة والكنيسة القبطيَّة.

١٦ - انظر: أعداد مختلفة من مجلة مرقس سنوات ٨٦، ٨٧، ٨٨، ١٩٩٠م.

ثانياً

الحوار المسكوني من أجل الوحدة المسيحيَّة بين الأرثوذكس الشرقيين وكنيسة روما الكاثوليكية

لاشك أن هوة الخلاف بين الفريقين عميقة، وذلك بسبب اختلاف الثّقافات، وعامل اللُّغة أيضاً الذي لا يمكن إغفاله. ومن ناحية أخرى اللاهوت الغربي بصفة عامة هو لاهوت مدرسي، أو منهجي، وهو ما لم تعهده كنيسة الشَّرق. فالتَّعليم والإيمان الأرثوذكسي في الشَّرق عموماً، موثَّق في النُّصوص اللِّيتورجيَّة التي تستخدمها الكنيسة في عبادتها. فلاهوت الشَّرق هو لاهوت عبادي.

الملامح التي تميِّز التَّعليم الأرثوذكسي في الشَّرق

+ تعترف الكنيسة الأرثوذكسيَّة بسبعة أسرار كنسيَّة، إلاَّ أن اللاهوتيين الأرثوذكس يعطون أهميَّة أقل مما يعطيه لاهوتيو الكنيسة اللاتينيَّة للرَّقم سبعة. فليس في الكنيسة الأرثوذكسيَّة حتى اليوم تمييز واضح بين هذه الأسرار السَّبعة، وبين بعض الممارسات الطَّقسيَّة الأخرى، مثل قداس تبريك الماء (اللّقان)، إلى جانب تكريس المذابح، والكنائس، والمعموديَّات، والأيقونات. وكذلك الصَّلاة على المنتقلين. والرَّهبنة ... الخ.

+ تمارس الكنيسة الأرثوذكسيَّة المعموديَّة بالتغطيس، وتمنح الميرون بواسطة الكاهن بعد المعموديَّة مباشرة حتى للأطفال، حيث ينضم الأطفال إلى عضوية الكنيسة مباشرة ومنذ طفولتهم.

+ تؤمن الكنيسة الأرثوذكسيَّة بأن خبز وخمر الإفخارستيَّا يصيران

بعد التَّقديس جسد ودم المسيح الأقدسين، لكن ليس بمفهوم التَّحـول أي الاستحالة transubstantiation .

+ يحتل تكريم الأيقونات والتشفُّع بالقدِّيسين مكاناً رفيعاً في الكنيسة الأرثوذكسيَّة، والتشفُّع بالعذراء القدِّيسة مريم أمر شـائع في النُّصـوص اللِّيتورجيَّة. أما تعليم الكنيسة الكاثوليكيَّة المختص بالعذراء عن موضوع "الحبل بلا دنس" فلا تعترف به الكنيسة الأرثوذكسيَّة.

+ يؤمن الأرثوذكس بصعود جسد السيِّدة العذراء إلى السَّماء بعـد نياحتها، ويحتفلون لذلك بعيد سنوي، بإقامة الليتورجيا، برغم أن ذلك لم يُحدَّد أو يُعلن رسمياً كعقيدة.

+ طلب شفاعة وصلوات المنتقلين أمـر تؤكِّـد عليـه الرُّوحانيَّـة الأرثوذكسيَّة، بل ونصوص الصَّلوات اللِّيتورجيَّة. أما تعلـيم الكنيسـة الكاثوليكيَّة عن المطهر، فلم تقبله الكنيسة الأرثوذكسيَّة.

+ تمنح الكنيسة الأرثوذكسيَّة العلمانيين دوراً فعَّـالاً ورئيسـياً في خدمتها، فمنهم اللاهوتيون البارزون، وأحيانـاً المرشـدون الرُّوحيـون Staretz . وللرَّهبنة الشَّرقيَّة تأثير هائل على العبادة الكنسية، ومنذ القـرن السَّادس الميلادي تقريباً، فإن الأساقفة في الشَّـرق المسـيحي صـاروا يُختارون من بين طغمة الرُّهبان فقط.

+ كهنة الإيبارشيَّات الذين يخدمون كنائس المدن هـم متزوجـون عموماً، ولم تُصرّ الكنيسة الأرثوذكسيَّة أبداً على شرط عزوبيَّة الإكليروس celibacy باستثناء الأساقفة حالياً. مكتفية بعدم زواج الكاهن مرَّة ثانية في حالة انتقال زوجته.

+ المجمع المقدس لأي كنيسة أرثوذكسية هو السُّلطة العُليا فيها، ولا وجود لمفهوم عصمة رئيس الكنيسة، إن كان هـو بابـا الكنيسـة، أو

بطريرك الكنيسة، أما الكنيسة الكاثوليكيَّة فتؤمن بغير ذلك.

مبادرات للوحدة بين الشَّرق والغرب

بعد ١٠٠٠ سنة تقريباً من الانفصال والشِّقاق، قام بابا روما يوحنا الـ ٢٣، والبطريرك المسكوني أثيناغوراس بفتح باب الحوار بين الكنيستين الأرثوذكسيَّة والرُّومانيَّة الكاثوليكيَّة.

ويعتبر البابا بولس السَّادس، أول بابا روماني يتقابل مع بطريرك القسطنطينيَّة، وذلك في أورشليم سنة ١٩٦٤م. وفي ديسمبر سنة ١٩٦٥م، وقبل نهاية مجمع الفاتيكان الثَّاني، قام البابا بولس في روما، والبطريرك المسكوني، في مقره في الفنار بتركيا، برفع متبادَل للحرومات التي كان سلفاؤهما قد وضعوها سنة ١٠٥٤م. وفي يوليو سنة ١٩٦٧م، بادر البابا بولس السَّادس بزيارة غير متوقَّعة لتركيا. وفي أكتوبر سنة ١٩٦٨م، قام البطريرك أثيناغوراس برد الزِّيارة للبابا الرُّوماني.

وفي سنة ١٩٧١م، زار مار إغناطيوس يعقوب الثَّالث بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للسِّريان الأرثوذكس حاضرة الفاتيكان.

وخلال الفترة من سنة ١٩٧١-١٩٨٨م، عُقدت في فينا خمس مداولات بين لاهوتيين من الكنائس الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة، وكنيسة روما الكاثوليكيَّة، وذلك في الأعوام ١٩٧١، ١٩٧٣، ١٩٧٦، ١٩٧٨، ١٩٨٨م[١٧].

وفي سنة ١٩٧٩م قام البابا يوحنا بولس الثَّاني بزيارة لبطريرك القسطنطينيَّة ديمتريوس الأوَّل، خليفة البطريرك أثيناغوراس، ودار بينهما حوار المحبَّة. وأعقب ذلك مباشرة بدء الحوار اللاهوتي بين الكنيستين. وفي ديسمبر سنة ١٩٨٧م، زار بطريرك القسطنطينية ديمتريوس الأوَّل البابا

١٧- أصدرت مؤسَّسة برو أورينتي المسكونيَّة كتباً تضم وقائع هذه الحوارات.

يوحنا بولس الثّاني في الفاتيكان، وتبادلا سوياً قُبلة السَّلام.

ويعتبر البطريرك المسكوني بارثولوميوس الأوَّل، والذي خلف البطريرك ديمتريوس سنة ١٩٩١م هو المسئول عن الإشراف على هذا الحوار مع الكنيسة الرُّومانيَّة الكاثوليكيَّة. وكانت العقبة الكبرى في هذا الحوار هو موضوع "الكنيسة المتَّحدة - Uniate Church"، وهي الكنائس الأرثوذكسيَّة التي انشقت عن الكنيسة الأم واتَّحدت بالكرسي البابوي الرُّوماني، برغم أنها تمارس الطَّقس البيزنطي في عبادتها.

ففي نهاية القرن السَّادس عشر في أوكرانيا، وفي القرن السَّابع عشر في رومانيا، أقامت بعض الكنائس الأرثوذكسيَّة علاقات مع الكنيسة الرُّومانيَّة الكاثوليكيَّة. وتدَّعي روما أن هذه الكنائس ارتبطت بكرسي روما بمحض إرادتها، لكن الكنيسة الأرثوذكسيَّة ترى أن الكنيسة الكاثوليكية استغلَّت قوَّتها وتأثيرها لتقسيم الكنائس الأرثوذكسيَّة.

وازدادت حدة التوتُّر خلال التسعينيَّات من القرن العشرين بين الأرثوذكس والكاثوليك في كل من روسيا وأوكرانيا ورومانيا، بسبب هذه المشكلة، واتهم بطريرك موسكو ألكسي الثاني الفاتيكان بأنه يغتنم ضعف كنيسته إثر خضوعها ٧٠ سنة للحكم الشيوعي لجذب أعضائها إلى الكاثوليكيَّة.

وبالرَّغم من ذلك، ففي سنة ١٩٩٣م انعقد اجتماع للحوار الكاثوليكي الأرثوذكسي في البلمند بلبنان، وتم خلاله توقيع معاهدة اتفق بمقتضاها الطَّرفان على احترام حريَّة ضمير الشَّرقيين المنضمين إلى الكنيسة الكاثوليكيَّة. وجدَّد البابا يوحنا بولس الثاني في سنة ١٩٩٥م تعهده بأن يخدم الكنائس الأرثوذكسيَّة الشَّقيقة، وأن يلتزم بعدم مضايقتهم باجتذاب أعضاء من كنائسهم. ولكن البطريرك المسكوني بارثولوميوس الأوَّل انتقد الخطاب الرَّسولي، الذي اعتبر أن الكنائس الأرثوذكسيَّة المنشقَّة عن

الأرثوذكس والمتَّحدة مع الكاثوليك Uniate Churches بأنها تقف على قدم المساواة مع الكنائس الأرثوذكسيَّة.

وفي يونيو سنة ١٩٩٥م، التقى البطريرك المسكوني بارثولوميوس الأوَّل في روما بالبابا يوحنا بولس الثَّاني. وكان أهم حدث في هذه الزِّيارة هو يوم ٢٩ يونيو سنة ١٩٩٥م عندما حضر البطريرك المسكوني قداساً باباوياً لخدمة الكلمة بمناسبة عيد استشهاد القدِّيس بطرس الرَّسول. وبعد أن قُرئ الإنجيل باللاتينيَّة واليونانيَّة، ألقى البطريرك المسكوني عظة باللُّغة اللاتينيَّة، قال فيها: "إن الاتضاع والتَّوبة هما الطَّريق الوحيد للتغلُّب على هذا الانقسام القديم الحادث بين كنيستي القسطنطينيَّة وروما". وفي نهاية القدَّاس تبادل قادة الكنيستين قُبلة السَّلام، وقاما معاً بمباركة المجتمعين.

وعلى الجانب الآخر، تعقد كنيسة روما لقاءات دوريَّة للحوار اللاهوتي مع الكنائس الشَّرقيَّة الأرثوذكسيَّة القديمة أيضاً، وذلك بدير القدِّيس أنبا بيشوي بوادي النَّطرون في مصر. وفي سنة ١٩٨٦م بعثت الكنيسة القبطيَّة برد على خطاب رئيس لجنة الوحدة المسيحيَّة بالفاتيكان، الذي عرض فيه فكَّ الحرومات بين الكنيستين قالت فيه: إن فك الحرومات بين الكنيستين يحتاج إلى الوصول لحلول حول النِّقاط الآتية:

١- طبيعة السيِّد المسيح ٢- انبثاق الرُّوح القُدُس

٣- المطهر ٤- الحبل بلا دنس

٥- الغفرانات ٦- الزَّواج المختلط مع غير المسيحيين.

وفي مقابل ذلك، التقى أعضاء لجنة الإيمان والوحدة بمجلس كنائس الشَّرق الأوسط[١٨] في نفس العام بدير الأنبا بيشوي بوادي النَّطرون في مصر. وحضر في هذا الاجتماع ممثلون عن الكنائس الأرمينيَّة والإنجيليَّة،

١٨- يقع مقر مجلس كنائس الشَّرق الأوسط في بيروت، ويضم في عضويته الكنائس الأرثوذكسيَّة بعائلتيها، والإنجيليَّة، والأنجليكانيَّة بالشَّرق الأوسط.

والأنجليكانيَّة بلبنان وسوريا والقُدس، بالإضافة إلى الكنيسة القبطيَّة. وكان موضوع اللّقاء هو العلاقات بين الكنائس في القُطر الواحد.

أما عن كنيسة المشرق الآشوريَّة، فقد ظلّت على هامش الاهتمام المسكوني حتى كانت نقطة التحوُّل في تاريخها الحديث، عندما تمّت المداولة الأولى غير الرَّسميَّة التي عقدتها مؤسَّسة برو أورينتي[١٩] مع كنيسة المشرق في فينا في يونيو سنة ١٩٩٤م.

وفي نوفمبر من نفس هذه السنة تمكّن البابا يوحنا بولس الثّاني والجاثليق مار دنخا الرَّابع من توقيع "الإعلان المسيحي المشترك بين الكنيسة الكاثوليكيَّة وكنيسة المشرق الآشوريَّة" في روما[٢٠].

مشاركة الكنائس الشَّرقيَّة الكاثوليكيَّة في الحوار المسكوني

لقد ظلّت الكنائس الكاثوليكيَّة في الشَّرق بعيدة عن المشاركة الرَّسميَّة الفعَّالة في أي مجلس كنسي مسكوني عام، وإنما كانت تحضر بصفة "مراقب" فقط، أي لا تشارك في الحوار، أو تدلي بصوتها. وبالتالي لم تشترك الكنائس الكاثوليكيَّة الشَّرقيَّة في مجلس الكنائس العالمي. واستمر الحال على هذا الوضع حتى كان الاجتماع الخامس للجمعيَّة العموميَّة لمجلس كنائس الشَّرق الأوسط، والذي انعقد في نيقوسيا بقبرص في يناير سنة ١٩٩٠م حين اشتركت الكنائس الكاثوليكيَّة[٢١] في هذا الاجتماع كأعضاء رسميين. وهكذا

١٩- مؤسَّسة برو أورينتي هي مؤسسة مسكونيَّة في فينا، أسَّسها الكاردينال فرانسيسكوس كونيغ راعي الإيبارشيَّة سنة ١٩٦٤م، واستطاعت أن ترعى ٦٠ مؤتمراً مسكونياً حتى سنة ١٩٩٤م.

٢٠- الحوار السرياني، المداولة الأولى غير الرَّسميَّة حول الحوار ضمن التقليد السِّرياني، فينا، ١٩٩٤م، ص ١١

٢١- هي كنائس: الأقباط الكاثوليك، كنيسة الرُّوم الكاثوليك، كنيسة السِّريان الكاثوليك، كنيسة الأرمن الكاثوليك، كنيسة الكلدان الكاثوليك، كنيسة الموارنة، واللاتين.

التأمت الكنائس الشَّرقيَّة كلها معاً في اجتماع واحد لأوَّل مرَّة منذ خمسة عشر قرناً خلت.

وافتتح الرَّئيس القبرصي جلسات الاجتماعات بخطاب افتتاحي، ووجَّه البابا الرُّوماني يوحنا بولس الثَّاني رسالة إلى المجلس يهنئه فيها بمشاركة الكنائس الكاثوليكيَّة الشَّرقيَّة في عضويته، مناشداً الكنائس الكاثوليكيَّة في المنطقة الالتزام بالمجلس والاضطلاع بمسؤولياته.

وقد عقد البطاركة الكاثوليك في الشَّرق الأوسط[٢٢] المؤتمر الأوَّل لهم في لبنان في أغسطس سنة ١٩٩١م، وبحث المؤتمر موضوعي: "القانون الكنسي الشَّرقي الجديد"، و"الحوار الإسلامي المسيحي".

أما المؤتمر الثَّاني لهم فقد عُقد في القاهرة في فبراير سنة ١٩٩٢م. وقد تدارس المؤتمر الوجود المسيحي في الشَّرق الأوسط، والحياة المسيحيَّة سلوكاً وإيماناً وعملاً.

ونحن لن نتعرض في دراستنا الطَّقسيَّة لطقوس هذه الكنائس الكاثوليكيَّة إلاَّ في النَّذر اليسير، باستثناء الكنيسة المارونيَّة[٢٣]، لأنها من جهة تمارس طقوس الكنيسة الوطنيَّة التي نشأت فيها، ومن جهة أخرى، لأننا لم نتعرض للطَّقس اللاتيني في معرض حديثنا عن الطَّقس المقارن، مكتفين بالطَّقوس الشَّرقيَّة، لما لها من صلة قريبة بالطَّقس القبطي، الذي هو الغاية التي تعنينا أولاً وآخراً.

٢٢- هم بطاركة الكنيسة القبطيَّة الكاثوليكيَّة، وكنيسة الرُّوم الكاثوليك، والكنيسة المارونية، والكنيسة السِّريانيَّة الكاثوليكيَّة، والكنيسة الكلدانيَّة الكاثوليكيَّة، والكنيسة اللاتينية بالقدس.

٢٣- ظهرت في هذه الكنيسة نهضة ليتورجيَّة هذه الأيام، وعودة إلى أصولها السِّريانيَّة الأنطاكية، فالتعرُّض للطَّقس الماروني يفتح لنا آفاقاً رحبة على الطَّقس الأنطاكي، فالطَّقس الماروني هو وليد الطَّقس الأنطاكي، وابنه الأقرب.

الفَصل الثَّالث

طقوس الكنيسة المسيحيَّة شرقاً وغرباً

أولاً: معنى كلمة "طقس" واستخداماتها في الكنائس المختلفة

كلمة "طقس" معرَّبة عن الكلمة اليونانيَّة τάξις (تاكسيس)، والكلمة واسعة المعنى، فهي تعني من الوجهة العسكريَّة أو السياسيَّة تنظيم وترتيب الجيش أو الدَّولة، فهي تفيد إذاً "ترتيب أو نظام – order" وتعني أيضاً أحد الرُّتب العسكريَّة، فهي تفيد معنى "رتبة". وهي تعني كذلك "دستور". وتعني عموماً ما يجب أن يؤديه الواحد تجاه الآخر.

وفي الأسفار الإلهيَّة ترد كلمة "طقس" لتعني "رتبة" أيضاً[١]. وأوَّل إشارة وردت عن كلمة "طقس – τάξις" بمعنى "ترتيب"، جاءت في رسالة القدِّيس كليمندس الرُّوماني إلى أهل كورنثوس، والتي يعود زمن تدوينها إلى نهاية القرن الأوَّل الميلادي[٢] فيقول: "لنعمل كل شئ بترتيب Taxei في الأوقات المحدَّدة كما أمرنا السيِّد أن نعمل ... الخ[٣]".

أما في المعنى الكنسي، فيندرج تحت تعبير "طقس" كل نظام عبادة الكنيسة، وصلواتها، وتسابيحها، وأسرارها، وأعيادها.

وفي الكنيسة القبطيَّة، انتقلت الكلمة اليونانيَّة τάξις إلى اللُّغة القبطيَّة بنفس نطقها اليوناني لتعني "طقس أو رتبة"، فمؤلف قوانين هيبوليتس

---

١ – انظر: (عبرانيين ٥:٦) «أنت كاهن إلى الأبد على طقس (أو رتبة) ملكي صادق».

2- A Patristic Greek Lexicon, Edited by G.W.H. Lamp, D.D., p. 1372.

3- 1 Clem. 40,1

القبطي في القرن السَّادس استخدم التَّعبيرين في قوانينه(٤). وتستخدم الكنيسة القبطيَّة الآن كلمة "طقس" أكثر من استخدامها لكلمة "رتبة"، حيث اختصَّت هذه الكلمة الأخيرة بالرُّتب الكنسية في سر الكهنوت.

أما الكنيسة السِّريانيَّة بشقيها الشَّرقي والغربي، ويتبعها الكنيسة المارونيَّة، فهي تستخدم دائماً تعبير "رتبة" لتعني بها "طقس".

وتستخدم الكنيسة البيزنطيَّة لفظة يونانيَّة أخرى هي τύπικον (تيبيكون)، وهي مشتق وصفي للَّفظة اليونانيَّة τύπος (تيبوس)، والتي تعني في الأدب الآبائي "المثال أو الشَّكل أو المدلول". والصِّفة المشتقة من الكلمة تعني ما هو مطابق للمدلول، وهي تعني أيضاً "القانون والنِّظام والأصول". ويُعرَّف "التيبيكون" في الكنيسة البيزنطيَّة بأنه كتاب الأصول المنظِّمة لإقامة الذَّبيحة الإلهيَّة، والخدم الكهنوتيَّة، وصلاة الفرض (أي صلوات السَّواعي والمزامير)، وباختصار فهو كتاب تنظيم مراسيم العبادة.

ثانياً: ما هو طقس الكنيسة؟

طقس الكنيسة هو تعبير تعليمها، وحارس تقليدها، ورؤية إيمانها. وهو صلاة الكنيسة الرَّسميَّة، ومضمون أسرارها. فطقس الكنيسة ليس هو فقط واسطة دخول إلى حضرة المسيح له المجد، بل هو أيضاً مجال هذه الحضرة وديمومتها. فالإيمان علاقة بالله، والعلاقة بالله لا تكون بغير الصَّلاة، وكل طقس تحكمه روح الصَّلاة، هو أسهل وسيلة للدخول إلى حضرة الرَّب الإله.

٤- انظر: قوانين هيبوليتس ٦:١؛ ٣٤:١؛ ٣٨:٨، ٩

والطَّقس الكنسي في جوهره هو استعلان ظاهر لتعبير داخلي متأجِّج بحب المسيح ومعترف بفضله، يظهر في لحن، أو هتاف أو تسبيح، أو حتى برقص كما هو الحال في تقليد الكنيسة الإثيوبيَّة. ولكن عندما تضعف علاقة الشَّعب بإلهه، تزداد المبالغة في إبراز المظاهر الخارجيَّة للعبادة بطقس يكفل أكبر تأثير على الفكر والسُّلوك الشَّعبيين، فتهبط العبادة إلى مستوى النَّشاط الآلي، وترتبط قيمتها بفخامة المراسيم التي تؤدَّى بها.

فالطَّقس إذاً سيف ذو حدين، يمكنه بالواحد إجلاء الإيمان واستعلانه، وبالآخر تشويشه وطمسه. فالطَّقس مثل القانون الذي إذا مارسناه دون إدراك لفحواه، وفهم لأسبابه وغاياته، يؤول بنا حتماً إلى صورة من صور العبوديَّة والقهر. وهكذا إن اكتفينا بتأدية طقس الكنيسة وممارسته دون أن نفهم ونعي ما نمارسه، نلفى أنفسنا ترزح تحت نير قيود طقسيَّة، تكبِّل حريَّتنا وانطلاقتنا نحو عبادة حيَّة بالرُّوح. أما إن وعينا ما نمارسه من طقوس، فتصبح الطُّقوس الكنسيَّة حينئذ كفيلة بأن تحيي العبادة وتجدِّدها وتنشِّطها دوماً. أي أن العبادة تخلق من الطُّقوس وبالطُّقوس حياة وشركة متجدِّدة دوماً مع الله.

وطقس الكنيسة هو تراثها الشَّعبي، أو هو هويَّة شعبها وشخصيَّته، فالطَّقس الكنسي يحمل في داخله تاريخ جهاد الكنيسة وكفاحها، وآلامها وأفراحها، ببصمات موقَّعة على نغمات، وألحان ومراسيم. فطقوس أي كنيسة كما وصلت إلينا اليوم، ما هي إلاَّ مرحلة من مراحل تطوُّرها. ونمو الطَّقس لا يعني تغيُّره أو تبدُّله، لأن النُّمو يعني الامتداد مع الحفاظ على الأصول كأساس لهذا النُّمو. وكل شئ لا ينمو يموت، ورفض الجمود لا يعني السَّعي وراء كل ما هو جديد ومستحدث.

والطَّقس الكنسي ليس مجرد مراسيم عبادة محصورة بين الكاهن

والشَّمامسة، في غيبة من مشاركة شعبيَّة فاعلة، بل هو واسطة التحام شعبي بالرَّاعي في خدمة صلاة. فاللِّيتورجيَّا هي حتماً ومن منطوق اللَّفظة نفسها، هي خدمة شعبيَّة، الشَّعب فيها عنصر رئيسي. بل إن الشَّعب هو الحارس الفعلي للتَّقليد والطُّقوس، لأن الأفراد عابرون زائلون، أما الشَّعب ككيان فلا يموت أبداً. فإن حُرم الشَّعب فهم اللِّيتورجيَّا فلن يرى فيها سوى طقوس جميلة تكتنفها السريَّة، دون أن يكون له أي دور حقيقي فيها.

وطقس الكنيسة هو أداة الالتحام العضوي بين اللِّيتورجيَّا واللاهوت. فاللاهوت الشَّرقي خصوصاً هو لاهوت عبادي، أي لاهوت ليتورجي لا ينفصل عن نصوص صلوات الكنيسة وتسابيحها وممارساتها التعبديَّة اليوميَّة. فإن انعزل اللاهوت عن اللِّيتورجيَّا يمسي تدريباً عقلانياً للمفكرين وحدهم. ولأن طقس الكنيسة هو إيمانها متجسِّداً، لذلك كانت الحقائق التي يتضمنها الطَّقس أساسيَّة في تشرُّب الإيمان وتغلغله في كيان الإنسان. فالطَّقس مياه تجري في نهر العقيدة ليروي شجرة الإيمان، إيمان الكنيسة المسلم مرَّة للقدِّيسين.

إن طقوس الكنيسة ما برحت تنمو تدريجياً لتخدم قضايا إيمانيَّة ألحَّت على الكنيسة بظهور هرطقات استوجبت من الكنيسة التَّصدي لها بشرح الإيمان على مستويين: الأوَّل تعليمي، والآخر تطبيقي، وظل المستوى التَّطبيقي لحفظ الإيمان هو الأكثر ديمومة وتأثيراً عندما صارت ليتورجيا الكنيسة هي لاهوتها المرتَّل كل يوم، وأصبحت نصوص صلواتها وتسابيحها هي نفسها قانون إيمانها. فدراسة تاريخ الطُّقوس لأي كنيسة هي بعينها دراسة لتاريخ إيمانها، ومن هنا كانت الحقائق التي يتضمنها الطَّقس الكنسي أساسيَّة في الدِّفاع عن الإيمان وصونه. وإن كان الإيمان عند ترتليان هو "قاعدة الحق" و "قاعدة التَّقوى"، وعند إيريناؤس

وكليمندس الإسكندري هو "قاعدة الكنيسة"، فالطَّقس الكنسي إذاً هو التَّعبير عن الحق والتَّقوى.

والتجسُّد الإلهي الذي أكمله المسيح في الزَّمن هو الأساس الذي تنبني عليه طقوس العهد الجديد، فبالتجسُّد صارت العلاقة بين المسيح والكنيسة علاقة محسوسة من خلال طقوس الكنيسة. والبشارة بالإنجيل والتي هي ميلاد في المسيح، وقبول له، وخلاص به، وقيام فيه تكون من داخل طقس الكنيسة وتقليدها، وليس من مصدر آخر. فالإنجيل خارجاً عن الكنيسة وتقليدها هو مدعاة للتشيُّع والتحزُّب والانقسام، ولم تكن الهرطقات التي ظهرت في الكنيسة سوى تعليم كتابي في غيبة من الكنيسة وتقليدها.

فالطَّقس الكنسي يفرد للكلمة الإلهيَّة ليتورجية كاملة لا تقل أهميَّة عن ليتورجية السِّر ولا تنفصل عنها، فبالكلمة والسِّر يُستعلن الله فينا. فالكلمة الإلهيَّة في حد ذاتها حيَّة ومحيية، وقادرة على التَّطهير حتى النَّقاوة[٥]، لذلك اعتنى الطَّقس بليتورجيَّة الكلمة كممهِّد ضروري وحتمي لليتورجيَّة السِّر.

٥- انظر: عبرانيين ٤:١٢؛ يوحنا ١٥:٣

ثالثاً: أنواع الطُّقوس المسيحيَّة

نعرض الآن لأنواع الطُّقوس المسيحيَّة التي يعرفها العالم المسيحي شرقاً وغرباً، ثم نخصص كلامنا على الشَّرقي منها.

ففي التَّقسيم العام للكنيسة المسيحيَّة في العالم نقول: "الكنيسة اليونانيَّة" ونعني بها الكنيسة التي أخذت من اللُّغة اليونانيَّة أساساً لنشأتها ونموها. ونقول: "الكنيسة اللاتينيَّة" وهي الكنيسة التي اعتمدت على اللُّغة اللاتينيَّة لغةً طقسيَّة وليتورجيَّة لها. الأولى هي كنيسة الشَّرق، والثَّانية هي كنيسة الغرب. وبينما الغالبيَّة العُظمى من أبناء الكنيسة الشَّرقيَّة يدينون بالأرثوذكسيَّة، فإن الكنيسة الغربيَّة تدين بالكاثوليكيَّة.

وفي مقابل هذا التَّقسيم العام للكنيسة المسيحيَّة في العالم، نجد أن اللِّيتورجيَّة المسيحيَّة أيضاً قد انقسمت هي الأخرى إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأوَّل: اللِّيتورجيَّات الشَّرقيَّة.

القسم الثَّاني: اللِّيتورجيَّات الغربيَّة.

واللِّيتورجيَّة عموماً هي المجال الأكثر وضوحاً للتعرُّف على تباين الطُّقوس وتنوعها. وهي أفضل صورة تعكس لنا هوية الشَّعب الذي يمارسها وسماته الخاصة.

وجدير بالذِّكر أن مهمَّة تتبُّع نمو الطَّقس اللِّيتورجي في الثلاثة قرون الأولى تكتنفها صعوبات جمَّة، بسبب ندرة المصادر التي لدينا عن هذه الفترة المبكِّرة من تاريخ الكنيسة. ولكن من المتَّفق عليه أنه منذ القرن الثَّالث الميلادي، وشيئاً فشيئاً بدأت اللِّيتورجيَّات في النُّمو، وبدأت معها الطُّقوس في التبلور لأخذ أشكالها المختلفة، وهو ما سنعرض له تفصيلاً عند الحديث عن الليتورجيَّا ضمن سلسلة "أسرار وصلوات الكنيسة". أما

الآن فيعنينا بالدَّرجة الأولى أن نلقي ضوءًا على أقسام الطُّقوس المختلفة في العالم المسيحي.

فتنقسم الطُّقوس الكنسيَّة إلى قسمين: طقوس شرقيَّة، وأخرى غربيَّة.

ففي الشَّرق المسيحي، تنقسم الطُّقوس عموماً إلى قسمين أساسيين هما:

- الطَّقس السِّرياني.
- الطَّقس القبطي.

وتحت هذين الطَّقسين الرَّئيسيين — السِّرياني والقبطي - تنضوي كافة الطُّقوس الشَّرقيَّة الأخرى.

وفي الغرب المسيحي، تنقسم الطُّقوس عموماً إلى خمسة أقسام هي:

١- الطَّقس الرُّوماني.
٢- الطَّقس الأمبروزي.
٣- الطَّقس الموزارابي.
٤- الطَّقس الغالي.
٥- الطَّقس السِّلتي.

(أ) طقوس الشَّرق المسيحي

(١) الطَّقس السِّرياني وفروعه

وهو ينقسم إلى قسمين:

- "الطَّقس السِّرياني الغربي" أي "الطَّقس الأنطاكي".
- "الطَّقس السِّرياني الشَّرقي" أي "الطَّقس الآشوري"

(أ) الطَّقس السِّرياني الغربي

ويتبعه طقس أنطاكية، وطقس الموارنة، والطَّقس البيزنطي. ويرى الأب كورولفسكي أن كثيراً من المؤرِّخين والباحثين يظنون أنه حتى حوالى القرن العاشر الميلادي بقى طقس أنطاكية واحداً تقريباً عند الطوائف الثلاث التي اتبعته وهم: (الملكيون، واليعاقبة[٦]، والموارنة)[٧].

ويندرج تحت هذا الطَّقس:

١- طقس أنطاكية: حيث تُعتبر أنطاكية بعد أورشليم هي المركز الأوَّل والرَّئيسي لانتشار المسيحيَّة، إذ امتد تأثيرها إلى أرجاء بعيدة.

٢- الطَّقس الماروني: وهو فرع من فروع الطَّقس السِّرياني الأنطاكي، وتمارسه الكنيسة المارونيَّة التي استقرت في لبنان، وانتظمت كنيسة مستقلة في غضون القرنين الثامن والتاسع الميلاديين حول دير القدِّيس مارون. ومنذ الحروب الصليبيَّة انضمت هذه الكنيسة إلى روما. وبالرَّغم من بقائها في شركة مع أنطاكية، إلاَّ أن الموارنة لهم صفتهم الخاصة المميِّزة. ولكن طقسهم بات يعاني من تأثيرات لاتينيَّة كثيرة.

٣- الطَّقس البيزنطي: وهو طقس يرتبط في أصوله بالطَّقس السِّرياني الأنطاكي، ويسير في تجانس وثيق معه. وقد تشكَّل هذا الطَّقس في العاصمة الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة الشَّرقيَّة (القسطنطينيَّة). وإلى جانب العناصر الأنطاكية في هذا الطَّقس، فهو يحوي أيضاً عناصر من التَّقليد الكبادوكي.

٤- الطَّقس الأرمني: وقد استوحى الطَّقس الأرمني تقليده من كنيسة أورشليم. وبعد أن عانى الطَّقس الأرمني من تأثيرات بيزنطيَّة ورومانيَّة عليه، صار من الصَّعب تحديد العناصر التي تبقَّت من أصوله الأولى.

٦- أي أهل البلاد الوطنيين الذين يتبعون الطَّقس الأنطاكي.

٧- حياتنا الليتورجية، السنة الرابعة، سنة ١٩٩٢م، سنة ١٩٩٣م، ص ١٣، ١٤

(ب) الطَّقس السِّرياني الشَّرقي

ويتبعه الطَّقس النَّسطوري، أو الطَّقس الآشوري، والطَّقس الكلداني، وطقس المالابار.

١- الطَّقس الآشوري: وهو طقس نشأ بين جماعات مسيحيَّة تجمَّعت بين النَّهرين تحت حكم الإمبراطوريَّة الفارسيَّة، فتخلَّصت من تأثير أنطاكية عليها لأسباب جغرافيَّة، وأخرى سياسيَّة. وهذه العُزلة التي دخلت إليها هذه الجماعات المسيحيَّة قد أضفت عليها الانعزال العقيدي أو الإيماني، حتى نشأت مؤسَّسة برو أوريني التي أفسحت مجالاً لهذه الكنيسة لكي تعرض إيمانها على الكنائس الأخرى، وكان ذلك في يونيو سنة ١٩٩٤م، ضمن الحركة الكنسيَّة المسكونيَّة.

وقد ظلَّت اللُّغة السِّريانيَّة هي همزة الوصل بين هذا الطَّقس السِّرياني الشَّرقي، ونظيره الغربي الذي تركَّز أساساً في أنطاكية.

٢- الطَّقس الكلداني: وهو الطَّقس الذي نشأ في غضون القرنين الخامس عشر والسَّادس عشر عندما انضم بعض النَّساطرة إلى كنيسة روما، فأسَّسوا بذلك الكنيسة الكلدانيَّة، ولكنهم حافظوا على اللِّيتورجيَّة التي تستخدمها الكنيسة الآشوريَّة مع بعض التَّعديلات.

٣- طقس المالابار[٨]: وهو طقس الكنيسة الهنديَّة. والذين انضموا

٨- المالابار هي مقاطعة في جنوب الهند تُعرف حديثاً باسم "مقاطعة كيرالا". وكان للكنيسة الآشوريَّة إرساليات ضخمة، حملوا فيها بشارة الإنجيل إلى أقصى الأرض. وقد تلاشى الجزء الأكبر من الجماعات التي أسسوها باستثناء كنيسة المالابار. وفي القرن السَّادس عشر انضمت كنيسة المالابار إلى الكنيسة الأنطاكية، لتتبع الطَّقس السِّرياني الغربي. ولكن الغزو البرتغالي الذي احتلَّ هذه المنطقة، أرغم هذه الكنيسة على الانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكيَّة. بل واستخدموا القوَّة في إقحام اللِّيتورجيَّة

من كنيسة المالابار إلى كنيسة روما سُموا "المالانكار". ويدعوهم برايتمان(٩) Brightman "الكلدان الشَّرقيين"، تمييزا لهم عن "الكلدان الغربيين" الذين سبق الإشارة إليهم في البند الثَّاني، وكان مركز هؤلاء الأخيرين في موسول Mosul .

(٢) الطَّقس القبطي وفروعه

وهو ينقسم إلى: الطَّقس القبطي، والطَّقس الإثيوبي.

(أ) الطَّقس القبطي

الوثائق القديمة المختصة بهذا الطَّقس قليلة، أو بالحري نادرة. وكتاب التَّقليد الرَّسولي الذي يعود إلى أوائل القرن الثَّالث الميلادي، والذي عُرف في مصر باسم "التَّرتيب الكنسي المصري" قد ساهم إلى حد بعيد في تشكيل الطَّقس القبطي بكل قوانينه وشرائعه. كما يُعتبر خولاجي سرابيون (القرن الرَّابع الميلادي) هو أحد الوثائق الأصيلة لهذا الطَّقس. وفي القرن الخامس كانت قوانين هيبوليتس القبطية دليلاً واضحاً لما كان عليه الطَّقس القبطي آنئذ. ولازالت الكنيسة القبطيَّة تحتفظ بليتورجيَّة القدِّيس مرقس الرَّسول اليونانيَّة، وهي معروفة لدينا منذ القرن الثالث أو الرَّابع للميلاد تحت صيغة أكثر اختصاراً مما هي عليه الآن. بالإضافة إلى ليتورجية القدِّيس باسيليوس الكبير، والقدِّيس غريغوريوس التريتري، وسمتاهما أيضاً مصريَّة.

الرُّومانيَّة، أو على الأقل تعديل وتغيير في اللِّيتورجيَّة السِّريانيَّة التي كانت مستخدمة بما يتناسب مع السِّمات اللاتينيَّة في اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة.

9- F. E. Brightman, M.A., Liturgies, *Eastern and Western*, Vol. 1, *Eastern Liturgies*, Oxford, 1967, p. Lxxvii

ولقد اتضح لدينا شكل الطّقس القبطي منذ زمن البابا أثناسيوس الرّسولي (٢٩٦- ٣٧٣م)، وفي القرون الوسطى كان لبعض باباوات الكنيسة تأثير عليه مثل البابا خريستوذولوس (١٠٤٧- ١٠٧٨م)، والبابا غبريال الثاني (+ ١١٤٦م)، والبابا كيرلس الثّالث (١٢٣٥- ١٢٤٣م)، مضافاً إلى ذلك مجموعات قوانين فرج الله الأخميمي، والصّفي بن العسّال في القرن الثّالث عشر. أما البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) فكان له تأثير واضح على استقرار الطّقس القبطي لما هو عليه الآن، لاسيّما ليتورجية القدّاس. فضلاً عن تاريخ أبو ذقن الذي نُشر في القرن السّابع عشر.

أما المصادر الحديثة التي تُطلعنا على تاريخ طقوس كنيستنا القبطيّة فأهمها:

+ "تاريخ كنيسة الإسكندرية" الذي نُشر في باريس سنة ١٦٧٧م، للمؤرخ الأب فانسليب Vansleb الدُّومينكي، الذي زار مصر في القرن السّابع عشر، وتجوّل في كنائسها، وشاهد طقوسها آنئذ رؤيا العين.

+ "تاريخ الكنيسة الشّرقيّة المقدّسة" الذي نشره رينودوت Renaudot في لندن سنة ١٨٤٧م.

+ "الكنائس القبطيّة القديمة في مصر" الذي نُشر في لندن سنة ١٨٨٤م، للمؤرّخ المدقّق ألفريد جوا بتلر A.J. Butler، والذي زار مصر في الرُّبع الأخير من القرن التاسع عشر، وجاب كنائس الوجه البحري، واطّلع على طقوس الكنيسة القبطيّة، كشاهد عيان[١٠].

١٠- تُرجم هذا الكتاب أخيراً إلى اللغة العربية في سنة ١٩٩٣م، ضمن مجموعة كتب الألف كتاب الثاني التي تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب. وترجمه سلامة إبراهيم سلامة في أسلوب عربي مُتقن رصين.

وفي مقدّمة هذا الكتاب يقول بتلر: "... والحقيقة إن القليل من القبط هم الذين يعرفون شيئاً عن تاريخهم، أو طقوسهم، أو يستطيعون تقديم تفسير للأشياء التي

+ كنائس وأديرة مصر" ونُشر في لندن سنة ١٨٩٥م، بواسطة العالِمَين إيفيت وبتلر Evetts & Butler .

(ب) الطَّقس الإثيوبي

عرفت إثيوبيا المسيحيَّة في زمن البابا أثناسيوس الرَّسولي الذي رسم لها أسقفاً نقل معه طقس كنيسة الإسكندريَّة إلى هناك. ونستطيع القول بوجه عام أن الطَّقس الإثيوبي هو وليد الطَّقس القبطي، ولكنه في ذات الوقت ليس مجرد ترجمة له. فالطقوس الإثيوبيَّة طقوس تتواءم مع سمات الشَّعب الإثيوبي وهويته الذَّاتية، وألحانه المريميَّة تميزه جداً على غيره من الطُّقوس. ولدى الكنيسة الإثيوبيَّة ليتورجيَّات كثيرة، بعضها إسكندري الأصل، أما الغالبيَّة العظمى منها فلا علاقة لها بكنيسة الإسكندريَّة.

هذه هي الطُّقوس الشَّرقيَّة وأصولها التي انحصرت في عائلتين كبيرتين، هما العائلة الأنطاكية، والعائلة الإسكندرانيَّة. وعن هاتين العائلتين تفرعَّت هذه الطُّقوس، ومع مرور الزَّمن أخذت الشَّكل الذي هي عليه الآن.

يعاينونها في خدماتهم اليومية. إن السؤال في نقطة طقسية يُقابَل عادة إما بهزة الرأس، أو بإجابة صارخة الخطأ تكشف عن الجهل، بالإضافة إلى ذلك، فإنه عند العثور على الشخص العالم ببواطن الأمور، فإنه يفضل عموماً أن يؤجل الحديث للغد!" (ص ١٥).

وعن خدمة القداس الإلهي في ذلك الوقت يقول: "خدمة باردة ومرتجلة، تُقام في كنائس اليوم المعتمة والمهجورة" (ص ١٨٠).

(ب) طقوس الغرب المسيحي

طقوس الغرب المسيحي، أو اللِّيتورجيَّة الغربيَّة على وجه التَّحديد، هو موضوع يتعدَّى إمكانياتنا، ويخرج عن نطاق بحثنا، ولكننا نقدّم هنا لمحة موجزة عنه لتكتمل ملامح الصورة في ذهن القارئ الحبيب.

(١) الطَّقس الرُّوماني

اعتُبرت روما المركز الرَّئيسي للطقس الغربي، بالإضافة إلى طقس شمال إفريقيا، وليست لدينا أية وثائق عن ليتورجيَّة هذا الطَّقس الأخير أو كتب تختص بها. إلاّ أنه قد اتضح لنا من كتابات ترتليانوس، وكبريانوس، وأغسطينوس، أن هذا الطَّقس كان متأثراً جداً بطقس كنيسة روما.

وطقس روما حالياً هو الطَّقس الذي يمارسه كل المسيحيين اللاتين. ولقد شرح ليتورجيَّة روما كل من القدِّيس يوستينوس الشَّهيد (١٠٠-١٦٥م)، وهيبوليتس الرُّوماني (+٢١٥م)، وخلال القرنين الثالث والرَّابع الميلاديين تحولت اللِّيتورجيَّة من اليونانيَّة إلى اللاتينيَّة. وظلَّت اللُّغة اللاتينيَّة هي اللُّغة الوحيدة لليتورجيَّات الغربيَّة، على عكس ليتورجيَّات الشَّرق التي بدأت باليونانيَّة، ثم تشعَّبت إلى عدَّة لغات أخرى.

ويحتفظ طقس روما برصيد وافر من التآليف الشِّعريَّة التي لم تدخل في صلب الصَّلوات إلاّ في زمن متأخِّر. وصيغ الصَّلوات الرُّومانيَّة مدوَّنة في لغة شعريَّة ذات قافية langue harmonieuse وموزونة وموجَزة المعنى، على عكس صيغ الصَّلوات الغزيرة في الطَّقسين الغالي والموزارابي.

ولقد تنظَّمت ليتورجيَّة روما فيما بعد بواسطة باباوات[١١] الكنيسة الرُّومانيَّة، ولاسيَّما ليو الكبير، وجلاسيوس الأوَّل.

ومنذ عصور مبكِّرة قُبلت هذه اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة في كل كنائس إيطاليا، ولكن بشيء من التصرُّف، إذ لم يكن تطور العائلات اللِّيتورجيَّة في الغرب - باستثناء روما - مرتبطاً بالكرسي الأسقفي كما في الشَّرق. فقد أوضح القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م) أنه يتبع تقليد روما مع احتفاظه بحقه في الإبقاء على استخدامات ليتورجيَّة غريبة عن طقس روما. وانتهى الأمر بأن فرضت ليتورجيَّة روما نفسها وبسرعة على كافة أنحاء إيطاليا تقريباً، مع بعض التغييرات المحليَّة المختصَّة بكل منطقة على حدة.

ولقد تعرَّفنا على الشهادات المبكِّرة جداً للطقس الرُّوماني من وثائق وُجدت في بلاد الغال، وفي أيرلندا. ولكن منذ زمن شارلمان[١٢]، فرضت

١١- "بابا" كلمة تعرفها كل لغات العالم، فهي في القبطية παπα وفي اليونانية πάπας وفي اللاتينية أيضاً بنفس النطق. وعُرف أسقف كنيسة الإسكندريَّة بلقب "بابا" منذ زمن البابا ياروكلاس الثالث عشر من باباوات الكرازة المرقسيَّة (٢٢٤- ٢٤٠م)، وذلك قبل أن يُقنن لقباً رسمياً لأسقف روما أيضاً بأكثر من ثمانية قرون. ففي الشَّرق لم يُلقَّب أحد به سوى بطريرك كنيسة الإسكندريَّة، أما في الغرب فكان يُستخدم هذا اللَّقب لأي أسقف إيبارشيَّة، وفي سنة ٩٩٨م، اعتذر رئيس أساقفة ميلان عن تسميته "بابا". وفي سنة ١٠٧٣م قرر البابا غريغوريوس السابع في مجمع عقده في روما، أن يقتصر لقب "بابا" على أسقف روما وحده. وليس غريباً أنه في الوقت الذي سعى فيه بابا روما ليقنن اسمه بقانون وأمر كنسي، لم نقرأ في التاريخ أبداً أن بابا الإسكندريَّة سعى ذات مرَّة ليؤكد لقبه بين أولاده، لأن لقب "البابا" قد نبع من قلب ووجدان الشَّعب المصري إذ لم يجد في علاقته بأسقفه، سوى علاقة الأبوَّة وكفى.

١٢- هناك أباطرة وملوك كثيرون باسم "شارلمان" أو "شارل"، فهناك ثلاثة عشر ملكاً من ملوك السويد باسم "شارل"، وعشرة ملوك لفرنسا بنفس الاسم، واثنا عشر ملكاً من ملوك نابولي بنفس الاسم. أما شارلمان المذكور، فهو شارل الأول ملك

اللّيتورجيَّة الرُّومانيَّة في كل أنحاء إمبراطوريتّه، فحلّت بالتّالي محل اللّيتورجيّات القديمة المحليَّة في كل بلاد الغال وجرمانيا(١٣).

ليتورجيَّة روما

كانت اللُّغة اليونانيَّة هي لغة اللّيتورجيَّة الرُّومانيَّة حتى حلّ محلها اللُّغة اللاتينيَّة منذ الرُّبع الثّالث من القرن الرّابع على الأقل. والاستثناء الوحيد ذو الاعتبار هو كتاب القدّاس السلافوني glagolitique والمحصور في كنائس بوهيميا(١٤)، والمستخدم حالياً في منطقة دلماطيا.

وبرغم وفرة ما لدينا من معلومات عن ليتورجيَّة روما اليونانيَّة، إلاّ أن الأمر يختلف عندما حلّت اللاتينيَّة محل اليونانيَّة. إذ لم يصل إلينا من الكتب اللّيتورجيَّة لروما في اللُّغة اللاتينيَّة قبل القرن السّابع سوى كتابات عن الأسرار للبابا ليو الكبير، وجلاسيوس الأوَّل، علماً بأنهما ليسا المؤلفين

الفرنجة، أو ملك فرنسا (٧٦٨-٨١٤م)، وأصبح إمبراطوراً للغرب منذ سنة ٨٠٠م، وقد أشرك ابنه لويس الأول (٨١٢-٨١٤م) معه في الحكم، وعيّنه خليفة له، فأنشأت بذلك الأسرة الكارولينيَّة.

١٣- الجرمان: هي مجموعة كبيرة من الأجناس بأوروبا، وهي تغلب في تكوين شعوب السويد، والنرويج، والدنمرك، وأيسلندا، وألمانيا، والنمسا، وسويسرا، وشمال إيطاليا، وهولندا، وبلجيكا، ولكسمبورج، وشمال ووسط فرنسا، وسهل اسكتلندا، وإنجلترا. ويتفق ظهورهم في التاريخ بالضرورة مع صلاتهم بالرومان، ولا يُعرف عنهم الكثير قبل الميلاد. وازداد خطر الجرمان على الإمبراطورية الرومانية في القرون الأولى للميلاد، ولاسيما الوندال في الغرب، والقوط الشرقيون في الشّرق. ومنذ القرن الثاني أو الثالث الميلادي، تفرّق الجرمان شعوباً كثيرة أهمها الألمان، والأنجلوساكسون، واللومبارد، والساكسون، والغوط الغربيون. وأنتج الاسكندنافيون أول أدب جرماني. وظهرت منهم قبائل أخرى كثيرة في فترات شتّى من التاريخ القديم والوسيط.

١٤- هي مقاطعة قديمة بغرب تشيكوسلوفاكيا السابقة، عاصمتها براج، وتفصلها عن بافاريا غابة بوهيميا، وهو إقليم خصيب مرتفع يرويه نهر الألب، ومنذ سنة ١٩١٨م أصبح تاريخ بوهيميا هو تاريخ تشيكوسلوفاكيا.

لها، ولكنهما أعادا فقط صياغة ليتورجيَّة روما اللاتينيَّة في أسلوب جيِّد بعد أن نظما ورتبا هذا الطَّقس.

وبرغم أن النَّص الأصلي لطقس روما كان قد تأسَّس في القرن الرَّابع الميلادي، واستقر في نهاية القرن الخامس، إلاَّ أن آخر وأكبر إصلاح ليتورجي كان على يد البابا غريغورِيوس الكبير (٥٤٠-٦٠٤م)، والذي صار بابا روما سنة ٥٩٠م، ولا يزال اسمه مرتبطاً باستخدام الموسيقى الكنسية في الطَّقس الرُّوماني. على أن غالبية التَّرتيل الكنسي تعود أصوله إلى أديرة رينلاند Rhineland . ومما لاشك فيه أن عصر البابا غريغوريوس الكبير يُعتبر هو العصر الذّهبي لليتورجيَّة روما.

وليست لدى روما سوى صيغة واحدة للأنافورا الخاصة بها، ولكنها لا تخلو من بعض المرونة لتوائم المناسبات الكنسية المختلفة، على عكس الطُّقوس الشَّرقيَّة التي تحوي عدداً وافراً من الأنافورات.

ولقد تأخَّر دخول الليتورجيًا الرُّومانيَّة إلى أسبانيا، حتى القرن الحادي عشر عندما دخلتها بواسطة غريغوريوس السَّابع (١٠٧٣-١٠٨٥م)، في حين انحسرت اللّيتورجيَّة الأسبانيَّة القديمة، ولم تعد تُمارَس إلاَّ في بعض الكنائس فقط.

وباستثناء كتاب "التَّقليد الرَّسولي" لهيبوليتس فإن أقدم مصادر ليتورجيَّة رومانيَّة وصلت إلينا كانت في "كتب الصَّلوات – Sacramentaires "، وهي كتب تحوي الصَّلوات التي يقولها الأسقف في مناسبات الكنيسة المختلفة. ويُسمَّى كتاب الصَّلوات "الليوني" نسبة إلى البابا ليون، أو لاون. كما يُسمَّى أيضاً "الفيروني" نسبة إلى مدينة فيرونا Vérone . ولا يوجد منه سوى نسخة واحدة، ممزَّقة في الجزء الأوَّل منها.

وكتاب الصَّلوات الرُّوماني القديم يحوي صلوات غير مرتَّبة، وغير متناسقة في الطُّول، جُمعت معاً لتعبِّر عن نظام السَّنة اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة، ولكن بطريقة تقريبيَّة.

ولدينا كتب صلوات أخرى أكثر تنظيماً لليتورجيَّة روما التي كانت تمارس في روما قبل العصر الكارولييني[١٥] carolingienne . وهي كتب صلوات القدَّاس بالإضافة إلى رسائل بعض باباوات روما التي تمدنا بمعلومات قيِّمة عن خصائص اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة، والتغيُّرات المختلفة التي أجراها الباباوات عليها.

ومنذ القرن السَّابع الميلادي، وبسبب وفود جماعات من أصل بيزنطي على روما، وخاصة من الرُّهبان الشَّرقيين، فقد استوجب ذلك أن تُقرأ بعض أجزاء من اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة بلغتين، أي اليونانيَّة بجانب اللاتينيَّة خصوصاً في القراءات. فضلاً عن ذلك فإن بعض المناسبات الكنسيَّة في الشَّرق قد دخلت على اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة، ولاسيَّما في الأعياد المريميَّة، وفي تكريم الصَّليب المقدَّس، بالإضافة إلى بعض الأناشيد المصاحبة لصلوات القسمة.

وتطوَّرت اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة بعد انتشارها خارج إيطاليا، فعند انتشارها في بلاد الغال والجرمان، عادت لتلتزم بالعناصر التي كانت تعتبرها قبلاً غريبة عليها، سواء من حيث الاستخدامات المحليَّة القديمة التي وُجدت في كل إقليم محلي وظلَّت باقية فيه، أو من جهة الطُّقوس الجديدة

١٥- أسرة من الحكام الفرنجة تأسَّست في القرن السَّابع الميلادي، وبلغت هذه الأسرة أوجها في عهد الإمبراطور شارلمان الذي تُوج سنة ٨٠٠م. والإمبراطوريَّة الكارولينيَّة شملت ما يُعرَف اليوم بفرنسا وألمانيا. واستمرت هذه الإمبراطوريَّة في فرنسا حتى سنة ٨٩٩م، وفي ألمانيا حتى سنة ٩١١م.

التي أُلحقت بها. فلقد كانت الإمبراطوريَّة الكارولينية Empire Carolingien تستخدم ليتورجيا روما بعد أن أضافت عليها بعض استخداماتها الخاصة لتوافق بيئتها المحليَّة، حتى إلى الحد الذي أصبحت فيه كتب الصَّلوات الخاصة بالاحتفالات الطَّقسية مختلفة من مدينة إلى مدينة، بل وحتى من كنيسة إلى أخرى في نفس المدينة الواحدة في تلك العصور الوسطى.

وفي روما نفسها كانت لكل بازيليكا[١٦] ليتورجيتها الخَّاصة والتي تختلف عن تلك التي كان يُصلَّى بها في كاتدرا البابا الرُّوماني. ولكن الاستخدامات القديمة في الطَّقس الرُّوماني عادت إلى اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة على يد البابا الرُّوماني ذي الأصل الجرماني في نهاية القرن الحادي عشر.

أما الإصلاح اللِّيتورجي الذي حدث في عصر البابا إينوسنت الثالث (١١٦٠-١٢١٦م) والذي صار بابا روما سنة ١١٩٨م، فيعتبر نقطة تحوُّل في تاريخ اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة. ولكن تعرقل أيضاً هذا الإصلاح بسبب تفضيل المعنى الرَّمزي والمعنى القانوني على المعنى الأساسي لليتورجيَّة، فانصب الاهتمام على أدق التَّفصيلات الفرَّعية، وحلَّت الاهتمامات القانونيَّة محل الإصلاح المنشود، فغاب معنى الليتورجيا كاحتفال كنسي يشترك فيه الشَّعب والإكليروس.

وبعد اختراع الطِّباعة، ثم الإصلاح اللِّيتورجي الذي نشأ عن مجمع ترنت[١٧]، فقد قلَّت جداً هذه الاختلافات. ولكن الانقسام الذي حدث

١٦- كنيسة كبيرة مبنيَّة على الطراز البازيليكي. وهناك شرح تفصيلي لمعنى الطراز البازيليكي، وذلك في كتاب: "الكنيسة - مبناها ومعناها"، فارجع إليه إن شئت.

١٧- مدينة ترنت تقع شمال إيطاليا وتحوي المدينة تمثالاً لدانتي، وعُقد بها مجمع كاثوليكي في القرن السَّادس عشر (١٥٤٥-١٥٦٣م) وهو المجمع التاسع عشر من مجامع الكنيسة الكاثوليكيَّة.

في الكنيسة الرُّومانيَّة في القرن السَّادس عشر أعاق إصلاحات مجمع ترنت، مما أدَّى إلى تجميد الوضع القائم.

وحاول البابا بندكت الرَّابع عشر (١٦٧٥-١٧٥٨م) إجراء بعض الإصلاحات اللِّيتورجيَّة، فتعوَّق هو الآخر، ولم يؤبه له، وفي الحقيقة فإن تدخل الباباوات كثيراً في محاولة إصلاح الليتورجيا الرُّومانيَّة كاد أن يفقدها هويَّتها الذَّاتيَّة. وجاء القرن العشرين حين بدأ هذا الإصلاح مرَّة أخرى في عهد البابا بيوس العاشر، وامتد إلى زمن البابا بيوس الثاني عشر. ثم تقنن الإصلاح أخيراً بواسطة مجمع الفاتيكان الثاني (١٩٦٢- ١٩٦٥م).

(٢) الطَّقس الأمبروزي

نسبة إلى واضعه القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) أسقف ميلان[١٨]، ويُدعي أيضاً هذا الطَّقس "طقس أمبروسيوس" أو "طقس ميلان"، وهو الطَّقس الذي استُخدم في إيبارشيَّة ميلان القديمة، ولا زال يُمارس بها حتى اليوم. وهو واحد من الطُّقوس القليلة غير الرُّومانيَّة التي بقيت إلى الآن في الكنيسة الكاثوليكيَّة في الغرب.

وعلى الرَّغم من أنه قد تشبَّع بعناصر من ليتورجيَّة روما، إلاَّ أنه قد نجح في المحافظة على أساسيَّات الممارسات التقليديَّة الخاصة به، وبذلك استطاع الحفاظ على أقدم شكل ليتورجي غربي وهو الطَّقس الغالي،

١٨- مدينة شمال إيطاليا، وهي من أهم أسواق أوروبا لبيع الحرير، وأكبر مدينة صناعية بإيطاليا، وأصبحت مركزاً دينياً لشمال إيطاليا منذ أن أصبح القدِّيس أمبروسيوس أسقفاً لها. وتأسَّست بها كنيسة القدِّيس أمبروسيوس سنة ٣٨٦م، وبها كنيسة "سانتا ماريا" التي رسم فيها ليوناردو دافينشي لوحته الشَّهيرة "العشاء الأخير"، وبها جامعتان، ومكتبة، وكلية للفنون الجميلة، ومركز موسيقي هام.

والذي سيرد ذكره فيما بعد.

وتمسَّكت ليتورجيَّة أمبروسيوس باستخدامات رومانيَّة قديمة أهملتـــها روما نفسها فيما بعد، ولكنها من جهة أخرى تحوي استخدامات خاصة سواء في القدَّاس أو في الخدمات الطَّقسيَّة. ونلاحظ تماثلاً في توافقها مـــع الطَّقس الغالي، وخاصة في اختيار القراءات. لذلك يضع البعض الطَّقـــس الأمبروزي كأحد الطُّقوس التي تتبع طقس روما، ولهم في ذلك أســـباب معقولة، بينما يعتبره البعض الآخر أنه قريب من الطَّقس الغالي في كثير من النقاط أهمها اختيار فصول القراءات كما ذكرنا. واليوم يُنظر إلى الطَّقس الأمبروزي على أنه ذو أصول غربيَّة لا علاقة له بالشَّرق.

ويعرف الطَّقس الغربي ما يُسمى "قانون (نظام) القدَّاس[١٩] – Le Canon de la mess"، و"قانون القدَّاس" في الطَّقس الأمبروزي له شكل مختلف عن نظيره الرُّوماني.

وتقديم القرابين Offertory في هذا الطَّقس يتم قبل قـــانون الإيمـــان، مصحوباً بدورة احتفاليَّة، على عكس الطَّقس الرُّوماني الذي تُقدَّم فيـــه القرابين بعد قانون الإيمان.

ويلزم التَّوضيح هنا أن تقدمة القرابين في الطَّقـــس الرُّومـــاني تـــأتي

١٩- "قانون القدَّاس" هو جزء من القدَّاس تعرفه كافة اللِّيتورجيَّـــات الشَّـــرقيَّة والغربيَّة. وهو الجزء الذي يحوي كلمات التأسيس، والـــذي لا تتغيَّـــر كلماتـــه في اللِّيتورجيَّات الشَّرقيَّة، باستثناء قداس أدي وماري Addai and Mari ، أما في ليتورجيَّة الغال وأسبانيا فلا يحمل "قانون القدَّاس" صيغة ثابتة في كليهمـــا، حيـــث تحـــوي الصَّلوات الكهنوتيَّة فيهما قطَعاً أو أجزاء متغيِّرة تتجمَّع حول رواية التَّأسيس.

وعلى الرَّغم من أن "قانون القدَّاس" الرُّوماني قد وُضع علـــى أســـاس النمـــوذج اليوناني للقدَّاس، إلاَّ أنه لا يشبهه. وقد نالته بعض التَّعديلات في الغرب على يد البابا غريغوريوس الكبير (٥٩٠- ٦٠٤م).

متأخرة نوعاً في الصّلاة الليتورجيّة، أي بعد القراءات وقانون الإيمان، أي في بداية قدّاس المؤمنين، ويتم تقديم القرابين بواسطة المحتفل نفسه (الكاهن) نيابة عن الشّعب. ولكن حديثاً، بعد أحدث تغيير على الطّقس الرُّوماني، أصبح العلمانيون هم الذين يقدّمون القرابين أي الخبز والخمر بالإضافة إلى الهبات والعطايا، وحتى الأموال أيضاً، إلى المذبح أثناء ترتيل بعض الألحان المصاحبة للتّقدمة، وذلك نقلاً عن طقس ميلان أقدم الطُّقوس الغربيّة.

ففي طقس ميلان يتم تقديم القرابين بواسطة الشّعب نفسه، حيث يتقدّم أربعة من العلمانيين من كبار السّن، اثنان من الرِّجال، واثنتان من النِّساء، نيابة عن كل الشّعب، لتقديم القرابين، وهؤلاء العلمانيون الأربعة هم ضمن عشرة من العلمانيين الكبار السِّن من الجنسين والذين يُدعون Vecchioni .

وكثيراً ما تعرقلت الدِّراسات التي أجريت على هذا الطّقس الأمبروزي بسبب ندرة النُّصوص القديمة. وقد بُذلت محاولات ممتازة لاستعادة أصول هذا الطّقس، قام بها شارلز بوروميو Charles Borromeo أسقف ميلان في القرن السّادس عشر (١٥٣٨-١٥٨٤م). وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين، وبفضل مجموعة علماء من ميلان[٢٠]، أمكن حذف العناصر الدَّخيلة على هذا الطّقس في العصور المتأخِّرة. وفي سنة ١٩٧٦م، تم تنقيح كتاب الصّلوات الليتورجيّة Missal لهذا الطّقس طبقاً لقرارات مجمع الفاتيكان الثاني، والتّقليد القديم لهذا الطّقس.

٢٠- ومن بينهم "راتي - Ratti " وهو الذي أصبح فيما بعد البابا بيوس الحادي عشر، وشوستر Schuster .

(٣) الطَّقس الموزارابي

نقصد بتعبير الطَّقس الموزارابي Le Rite Mozarabe أي الطَّقس الأسباني القديم. وإن كانت مصادره مبهمة، لكنه تأسَّس على أسس واضحة. وقد حدث له تطوُّر كامل في غضون القرن السَّادس الميلادي، ويظهر من هذا الطَّقس تأثير النِّضال الذي ناضله ضد التَّعاليم الأريوسيَّة التي حملها الغزاة الغوط الغربيون إلى أسبانيا في القرن الخامس، كما حدث في اللِّيتورجيَّات الشَّرقيَّة. وقد أضرَّ الغزو الإسلامي لأسبانيا بهذا الطَّقس ضرراً بالغاً لا يمكن إصلاحه. ومن بعده تسببت روما هي الأخرى، عن طريق الرُّهبان الكاثوليك في تشويه هذا الطَّقس في نهاية القرن الحادي عشر عندما فرضت عليه ممارساتها الرُّومانيَّة. وفي نهاية القرن الخامس عشر قام أحد الكرادلة ويُدعى "إكسيميتز – Ximénès" بمحاولة لاستعادة هذه اللِّيتورجيَّة القديمة وجعلها صالحة للاستخدام كما هو حادث الآن في كاتدرائية طُليطله[٢١].

٢١– طُلَيطله: هي مدينة وعاصمة مقاطعة في وسط أسبانيا بإقليم قشتاله الجديد. وقشتاله أي كستلا بالأسبانيَّة هي مملكة قديمة بشمال ووسط أسبانيا، وتنقسم هذه المملكة إلى منطقتين: قشتاله القديمة، ومساحتها تزيد قليلاً عن خمسين كيلومتراً مربعاً، ويقطنها حوالي ٢ مليون نسمة في الشمال، وقشتاله الجديدة، ومساحتها تزيد قليلاً عن اثنين وسبعين كيلومتراً مربعاً، ويقطنها أكثر قليلاً من ٣ مليون نسمة في الجنوب، حيث مدن: مدريد العاصمة، وطليطلة (المدينة التاريخية)، وكونسكا. وقد ترتب على زواج إيزابلا الأولى ملكة قشتاله من فرديناند الثاني ملك الأراجون (مملكة قديمة شبه صحراوية شمال شرق أسبانيا مساحتها أكثر قليلاً من ٤٧ ألف كيلومتر مربع، ويغلب على أهلها الفقر والتديُّن) اتحاد المملكتين معاً، حيث دام هذا الاتحاد حتى سنة ١٥١٦م، حين اعتلى العرش حفيدهما شارل الأوَّل، والذي صار الإمبراطور شارل الخامس فيما بعد، وغدت لهجتها هي اللهجة الأدبيَّة في أسبانيا كلها، وامتزج تاريخها بتاريخ أسبانيا.

والطَّقس الموزارابي قريب الشَّبه جداً بالطَّقس الغـــالي Gallian Rite ويظن كثير من العُلماء أنه مأخوذ منه، بينما يعتقد آخرون احتمال دخول تأثيرات عليه. وهناك عناصر من هذا الطَّقس يبدو أنها أُدخلـت عليـه مباشرة من الطَّقس البيزنطي مثل دورة القرابين. وربما كان ذلك في القرن السَّادس الميلادي. والطَّقس الموزارابي يتسم باستخدامه لصيغ تتغيَّر من يوم إلى يوم بحسب التَّقويم الطَّقسي Calender .

وفي أسبانيا؛ هناك تمييز واضح بين الطَّقـس الكاتـدرائي Ordo Cathedralis الذي يُمارس في كنائس المدن، وبين الطَّقـس الـدَّيري Monastic Offices الذي يُمارس في الأديرة. وهذا التَّمييز بين الطَّقسين الكاتدرائي والدَّيري قد اختفى تماماً وبصفة نهائية في الطَّقس الرُّوماني Roman Rite .

وتتكوَّن الخدمة الكاتدارئيَّة في الطَّقس المـوزارابي مـن صـلاة الغروب Vespers ، وصلاة السَّحَر Mattins ، مع مـزامير مختـارة أو أجزاء منها تُرتَّل بمصاحبة قرار أو مرد refrains على طريقة الأنتيفونا. أما الخدمة الدَّيرية في شكلها المتطوِّر فهي تشمل اثنتا عشرة خدمـة نهاريَّة، واثنتا عشرة خدمة ليلية.

وكتب الصلوات الطَّقسية في الطَّقس الموزارابي تحوي نصوصاً قديمة

وطليطله من أهم مدن أسبانيا ثقافياً وتاريخياً، ويرجع تاريخها إلى ما قبل الرُّومان، إذ سقطت في قبضتهم سنة ١٩٣ق.م، وهي مركز أسقفي قديم، وكان أساقفتها يُختارون رؤساء لأساقفة أسبانيا. وبلغت قمة ازدهارها إبان حكم العـرب لأسـبانيا (٧١٢-١٠٨٥م) حينما اتخذها العرب مقراً لحكمهم. واعتُبرت العاصمة الرُّوحيَّة للكاثوليكيَّة الأسبانية، ومن روائعها الكاتدرائية القوطية، وكنيسة "سانتو تومي" أي "القـديس توما"، وكنيسة "سانتا ماريا" أي "القدِّيسة مريم"، وكلها تعود إلى القرنين الثـاني عشر والثالث عشر.

في صيغتها البدائيَّة المبكِّرة، وذلك على عكس طقس روما الذي يحوي كتبه الطَّقسيَّة مزيجاً من عناصر مختلفة كما في كتاب القدَّاس Missal وكتاب الصَّلوات Breviary .

وكتب الصَّلوات في روما تحوي عناصر من الطَّقس الموزارابي، لاسيَّما في صلوات التَّجنيز. واستُخدم الطَّقس الموزارابي في تاريخ متأخِّر في تصنيف خدمة المعموديَّة benedictio fontis في كتاب الصَّلوات الرُّوماني الذي طُبع سنة ١٥٤٩م.

ليتورجية الطَّقس الموزارابي

ويضم ليتورجية الطَّقس الموزارابي كتابان، الأوَّل هو كتاب الطَّقس الذي طُبع في سنة ١٥٠٠م، والثَّاني هو كتاب الصَّلوات الذي طُبع سنة ١٥٠٢م، وهما الكتابان اللَّذان طُبعا بأمر الكاردينال إكسيميتز - Ximénès والذي صار أسقفاً على طُليطله سنة ١٤٩٥م، حيث استخدمت هذه اللِّيتورجيَّة في بعض كنائس إيبارشيَّته. لكن الاستخدام الحالي لها، وكذا الكتابان المشار إليهما، لا يعطينا فكرة واضحة عن غنى اللِّيتورجيَّة الأسبانيَّة القديمة، والتي حلَّ محلّها نهائياً اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة حسب طقس البابا غريغوريوس السَّابع في نهاية القرن الحادي عشر، عندما استعاد المسيحيون أسبانيا من العرب، وأدخل الرُّهبان الكولونيون[٢٢] Cluniac Monks اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة، وفرضوها على الطَّقس الأسباني القديم. وهكذا تضافرت جهود العرب وروما معاً على طمس معالم اللِّيتورجيَّة الأسبانيَّة القديمة.

٢٢- هم رهبان من دير كولوني Cluny ، وهو أشهر وأكبر دير في الغرب. تأسَّس سنة ٩١٠م، وكانت كنيسته التي شُيدت في القرن الثاني عشر أكبر بازيليكا في أوروبا على الإطلاق. وقد تهدَّم أثناء الثورة الفرنسيَّة سنة ١٧٨٩م.

ولدينا مخطوطات قديمة، خصوصاً من القرن العاشر والحادي عشر الميلاديين، وقد طُبع منها عدد كبير، تشهد أن هذه اللِّيتورجيَّة الأسبانيَّة القديمة لم تنشأ خلال فترة الاحتلال العربي لأسبانيا (٧١٢-١٠٨٥م)، ولكنها تنظَّمت وتوحَّدت في عصر الغوط الغربيين L'époque Wisigothique كما تشهد بذلك المجامع الغربيَّة. إلاَّ أن التَّاريخ المبكِّر لهذا الطَّقس مُبهم للغاية، ووردت عنه إشارة سنة ٦٣٣م، في مجمع طُليطله الرَّابع.

وهناك تأثيرات شرقيَّة قويَّة على هذه اللِّيتورجيَّة منذ القرن السَّابع، أعطتها سمتها الخاصة، غير أنها من أصل مختلف تماماً عن اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة. فهي لا تحوي طقساً ثابتاً، لكنها تتكوَّن من أجزاء متحرِّكة أو متغيِّرة يتجمَّع معظمها حول صلوات رواية التَّأسيس.

وأهم ملامح هذه اللِّيتورجيَّة هي أن لها ثلاثة فصول تُقرأ أثناء قدَّاس الكلمة: الأوَّل؛ النبوَّة وهي عادة من العهد القديم. الثَّاني؛ رسالة من رسائل العهد الجديد. والثَّالث؛ فصل من الإنجيل.

وقد حفظ هذا الطَّقس تسريح الموعوظين والتائبين قبل بداية قدَّاس المؤمنين. وله في طقس التسريح لحن يُسمَّى Sacrificium تعقبه صلاتان، الأولى تُسمَّى Missa ، والأخرى تُدعى Alia . الصَّلاة الأولى من هاتين الصَّلاتين توصف بأنها صلاة تنبيهيَّة أو تحذيريَّة oratio admonitionis توجَّه إلى الشَّعب لتنهض همَّته للصَّلاة بغيرة وانتباه. أما الصَّلاة الثَّانية فهي مقدِّمة القدَّاس Preface ، وتتغيَّر صيغتها في كل قدَّاس، وهي طويلة متقَنة. أما الصَّلاة التي تُسمى post pridie فهي شكل من أشكال صلوات الاستدعاء epiclesis . والقسمة في هذه اللِّيتورجيَّة تقسم القُدسات إلى سبعة أو تسعة أجزاء، طبقاً لطقس الكاردينال إكسيميز Ximénès ، وهذه الأقسام تمثل مراحل حياة المسيح، ووُجدت هذه الممارسة بعينها

أيضاً في الطَّقس السِّلتي Celtic Rite الذي تمارسه كنيسة أيرلندا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين. ولأن كتب الصَّلوات الأيرلنديَّة تحوي كثيراً من الاستعارات من الطَّقس الموزارابي، فقد اعتقد كثير من العُلماء أن الطَّقس السِّلتي في كنيسة أيرلندا قد استعار مباشرة من الطَّقس الموزارابي لكنيسة أسبانيا.

ولقد كُتبت صلوات اللِّيتورجيَّة الأسبانيَّة القديمة بإسهاب، وفي أسلوب غني. والصَّلوات الكهنوتيَّة الموجَّهة فيها إلى السيِّد المسيح كثيرة، على عكس طقس روما الذي يندر فيه هذا النَّوع من الصَّلوات والذي أُضيف في عصور متأخِّرة. ومخطوطات القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين قد حفظت لنا جانباً كبيراً من السِّمات الأساسيَّة لليتورجيَّة الأسبانيَّة كما كانت تُمارس في القرن السَّابع الميلادي. وفي المقابل نجد في كتب الصَّلوات الأسبانيَّة أجزاء منقولة من كتب الصَّلوات الرُّومانيَّة، ولكن بعد إعادة صياغتها.

وقد مارست اللِّيتورجيَّة الموزارابيَّة تأثيراً قوياً على ليتورجيَّة الغال[٢٣]؛ وعن طريق الطَّقس الغالي، دخلت بعض الصَّلوات على اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة في العصور الوسطى.

وفي العصر الحديث، تُبذل محاولات جادة لإعادة إدخال ممارسات الطَّقس الموزارابي في الخدمات الكنسية الغربيَّة، أما اللِّيتورجيَّة الخاصة بهذا الطَّقس فقد استُخدمت بالفعل في الصَّلوات التي مارستها الكنيسة الغربيَّة أثناء فترة انعقاد مجمع الفاتيكان الثَّاني.

٢٣- الجزء الجنوبي الغربي من بلاد الغال كان جزءاً من مملكة الغوط الغربيين. وقد حافظت هذه المملكة على هذه اللِّيتورجيَّة الموزارابيَّة أو الغوطيَّة إلى الوقت الذي حلت فيه اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة محلها في نهاية القرن الحادي عشر.

(٤) الطّقس الغالي

كان هناك جدل طويل بخصوص تحديد أصل هذا الطّقس، وهو طقس قديم تنتمي إليه عادة الأربعة أنواع من الطّقوس الغربيّة، وهي طقوس كنائس روما، وميلان، وأسبانيا، وأيرلندا. على الرّغم من أن هذه الطّقوس مستقلّة عن بعضها البعض، باستثناء الطّقس الموزارابي، وهو طقس أسبانيا القديم كما يرجح ذلك بعض العلماء.

ويُستخدم تعبير "طقس الغال" ليشير إلى ثلاثة معاني:

- الأشكال اللّيتورجيّة التي استُخدمت في بلاد الغال Gaul قبل أن يُفرض فيها طقس روما بواسطة الإمبراطور شارلمان في بداية القرن التاسع.
- ويعني عموماً كل الطّقوس التي كانت تُمارس في كنيسة الغرب في العصور المبكّرة، باستثناء طقس روما.
- اللّيتورجيّات الحديثة للطقس الغالي التي عُرفت في القرنين السّابع عشر والثامن عشر، والتي تتبع الأشكال اللّيتورجيّة للطقس الغالي القديم.

ولسنا نعرف بالتّحديد لماذا اختلفت طقوس شمال إيطاليا والغال وأسبانيا وأيرلندا عن طقس روما في العصور المبكّرة من تاريخ الكنيسة. فحتى علماء الطّقوس أنفسهم لم يتّفقوا على العلاقة التي تربط هذه الطّقوس ببعضها البعض. ولقد قُدّمت في ذلك بعض الآراء منها:

- تقول نظريّة قديمة إن الطّقوس غير الرّومانيّة تعود أصولها الأولى إلى أصل رسولي في أفسس[٢٤]. ومن هنا فقد انتشرت هذه

٢٤- أفسس: ميناء على شاطئ آسيا الصّغرى. خضعت لروما سنة ١٣٣ق.م، وكانت تحتل مكان الصّدارة بين مدن آسيا. ومن أهم معالمها معبد أرطاميس الذي كان يُعتبر إحدى عجائب العالم القديم. وصارت أفسس مركزاً رئيسياً للمسيحيّة بعد

الطُّقوس في الغرب عن طريق ليون(٢٥). أما الاعتراض الذي يـدحض هذه النظريَّة ولا يمكن التغلُّب عليه فقد أتى به "لويس دوشسن(٢٦) - Louis Duchesne" (١٨٤٣-١٩٢٢م)، فقال: إنه لا يوجد طقس في القرن الثَّاني الميلادي يمكن أن ينتشر انتشاراً سريعاً بهـذا الشَّـكل، ويعتمد أيضاً على التَّقويم الكنسي اللِّيتورجي أو الطَّقسـي calender مثلما كان معروفاً عن طقس الغال.

- قال آخرون مثل الأب كاجين Dom P. Cagin إن هذا النَّوع مـن الطُّقوس غير الرُّومانيَّة يمثِّل طقس روما في وضعه البدائي الأوَّلي. وتفترض هذه النظريَّة - بدون أي شواهد أو إثباتات - أن طقس روما قد حُفظ في شكله الحالي تحت تأثير البابا داماسوس Damasus حوالي سنة ٣٨٤م.

- هناك نظريَّة ثالثة أكثر شمولاً، لاقت في البداية قبولاً واسعاً، وهي للأب دوشسن السَّابق ذكره، يقول فيها: إن الليتورجيَّـات أتـت مـن ميلان، وفي غضون القرن الرَّابع والخامس الميلاديين كان لها تأثير ونفـوذ

أن أقام بها القدِّيس يوحنا الحبيب مع السيِّدة العذراء حتى قرب نياحتها. وقد زارهـا القدِّيس بولس الرَّسول وكتب إليها إحدى رسائله.

٢٥- ليون: أهم مدن صناعة الحرير في أوروبا، وهي عاصمة قسم الرون، شـرق وسط فرنسا، وقد أنشأت المدينة كمستعمرة رومانية سنة ٤٣ق.م، ثم أصبحت أهـم مدن بلاد الغال، ومهد المسيحيَّة في فرنسا. وقد ظل يحكمها أسـاقفتها حـتى سـنة ١٣٠٧م، حينما ضمها فيليب الرابع مع المنطقة المحيطة بها إلى أملاك التاج الفرنسـي. ومن أشهر أساقفتها القدِّيس أمبروسيوس أسقف ميلان.

٢٦- مؤرخ كنسي فرنسي رُسم كاهناً سنة ١٨٦٧م، واستكمل دراساته اللاهوتيَّـة في روما، وسافر لهذا الغرض إلى اليونان وآسيا الصُّغرى. وفي سنة ١٨٧٧م، عُين أستاذاً للتاريخ الكنسي في المعهد الكاثوليكي بباريس، ومنذ سنة ١٨٩٥م، وحتى وفاتـه صـار مـديراً للمدرسة الفرنسيَّة في روما. وفي سنة ١٩١٠م، أصبح عضواً في الأكاديمية الفرنسيَّة.

واسعٌ. ولكن هذه النظريَّة لم تعد مقبولة منذ أن بحث العالم كونوللي[٢٧] R.H. Connolly عمن يكون مؤلِّف كتاب "الأسرار – De sacramentis[٢٨]" وتوصَّل إلى أنه هو القدِّيس أمبروسيوس أسقف ميلان. وهو الكتاب الذي يحوي بعضاً من طقوس روما Roman Canon .

– وربما تكون وجهة النَّظر الأكثر قبولاً الآن هي أن الطَّقس الغالي نشأ أصلاً في موطنه "الغال"، ثم تطور بإضافة مقدِّمة ذات صلوات متغيِّرة تناسب كل منها التَّقويم الكنسي الطَّقسي Calender . أما أقدم

٢٧– عالم آبائي، اسمه بالكامل ريتشارد هوف كونوللي (١٨٧٣–١٩٤٨م)، وقد تخصَّص في آباء الكنيسة الذين كتبوا منذ نهاية القرن الأوَّل المسيحي – وهو الوقت الذي اكتمل فيه تقريباً تسجيل كتاب العهد الجديد – وحتى نهاية القرن الثامن الميلادي. وهي الفترة التي يسميها الغرب "زمن الآباء – patristic period ". ومن أهم إنجازاته العلميَّة، تحقيق كتاب "التَّقليد الرَّسولي لهيبوليتس"، والذي عُرف باسم "الترتيب الكنسي المصري – Egyptian Church Order " سنة ١٩١٦م، وكتاب "الدِّسقوليَّة" أي "تعاليم الرُّسُل – Didascalia Apostolorum " سنة ١٩٢٩م، وفي سنة ١٩٤٢م، أثبت نسبة كتاب "الأسرار – De Sacramentis " للقدِّيس أمبروسيوس أسقف ميلان. وله عدة مقالات في مجلة الدِّراسات اللاهوتيَّة Journal of Theological Studies من بينها بعض المقالات الهامة عن "الدِّيداخي".

٢٨– هو مقالة ليتورجيَّة قصيرة عن الأسرار، للقدِّيس أمبروسيوس (+ ٣٩٧م)، تشتمل على ستة فصول، وهي موجهة للمعمَّدين الجدد في أسبوع الفصح، وتعالج موضوعات المعموديَّة، والميرون، والإفخارستيَّا. وتعود أهميتها الفريدة إلى أنه أقدم شهادة عن طقس روما، وتثبت تأثير طقس روما على طقوس شمال إيطاليا. ويؤكد القدِّيس أمبروسيوس على أن كلمة "المسيح" تقدِّس الإفخارستيَّا، والتي يدعوها "تقدمة غير دمويَّة". وكان بعض العلماء أمثال تليمونت N. Tillemont وشيرمان T. Schermann قد نسبوا الكتاب إلى مكسيموس أسقف تورين Maximus of Turin (٤٥١–٤٦٥م). وتورين؛ مدينة تقع شمال غرب إيطاليا، كانت عاصمة لإيطاليا في الفترة من سنة ١٨٦١ ١٨٦٤م، وبها كاتدرائية تعود إلى عصر النهضة، وتأسَّست بها جامعة سنة ١٤٠٥م، وكان يُظن أن بها كفن السيِّد المسيح الذي كفن به في القبر، لكن العلماء قد أثبتوا عدم صحة هذا الزَّعم.

شاهد لهذه النظريَّة فيأتينا من مؤلِّف جناديوس الذي من مارسيل[٢٩] Genadius of Marseilles سنة ٤٥٠م، والذي أورد اختياراً للقراءات lections والمردَّات responsories التي تناسب أيام الأعياد. وتحوي كما قيِّماً من القدَّاسات المقسَّمة إلى فصول لتناسب تنوع الخدمات الكنسيَّة offices والفصول الكنسيَّة seasons .

وتأليف القدَّاسات هو عمل أدبي نبع من الغال وأسبانيا، وكثير من هذه القدَّاسات يعود إلى مؤلِّف عاش في القرن الخامس هو سيدونيوس أبولليناريس[٣٠] Sidonius Apollinaris (٤٢٣-٤٨٠م).

أما كتب القدَّاس الغالي Mass books والتي لازالت موجودة حتى الآن، فلا ترجع لأبعد من القرن الثامن الميلادي، وقد أُقحم عليها

٢٩- كاهن ومؤرخ كنسي، وعمله الرئيسي الذي خلده هو إكماله لكتاب جيروم "مشاهير الرجال" Viris Illustribus والذي أكمله في سنة ٤٨٠م، ويحوي ١٠١ ملاحظة لمؤلفين كنسيين من الشَّرق والغرب، أكثرهم من القرن الخامس الميلادي. وهو في معتقده كان نصف بلاجي semipelagian .

٣٠- هو أسقف مدينة كليرمون Clérmont وتُسمّى أيضاً فيران، وتقع شمال شرق فرنسا، وترجع في تاريخها إلى العصر الروماني، أعلن فيها البابا إربان الثاني عن الحروب الصليبية لأوَّل مرة. تزوج هذا الأسقف ابنة الإمبراطور أفيتوس Avitus (٤٥٥-٤٥٦م) في بدء حياته، واشترك في العمل السياسي وفي سنة ٤٦٩م، أُختير أسقفاً لكليرمون ليدافع عن المدينة ضد الغوط. وله كثير من العظات والأشعار الغزيرة. أنعم كثيراً على الرُّهبان ووزَّع عليهم كثيراً من ثروته. ولكن بجهوداته لم تمنع الغوط الغربيين من احتلال كليرمون سنة ٤٧٥م، حيث أُقصي عن منصبه وسُجن، ثم أُفرج عنه سنة ٤٧٦م، وأُعيد إلى خدمته، فقضى بقية حياته في تجميع رسائله التي كتبها. ولا زالت ٢٤ قصيدة من مجموع أشعاره موجودة حتى اليوم تُظهر مدى موهبته. أما عن رسائله، فبرغم أنها لا تحوي عمقاً لاهوتياً كبيراً، إلاَّ أنها تُعتبر مصدراً مهماً للتعرُّف على زمنه الذي عاش فيه. أما صلواته الإفخارستيَّة التي جمعها القدِّيس غريغوريوس أسقف تورس فقد ضاعت كلها. وهو يُكرَّم في بلاد الغال كقديس، وتعيِّد له الكنيسة هناك في ٢١ أغسطس من كل سنة.

طقس روما في أجزاء منها، باستثناء أحد عشر قداساً تعود إلى القرن السَّابع الميلادي، وتُعرف في الأوساط العلميَّة باسم "قدَّاسات مون[٣١] - Mone Masses"، حيث نشرها العالم مون، وهي قدَّاسات من أصل غالي نقي لم يؤثِّر طقس روما عليها، ويغيب فيها أي ذكر لأي دورة ليتورجيَّة للأعياد الكنسيَّة.

أما قداسات الطَّقس الغالي الحاليَّة، فهي قدَّاسات طويلة مسهبة، تأتي في صيغة خطابية، خلافاً لصيغة قدَّاس روما الصَّارمة auster form . وحتى بنية الصَّلوات في الطَّقس الغالي تختلف عن طقس روما أيضاً. وفي المقابل فإن بعض خواص الطَّقس الغالي نجدها موجودة في الطَّقس الموزارابي، والطَّقس السَّلتي، وحتى الطَّقس الأمبروزي أيضاً.

أما المميزات التي يتميَّز بها الطَّقس الغالي فهي:

أولاً: القدَّاس

(أ) الثَّلاثة تقديسات تُرتَّل بالتَّتابع باليونانيَّة ثم باللاتينيَّة مرَّة قبل ترتيل كيرياليسون، ومرَّة ثانية قبل قراءة فصل الإنجيل، ومرَّة ثالثة بعد قراءة الإنجيل. أي أن الثَّلاثة تقديسات تُرتل في القدَّاس الغالي على ثلاث دفعات، كل دفعة مرَّتين واحدة باليونانيَّة والأخرى باللاتينيَّة.

(ب) تسبحة زكريا الكاهن Benedictus (لوقا ١:٦٨-٧٩) وتقال بعد ترتيل كيرياليسون التي تُرتَّل في هذا الطَّقس ثلاث مرَّات. أما تسبحة الثلاثة فتية القدِّيسين في أتون النَّار Benedicite فهي تُرتَّل بعد قراءة فصل من العهد القديم.

(ج) قراءة الذِّبتيخا Diptychs وكذلك قُبلة السَّلام تأتيان كلتاهما

٣١- هو فرانز جوزيف مون Franz Joseph Mone (١٧٩٦-١٨٧١م)، وهو مؤرخ وعالم ليتورجي ألماني، وله كتاب جمع فيه ألحان العصور الوسطى.

قبل قانون القدَّاس[٣٢]، والذي يأتي مباشرة قبل رواية التَّأسيس Institution .

(د) قانون القدَّاس (باستثناء رواية التَّأسيس) يتغيَّر مع تغيُّر المناسبات الكنسيَّة ومواسمها.

(هـ) رواية التَّأسيس في كثير من القدَّاسات الغاليَّة الموجودة الآن تُتبع بصلاة Post Pridie والتي هي شكل من أشكال صلوات الاستدعاء Epiclesis .

(و) تبدأ القسمة مصحوبة بترتيل الأنتيفونا[٣٣] المصاحبة لها قبل الصَّلاة الربانيَّة "أبانا الذي في السَّموات ..." Paternoster .

(ز) يُرتَّل لحن للثَّالوث القدُّوس أثناء التَّناول من الأسرار المقدَّسة يُسمَّى Trecanum أي القانون الثلاثي triple canon (من الكلمة اليونانيَّة τρικάνων). ويدور اللَّحن حول معنى الإيمان بالثالوث القدُّوس[٣٤].

٣٢- قانون القدَّاس Canon of the mass: هو اصطلاح ليتورجي من الكلمة اليونانية κανών أي قانون أو نظام لا يتغيَّر. وهذا الجزء من الليتورجيا موجود في جميع القدَّاسات اليونانيَّة واللاتينيَّة، وهو دائماً يشتمل على كلمات التأسيس (باستثناء ليتورجيَّة أدي وماري)، وصيغته متشابهة في كافة القدَّاسات منذ القرن الرابع الميلادي. وقد ذكرة القدِّيس أمبروسيوس (+ ٣٩٧م) في مؤلفه "الأسرار - De sacramentis "، وهو يأتي في القدَّاس بعد المقدمة، وبعد "قدوس - Sanctus ". وظل محتفظاً بأصالته في القدَّاسات الشَّرقيَّة، ولكنه تعرَّض لتغييرات مؤلمة في القدَّاس الغربي بدءاً من البابا غريغوريوس الكبير (٥٩٠-٦٠٤م) الذي أدخل عليه تعديلات حتى وصل به الحال إلى أنه أصبح يُصلىّ سراً باستثناء جزء بسيط منه، وذلك في الفترة من سنة ٨٠٠ - ١٩٦٧م. ثم سُمح بترتيله بصوت مسموع اعتباراً من سنة ١٩٦٧م. وفي سنة ١٩٦٩م، حل محله صيغة أخرى مشابهة، وأصبح مسموحاً بحذف أجزاء أخرى منه!!.

٣٣- عن أي مصطلحات كنسيَّة، انظر للمؤلف: "معجم المصطلحات الكنسيَّة".

٣٤- وُجد اسم هذا اللَّحن عند القدِّيس جرمانوس من باريس (٣٧٨-٤٤٨م)، وكان حاكماً لجزء من بلاد الغال قبل أن يصبح أسقفاً لإيبارشية أوكسر Axerre سنة ٤١٨م.

ثانياً: المعموديَّة: الأمر الجدير بالاعتبار في الطَّقس الغالي، والذي يختلف عن طقس روما، أن "الاعتراف بالإيمان" يأتي قبل ممارسة التَّعميد بالماء، إضافة إلى طقس "غسل الأرجل - pedilavium".

ثالثاً: طقوس الرِّسامات: يشتمل الطَّقس الغالي على مراسيم عامة public ceremony لرسامة الرُّتب الصُّغرى minor orders استعارها طقس روما من الطَّقس الغالي. ويمكننا القول أن الطَّقس الغالي قد أثَّر على طقس روما في الرِّسامات الكهنوتيَّة.

إن الطَّقس الغالي الذي اختلط بالطَّقس الرُّوماني في بعض المناطق إبّان فترة حُكم بيبين الثالث pepin III (٧١٤-٧٦٨م)، وأُلغي رسمياً بواسطة ابنه الإمبراطور شارلمان، لم يندثر تماماً، بل ظل طقس روما الحالي يحمل سمات امتزاجه مع الطَّقس الغالي.

ليتورجية بلاد الغال

لا نعرف عنها سوى القليل، لأنها لم تعش حتى زمن التَّجديد الذي أجراه شارلمان، ولم يكن لها سوى تنظيم بدائي. ويمكننا تكوين فكرة عن هذه اللِّيتورجيَّة من الإشارات التي وردت عنها في عظات القدِّيس سيزر من آرل César d'Arles وغريغوريوس الذي من تور Grégoire de Tours من القرن السَّادس. وكذلك من بعض المجامع. بالإضافة إلى تفسير القدَّاس الغالي، والمنسوب خطأً إلى القدِّيس جرمان Germain من باريس، والذي يعطينا وصفاً لشكل متأخر لهذه اللِّيتورجيَّة، يعود إلى القرن الثامن الميلادي، أو على الأكثر نهاية السَّابع الميلادي. ولدينا كتب قراءات لهذه اللِّيتورجيَّة، ولكنها غير متكاملة. أما كتب الصَّلوات الخاصة بهذا الطَّقس فقد تأثرت هي الأخرى باللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة والطَّقس الروماني.

أما من جهة بنية هذه اللِّيتورجيَّة الغاليَّة، فهي ذات علاقة وطيدة بليتورجيَّة أسبانيا القديمة. فالصَّلاة الكهنوتيَّة المطوَّلة مكوَّنة من أقسام متغيِّرة كما في القدَّاس الموزارابي. وطبقاً لوثائق تعود إلى القرن السَّابع أو الثامن الميلادي، فإن هذه اللِّيتورجيَّة الغالية قد تأثَّرت بالتَّساوي - كما في اللِّيتورجيَّة الموزارابيَّة - بالاستخدامات والممارسات الشَّرقيَّة، وخاصة الطَّقس السِّرياني. وليتورجيَّة ميلان لا تمت بأي صلة إلى أصل شرقي كما ظن بعض العُلماء سابقاً[٣٥].

(٥) الطَّقس السِّلتي

والطَّقس السِّلتي Celtic Rite هو الطَّقس المستخدم في كنيسة أيرلندا واسكتلندا. وقد انتشر هناك بواسطة الرُّهبان في هذا المناطق. وهو يشتمل على مزيج متجانس من عناصر أجنبيَّة. أما الوثائق القديمة المختصة به فتعود إلى نهاية القرن السَّابع الميلادي.

والكنيسة السِّلتية Celtic Church نعني بها الكنيسة التي كانت موجودة فعلاً في الجزر البريطانيَّة قبل رسالة القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) إليها من روما، والتي كتبها حوالي سنة ٣٩٦م. وقد نشأت هذه الكنيسة في غضون القرن الثاني أو الثَّالث الميلادي تقريباً بواسطة إرساليَّات وفدت إليها من روما أو بلاد الغال. وفي غضون القرن الرَّابع الميلادي كانت بنية الكنيسة السِّلتيَّة قد اكتملت وتنظَّمت، وكان لها أساقفة يمثلونها في مجامع كنسية عُقدت في القرن الرَّابع الميلادي، مثل مجمع آرل Arles الذي عُقد سنة ٣١٤م، ومجمع أرمينيم Arminum سنة ٣٥٩م.

٣٥- مثل العالم دوشسن Mgr Duchesne والذي لاقت نظريته هذه قبولاً واسعاً في أوائل القرن العشرين. (Cf. ODCC, 2nd edition, p. 43)

وكانت البدعة البلاجيَّة Pelagianism قد انتشرت في بريطانيا في غضـــون القرن الرَّابع الميلادي. وعندما دخلت القبائل السَّاكســونيَّة[٣٦] الجُـــزر البريطانيَّة، طمست معالم الحضارة السِّلتيَّة، وبالتالي الكنيسة السِّلتيَّة أيضاً. ولقد وجد المسيحيون من أصل سلتي صعوبة في قبول المسيحيَّة الرُّومانيَّة التي دعاهم إليها أغسطينوس أسقف كانتربري[٣٧] سنة ٦٠٣م، ولكنـــهم وافقوا فيما بعد حوالي سنة ٦٦٤م، وتبنَّت بالفعل كنـــائس اســـكتلندا، وأيرلنَدا، وويلز الممارسات الطَّقسيَّة الرُّومانيَّة.

وإلى جانب هذه الطُّقوس الغربيَّة الرَّئيسيَّة، فقد ازدهـــرت طقـــوس أخرى مثل "طقس أكويلا – Aquileia Rite"، وأيضاً "طقس بنيفنتـــو Benevento Rite".

٣٦– الساكسون: شعب جرماني عرفهم التاريخ لأول مرة في القرن الثاني الميلادي عندما ذكرهم بطليموس الجغرافي. وأظهروا نشاطاً في غاراتهم على طول سواحل بحر الشمال في القرنين الثالث والرابع. أغاروا على المناطق الرومانية، واصطدموا بالفرنجة. وسُمي شـــاطئ بريطانيا الجنوبي الغربي، مع الشاطئ الشمالي لبلاد الغال بالشواطئ الساكسونيَّة. وعنـــدما ضعف الاحتلال الروماني لبريطانيا، استوطن جماعات منهم مع جيرانهم الإنجليز، وعُرفـــوا باسم المملكة الأنجلوساكسونيَّة، وأصبح لهـــا طقـــس مميـــز يُعـــرف باســـم الطَّقـــس الأنجلوساكسوني، وقد أورد جانباً منه المؤرخ ألفريد بتلر، في كتابه "الكنائس القبطية القديمة في مصر – Ancient Coptic Churches in Egypt". واحتل الساكسون الجزء الشمالي الغربي من ألمانيا، وانتهت نزاعاتهم الكبيرة مع الفرنجة عندما غزاهم شارلمان في مستهل القرن التاسع الميلادي، وضمّهم إلى إمبراطوريته، وتحولـــوا مـــن الوثنيـــة إلى المسيحيَّة. وعند تقسيم الإمبراطورية في معاهدة فردان سنة ٨٤٣م، دخلـــت أراضـــي الساكسون في القسم الذي كوّن بداية ألمانيا الحديثة.

37- ODCC, 2nd edition, p. 108.

الفَصل الرَّابع

دراســـــة عامـــــــة
عن النُّصـــوص اللِّيتورجيَّة

تمهيد

نعرض في هذا الفَصل للصّلوات اللّيتورجيَّة بوجه عام، وعلى رأسها ليتورجيَّة القدَّاس الإلهي، لا من أجل دراسة عن القدَّاس - تلك التي سيأتي أوانها لاحقاً - بل للتَّعريف بأنواع اللّيتورجيَّات في بعض الطّقوس المختلفة، وأشكالها، وتداخلاتها، وأساليبها، وقوانين تطورها، وأهميَّة دراستها في التَّقاليد المختلفة.

لقد نال الاحتفال اللّيتورجي بسر الخلاص على مر العصور جُلّ اهتمام الكنيسة المسيحيَّة. وكان العشاء الأخير الذي أكمله الرَّب يسوع مع رسله القدّيسين، هو نقطة البداية في ظهور العائلات اللّيتورجيَّة المختلفة شرقاً وغرباً. وبالرَّغم من بساطة ما تمّ في هذا العشاء الأخير كما ذَكَر الإنجيل المقدَّس، إلاّ أن العُمق والغنى اللذين حملتهما هذه البساطة، وأشتمل عليهما هذا السِّر، كانا سبباً في هذا التنوُّع اللّيتورجي بين الكنائس المختلفة، مما أضفى على السِّر المقدَّس مع الزَّمن رونقاً مبدعاً. وفي الحقيقة فإنه حتى القرن الرَّابع الميلادي، لم تكن هناك لكل عائلة ليتورجيَّة طقس ليتورجي خاص يستطيع أن يميِّزها عن غيرها بطريقة واضحة.

فلقد كان الشّكل الأساسي لطقس الإفخارستيَّا يعود إلى الأفعال الأربعة الأساسيَّة التي تمّمها السيِّد الرَّب في العشاء الأخير عندما:

- أخذ خبزاً (التَّقدمة - Offertory).
- وبارك (التَّقديس - Consecration).
- وكسر (القسمة - Fraction).
- وأعطاه (التَّناول - Communion).

ومنذ عصر يوستينوس الشَّهيد (١٠٠- ١٦٥م)، كانت بعض الكنائس تمارس عناصر أخرى تالية للإفخارستيًا مثل مائدة الأغابي، والتي حوت هي الأخرى هذه الأفعال الأربعة السَّابق ذكرها[١].

أولاً: بداية تنوع الطُّقوس واللِّيتورجيَّات

نشأت اللِّيتورجيَّات وتطوَّرت ولم تكتسب وجهها الثابت إلاَّ بعد زمن طويل. ففي البدء كانت هناك حريَّة كبيرة في إقامة الشَّعائر الدِّينيَّة، ولم يكن مشتركاً بين الكنائس سوى البنية الأساسيَّة للصَّلاة، وجوهر المعاني، كما توارثها المسيحيُّون عن الجماعة الأولى في أورشليم. ثم شيئاً فشيئاً نشأت في المدن أساليب عبادة ونصوص صلاة تداولها النَّاس فشاعت حتى أصبحت سنناً وعوائد لم تلبث أن تحوَّلت إلى شرائع وقوانين.

إن الثلاثة قرون الأولى لا تعطينا شواهد كافية نستدل منها على مراحل نمو الطَّقس اللِّيتورجي، لأن ندرة المصادر تضعنا أمام صعوبات جمَّة، ولكن كان القرن الثَّالث هو الوقت الذي بدأت فيه اللِّيتورجيَّات في النمو رويداً رويداً لتأخذ كل منها، وعلى مدى الزَّمن الطَّويل، شكلها المحدَّد والمميَّز. ومع ازدياد أعداد المؤمنين بعد منشور التَّسامح القسطنطيني سنة ٣١٢م، كان من الضَّروري أن يتوفَّر تنظيم عام يشجِّع على إقامة شكل ليتورجي موحَّد لكل جماعة مسيحيَّة. ولقد سبَّب ظهور البدعة الأريوسيَّة بالإضافة إلى ظهور كتابات الأبوكريفا، أن اتجهت الكنائس إلى تحديد شكل ليتورجي قويم يحميها من الانحراف. وتداخلت هذه العوامل بشدة مع عوامل أخرى ظهرت في القرن الرَّابع الميلادي مثل ظهور مراكز كنسيَّة ذات سيادة، أصبحت هي الكنائس الأم التي التأمت حولها مجموعة

1- New Catholic Encyclopedia (NCE), vol. 8, p. 910.

من الكنائس، حيث أصبحت الكنيسة الأم بالنسبة لهذه الكنائس مصدراً للتَّعليم والتَّنظيم والتَّشريع.

هذه المراكز الكنسيَّة، والتي أصبحت هي بذاتها الكنائس الكاتدارئيَّة التي يقيم فيها كبير الأساقفة، أو البطريرك كما عُرف فيما بعد، سُميت الإيبارشيَّات البطريركيَّة أو الأسقفيَّة، وأضحت كل منها مركزاً لطقوس ليتورجيَّة خاصة بها تميِّزها عن غيرها من المراكز الأسقفيَّة الأخرى. ثم صار الاتجاه إلى تجميع وتسجيل هذه الطُّقوس فظهرت الكتب اللِّيتورجيَّة. فحلَّت النُّصوص اللِّيتورجيَّة المسجَّلة أو المكتوبة محل الصَّلوات اللِّيتورجيَّة المرتجلة. فصار من السَّهل اليسير استعارة هذه النُّصوص بين كنيسة وأخرى. وتمكَّنت الكنيسة الأم بما لها من سيادة على الكنائس التَّابعة لها أن تفرض نصوص صلواتها عليها. وهكذا أصبحت كتب الصَّلوات اللِّيتورجيَّة سبباً واضحاً لظهور التَّشابه أو التَّمايز الطَّقسي بين الكنائس؛ أي التَّشابه uniformity بين الكنائس التي استخدمت نفس الكُتُب اللِّيتورجيَّة، والتَّمايز مع كنائس أخرى تبنَّت نصوصاً أخرى.

وقد دلَّ علم أصول الطَّقس المقارن على قاعدة لا نزاع عليها بين العُلماء، وهي أن جميع القدَّاسات نشأت من أصل واحد، وساد هذا الأصل جميع الكنائس في بادئ الأمر، ثم أضافت كل كنيسة على مر الأيام أجزاء جديدة مختلفة، وصلوات متنوعة مع الحفاظ على العناصر الأصليَّة. من جهة أخرى كان لبعض الكنائس تأثير على طقوس الكنائس الأخرى، فحدث التَّبادل بين الطُّقوس والذي أفضى إلى أن تكونت أخيراً، وفي أوقات لا يمكن تحديدها بالضَّبط صورٌ ثابتة للقدَّاسات، يختلف بعضها عن بعض.

ثانياً: تقسيم اللِّيتورجيَّات

برغم أنه لا يمكننا إغفال عوامل اللُّغة والعقيدة والقوميَّة كعوامل ساعدت على ظهور العائلات اللِّيتورجيَّة المختلفة، إلاَّ أنها لم تكن هي العوامل الأساسيَّة في نشأة هذه العائلات اللِّيتورجيَّة. وإنما كانت الأسباب الجغرافية والسياسيَّة متداخلة معاً سبباً رئيسياً في ظهورها.

وحتى لو أخذنا تقسيم العائلات اللِّيتورجيَّة من وجهة نظر تاريخيَّة بحتة، سنجد الأمر مختلفاً تماماً عما نراه في الوضع الحالي. ولكن مع ذلك فلا يمكننا إغفال العامل التَّاريخي في تقسيم العائلات اللِّيتورجيَّة. فعلى سبيل المثال، إذا نظرنا إلى الطَّقس البيزنطي من وجهة نظر تاريخيَّة، فلن نجده سوى أحد مظاهر تطور الطَّقس الأنطاكي، أو اللِّيتورجيَّة الأنطاكيَّة، أما إذا نظرنا إليه بوضعه الرَّاهن بعد أن عبر على مراحل زمنيَّة طويلة تطوَّر خلالها كثيراً، فسوف نراه طقساً مستقلاً قائماً بذاته، بل ومن أكثر الطُّقوس الشَّرقيَّة تأثيراً على غيره من الطُّقوس.

وإن التَّقسيم العام للعائلات اللِّيتورجيَّة هو نفس التَّقسيم الجغرافي للعالم القديم "الشَّرق والغرب".

ويرى العالم دوشسن Duchesne أن كل اللِّيتورجيَّات المعروفة يمكن أن تندرج تحت واحد من أربعة أشكال أصلية:

١- اللِّيتورجيَّة الأنطاكيَّة.
٢- اللِّيتورجيَّة الإسكندرانيَّة.
٣- اللِّيتورجيَّة الرُّومانيَّة.
٤- اللِّيتورجيَّة الغاليَّة.

وتُقسَّم اللِّيتورجيَّات الشَّرقيَّة عادة إلى مجموعتين رئيسيتين – كما ذكرنا من قبل في أنواع الطُّقوس الشَّرقيَّة – المجموعة الأنطاكية،

والمجموعة الإسكندرانيَّة.

١ – اللِّيتورجيَّة الأنطاكيَّة

ليتورجيَّات المجموعة الأنطاكيَّة تُقسَّم بدورها إلى فرعين:

الفرع الأوَّل: يشمل كنائس سوريا، ولبنان، وبلاد ما بين النَّهرين، وهو ذو تقليد مسيحي نشأ من أصل يهودي.

الفرع الثَّاني: يشمل كنائس آسيا الصغرى، وأرمينيـــا، ذو تقليـــد مسيحي نشأ من أصل يوناني.

(أ) التَّقليد السوري ذو الأصل اليهودي

تركَّز في إديسا (الرَّها)، وعُرف باسم الطَّقس السِّرياني الشَّرقي، وهو الطَّقس الذي يقع في بلاد مابين النَّهرين في الإمبراطوريَّة الفارسيَّة. فلـم تكن الكنائس التي تبعت هذا الطَّقس خاضعة للإمبراطوريَّـــة الرُّومانيَّـــة. وهذه اللِّيتورجيَّة التي نشأت في إديسا ظلَّت تفخر بميراثها الذي احتفظت فيه بكثير من السِّمات السَّامية، مع تأثرها قليلاً بالسِّـمات اليونانيـــة أو الهيلينيَّة. فقد ارتبط تقليدها ارتباطاً وثيقاً بحياة الشَّركة الأولى التي عرفناها بين جماعة الرُّسُل والتلاميذ في أورشليم. علـى أن الحـروب الرُّومانيَّـــة الفارسيَّة قد محت كثيراً من الوثائق القديمة لهذه اللِّيتورجيَّة. وقد وصل إلينا جانبٌ كبيرٌ منها مترجماً عن اليونانيَّة في عصور متأخِّرة. وتمثِّل اللِّيتورجيَّة السِّريانيَّة الشَّرقيَّة ثلاث مجموعات هم النَّساطرة، والكلدان، والمالابار.

(ب) التَّقليد السُّوري ذو الأصل اليوناني

ويتمثَّل في الفرع السِّرياني الغربي، وقد نشأ في أنطاكية، وهو الأكثر تأثيراً الآن. ومن المرجَّح أن بعض النُّصوص اللِّيتورجيَّة الموجودة ضـــمن

كتابات العهد الجديد تمثل بعض مقتطفات من هذه اللِّيتورجيَّة الأنطاكيَّة. ولكن مع الأسف، ليس لدينا معلومات دقيقة عن هذه المرحلة المبكِّرة لهذا الطَّقس. وكتاب الدِّسقوليَّة يعطينا فكرة عن هذه اللِّيتورجيَّة كما كانت تُمارس في منتصف القرن الثَّالث الميلادي. أما في القرن الرَّابع فقد حدث تجديد في اللِّيتورجيًا كان له أثر كبير في تطورها. كما يؤكِّد ذلك القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م). ويُظن أن السُّنة اللِّيتورجيَّة قد أخذت شكلها على يد القدِّيس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) الذي يُعتبر بحق أنه أوَّل من شرح ذلك.

وعلى ذلك فإن اللِّيتورجيَّة الأنطاكية والمعروفة باسم ليتورجيَّة القدِّيس يعقوب، هي نتاج امتزاج الطَّقس الأنطاكي الأوَّلي مع الطَّقس الأورشليمي في القرن الرَّابع الميلادي. والمواكب الاحتفاليَّة المصاحبة لهذا الطَّقس الأنطاكي، والسَّهر اللَّيلي مع ما يصاحبه من ترتيل، قد أضفى عليه سمات ميَّزته تماماً عن الطَّقس السِّرياني الشَّرقي[٢].

وليتورجيَّة أورشليم خصوصاً، وفلسطين عموماً هي قريبة الشَّبه جداً من ليتورجيَّة أنطاكية. ولكن مع تطور السياحة الدِّينيَّة إلى الأراضي المقدَّسة في القرن الرَّابع الميلادي - بعد تحوُّل الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة إلى المسيحيَّة - قد أعطى لليتورجيَّة أورشليم وضعاً خاصاً مميزاً، مما جعل لها تأثيراً مباشراً على ليتورجيَّات أخرى، خصوصاً ليتورجيَّة أرمينيا، وليتورجيَّة جورجيا.

ولدينا شهادات كثيرة غنيَّة لليتورجيَّة أورشليم تفوق مثيلاتها في أي ليتورجيَّة أخرى. وهذه الشهادات هي تعاليم القدِّيس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) للموعوظين، وخليفته يوحنا، بالإضافة إلى مذكَّرات السَّائحة الأسبانيَّة إيجيريا (القرن الرَّابع)، وكذلك القطمارس الأرمني

2- *Ibid.*, p. 910

القديم، وكتب السنة اللِّيتورجيَّة الجيورجية Le Calendrier et Le Kanonarion والشَّذرات المتفرِّقة الموجودة في وثائق الملكانيين(٣).

وجاء القرن الخامس حاملاً معه انقساماً لهذا الطَّقس السِّرياني الغربي، تسببت عنه نتيجة أليمة ومحزنة، إذ بعد أن رفضت كنيسة أنطاكية مقررات مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م، نشأت عداوة بين سوريا وبيزنطة، وحدث انفصال بينهما، فتبنَّت الكنيسة الأنطاكيَّة اللُّغة السِّريانيَّة لتكون هي لغة ليتورجيَّتها، وتبع ذلك فترة طويلة من التطوُّر اللِّيتورجي لهذه الكنيسة حيث أُثريت بعدد كبير من الكتابات المترجمة أو المؤلَّفة، فاكتسب الطَّقس السِّرياني الأنطاكي غنى وتنوُّع عظيم، إذ احتوى على أكثر من سبعين أنافورا.

أما الذين قبلوا مقررات مجمع خلقيدونية، وعُرفوا باسم "الملكانيين" فاحتفظوا باللُّغة اليونانيَّة لغة طقسيَّة في عبادهم اللِّيتورجيَّة، ولكنهم ظلُّوا يمارسون الطَّقس السِّرياني الغربي باللُّغة اليونانيَّة. وإذ خضعوا شيئاً فشيئاً تحت تأثير القسطنطينيَّة، فقدوا نهائياً اللِّيتورجيَّة السِّريانيَّة الغربيَّة في القرن الثاني عشر، وتبنّوا منذ ذلك الحين اللِّيتورجيَّة البيزنطية. وحاز الطَّقس البيزنطي - الذي كان ذات يوم أحد فروع الطَّقس السِّرياني الغربي - استقلاليَّة مضطردة، أعتُبر بموجبها طقساً قائماً بذاته ضمن الطُّقوس الشَّرقيَّة.

ومن الواضح أنه منذ أن تأسَّست مدينة القسطنطينيَّة في القرن الرَّابع الميلادي على يد الإمبراطور قسطنطين، لم يكن لها أي أصول ليتورجيَّة تختص بها، ولذلك لم يكن أمامها سوى أن تستعير أو تؤلِّف ليتورجيَّة تختص بها. ونتيجة الرَّوابط الوطيدة التي كانت تربط بين أنطاكية

3- A.G. Martimort, *L'eglise en priére, introduction à la liturgie*, Belgium, 1961, p. 18.

والقسطنطينية، فقد تأثَّرت ليتورجيَّة القسطنطينيَّة بالممارسات اللِّيتورجيَّة الأنطاكية تأثيراً مباشراً. وكان للقدِّيس يوحنا ذهبي الفم، وهو المواطن الأنطاكي، وأسقف القسطنطينيَّة في نفس الوقت دور كبير في هذا التأثير.

أما منتصف القرن التاسع فكان هو بداية الفترة التي فيها توحَّد وتنظَّم الطَّقس البيزنطي في أرجاء الإمبراطوريَّة، أما أهم تطورين حدثا له فهما:

- ترجمة هذا الطَّقس إلى اللغة السلافونيَّة بواسطة القدِّيسين كيرلس وميثوديوس، حيث صار هذا الطَّقس هو الطَّقس الرَّسمي للكنيسة السلافونيَّة التي نشأت حديثاً.
- تعميد أمير مدينة كييف (وهو القدِّيس فيلاديمير) بعد ذلك بأكثر من قرن قد فتح لهذا الطَّقس إقليماً جديداً صار فيما بعد هو إمبراطوريَّة روسيا على اتساعها.

وبعد ذلك حمل المبشرون الرُّوس هذا الطَّقس إلى منطقة آسيا الوسطى وحتى إلى منشوريا[٤] والصين واليابان. وأصبحت اللِّيتورجيَّة البيزنطيَّة هي أكثر اللِّيتورجيَّات الشَّرقيَّة التي تطوَّرت تطوراً كلياً على مدي عشرة قرون، جاذبة إليها عناصر من جهات كثيرة، وسادت في كل أنحاء الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، وحلَّت محل اللِّيتورجيَّات الشَّرقيَّة في كل الكنائس التي قبلت مقررات مجمع خلقيدونية.

ثم حدث تطور آخر عندما انضمت بعض الإيبارشيَّات إلى كنيسة

٤- هو إقليم تزيد مساحته قليلاً عن مليون ونصف مليون كيلومتر مربع، ويسكنه ما يقرب من ٥٠ مليون نسمة، ويقع شمال شرق الصين، ويفصله عن روسيا وعن كوريا مجموعة من الأنهار. بدأ التغلغل الروسي في منشوريا سنة ١٩٠٠م، ولكن اليابان احتلت الإقليم بعد خروجها منتصرة في حربها مع روسيا سنة ١٩٠٤، سنة ١٩٠٥م. وبعد سنة ١٩١١م، توالى على حكم منشوريا قواد عسكريون صينيون. وفي سنة ١٩٣١م، احتلت اليابان الإقليم كله، وأقامت به دولة صورية تابعة لها. وفي سنة ١٩٤٥م، عادت منشوريا عقب الحرب العالمية الثانية تحت سيطرة الشيوعيين آنئذ.

روما في نهاية القرن السَّادس عشر، فاختلطت اللِّيتورجيَّة البيزنطية بعناصر لاتينيَّة، وعُرف أصحاب هذه اللِّيتورجيَّة باسم "الرُّوثينيين الكاثوليك". وهو ما عرضنا له من قبل.

وتفرَّع عن الطَّقس السِّرياني الغربي؛ الطَّقس الماروني في لبنان، والذين ارتبطوا مع روما بعلاقة وثيقة بدءاً من الحروب الصليبيَّة، فاصطبغت ليتورجيَّتهم بالصِّبغة اللاتينيَّة، وخصوصاً منذ القرن الثامن عشر[٥].

أما اللِّيتورجيَّة الأرمينيَّة فهي ليتورجيَّة مركَّبة من طقوس شرقيَّة عديدة، ولكن اللِّيتورجيَّة الأنطاكية هي الأكثر تأثيراً عليها. ومنذ العصور الوُسطى حدث لها تطوُّر كبير بدأ بتأثير بيزنطي ثم أُلحق بتأثير لاتيني بعد الحروب الصَّليبيَّة[٦].

٥- وجدير بالذكر أن نشير إلى أنه قد صدر كتاب "القدَّاس بحسب طقس الكنيسة الأنطاكية السريانية المارونية"، وأصبح ساري المفعول منذ سنة ١٩٩٢م، مع مطلع السنة الطَّقسيَّة، في الأحد الأول من تشرين الثاني (سبتمبر)، وأصبح ممنوعاً بأمر البطريرك الماروني استعمال أي كتاب آخر للقداس الماروني.

وكان كتاب القدَّاس الماروني الأول قد طُبع في روما سنة ١٥٩٢م، وبين هذا الكتاب الأول والكتاب الأخير أربعة قرون، طُبع في خلالها عشرة كتب قدَّاسات، كان آخرها سنة ١٩٧٣م.

ويرتكز القدَّاس الجديد على السنة الطَّقسيَّة، ويتضمن ثلاثاً وأربعين خدمة تبادلية بحسب أزمنة السنة الطَّقسيَّة. ويمكن للكاهن أن يختار واحدة من ست أنافورات فقط هي أنافورا الاثني عشر، وأنافورا مار بطرس هامة الرُّسل، وأنافورا مار يعقوب أخي الرَّب، وأنافورا مار يوحنا الرَّسول، وأنافورا مار مرقس البشير، والأخيرة لواحد من باباوات روما.

واختار القدَّاس الجديد نصاً واحداً لكلمات التقديس، هو نص أنافورا الاثني عشر. وأصبحت المناولة تُعطى للشعب تحت شكلي الخبز والخمر مثل التَّقليد الشَّرقي، وليس الخبز فقط كالتَّقليد الغربي لكنيسة روما.

6- NEC, vol. 8, p. 910.

٢- اللِّيتورجيَّة الإسكندرانيَّة

يرى العالم برايتمان Brig itman أن الفقرة التي تشير إلى الإطار العام للِّيتورجيَّا المصريَّة، والتي وردت مرَّتين في الدِّسقوليَّة العربيَّة (في نصها الأوَّل[٧])، مرَّة في الفصل الثَّالث والعشرين، ومرَّة أخرى في الفصل الثَّامن والثلاثين، وهي الممارسة القائمة بالفعل الآن في الكنيسة القبطيَّة، هي فقرات ضمن فصول لا مقابل لها في كتاب المراسيم الرَّسوليَّة[٨]. فهي إذا من تدوين المترجم القبطي، دون أن يشير إلى المصدر الذي نقل عنه. ويبدو أن هذه التَّرجمة العربيَّة لهذه الفقرات منقولة عن نص يوناني. وعلى ذلك فإن هذا الإطار العام للِّيتورجيَّا يُعتبر مرحلة ضمن مراحل تطوُّر اللِّيتورجيَّة المصريَّة، سواء اليونانيَّة أو القبطيَّة[٩].

جزء من الفصل ٢٣ من الدِّسقوليَّة العربيَّة

[... ثم بعد ذلك يبتدئ (الأسقف) بخدمة القدَّاس، ويقول صلاة الشُّكر أولاً. وبعد ذلك يقول تفسير كلام الكُتُب، والشَّعب جلوس، ويعرف ثبات سيرهم. وتُقال الأبصلموديَّة. ثم يحمل الخبز والكأس اللذَين للشُّكر. ويحمل الأسقف البُخور، ويدور حول المذبح ثلاث دورات، ويعطي البُخور للقس فيدور به وسط الشَّعب. وإذا فرغوا من الأبصلموديَّة فيقرأ الشَّمامسة فصولاً من الكلام الرَّسولي، ويقولون تسابيحَ من المزامير].

٧- عني بطبعها حافظ داود (القُمُّص مرقس داود)، الطَّبعة الثَّانية، ١٩٤٠م.

٨- هذه الفصول هي: ٢٣، ٣٥- ٣٩. وهي تتحدَّث عن: الأساقفة الذين يُقامون (فصل ٢٣)، ولأجل ترتيب بنيان الكنيسة المقدَّسة (فصل ٣٥)، ولأجل إقامة الأسقف (فصل ٣٦)، ولأجل أوقات صلاة الأسقف والكهنة (فصل ٣٧)، ولأجل صوم الأسقف من بعد إقامته (فصل ٣٨)، ولأجل الأمانة التي يقولها المؤمنون قبل القدَّاس، والتي علَّمها الرَّب لرسله الأطهار (فصل ٣٩).

9- F.E. Brightman, M. A., *Liturgies, Eastern and Western*, Vol. 1, *Eastern Liturgies*, Oxford, 1967, p. lxv.

جزء من الفصل ٣٨ من الدِّسقوليَّة العربيَّة

[... ويبدأ (الأسقف) بخدمة القدَّاس هكذا: يقول أولاً صلاة الشُّكر. وبعد ذلك يجلس الشَّعب ويقول لهم تأويل كلام الكتب المقدَّسة، ويعلِّمهم إياه كما يصلح لثبات سيرتهم. ويعرِّفهم مذهب الصَّلاح. ثم يقول الأبصلموديَّة التي هي التراتيل من كتاب المزامير مع قوم ممتلئين من الفهم والحكمة والموهبة. ويكون الشَّعب كله جالسين سامعين لهم بفهم وخوف، ويتبعونهم بجزع. ويحمل القس الخبز وكأس الأوخارسديَّة(١٠)، ويحمل الأسقف البُخور ويدور به حول المذبح ثلاث دفعات تمجيداً للثالوث المقدَّس، ثم يدفع مجمرة البُخور للقس فيدور بها على الشَّعب كله.

فإذا أكملوا الأبصلموديَّة يقرأ الشَّمامسة فصولاً من الكلام الرَّسولي، وفصلاً من المزامير، ثم فصلاً من كلام الإنجيل. ويصلُّون عن المرضى والغرباء والمتضيقين، وعن الهواء والثِّمار والملوك والرؤساء والموتى، وعن الذين يأتون ويعملون الخير للكنيسة، وعن الموعوظين، وسلامة الكنيسة الجامعة، وعن الأسقف، والستارة مرخيَّة وداخلها معه القسوس والشَّمامسة والإيبودياقنون والأغنسطسون والأرامل اللاتي هن النِّساء الشَّماسات اللاتي لهن مواهب روحانيَّة. ويكون الأسقف قائماً على المذبح، وحواليه شمامسة يروِّحون بمراوح واكمسار مثل أجنحة الكاروبيم. والقسوس معه قيام، وبقية الإكليروس أيضاً على الطَّقس. ولا يقرب أحد من القربان إلاَّ المؤمنون فقط].

لقد كانت ليتورجيَّة كنيسة الإسكندريَّة في بدايتها يونانيَّة، ثم انتقلت إلى القبطيَّة في حدود القرن الخامس أو السَّادس للميلاد على وجه التَّقريب، إذ لا يمكننا أن نقطع بتاريخ محدَّد انتقلت فيه اللِّيتورجيَّة المصريَّة من اليونانيَّة إلى القبطيَّة، فليس لدينا تاريخ واضح عن ليتورجيَّة القدِّيس مرقس اليونانيَّة(١١). إلاَّ أن بعض علماء اللِّيتورجيَّا يُرجع تاريخها إلى سنة ٢٠٠-٣٠٠ ميلاديَّة.

١٠- أي "الإفخارستيَّا"، وهي تُكتب هكذا في مخطوطاتنا القبطيَّة.

11- F.E. Brightman, *op. cit.*, p. lxvi.

(أ) اللِّيتورجيَّات اليونانية لكنيسة الإسكندريَّة

لم يكن يوجد لليتورجيَّة مار مرقس اليونانيَّة مخطوطات تعود إلى ما قبل القرن الثاني عشر الميلادي، قبل اكتشاف برديَّة "دير البلايزا" بالقرب من أسيوط سنة ١٩٠٧م، وبرديَّة استراسبورج سنة ١٩٢٨م(١٢). فأقدم مخطوطتين يونانيتين لليتورجيَّة مار مرقس اليونانيَّة توجد إحداهما في مكتبة الفاتيكان، والأخرى في مكتبة دير سانت كاترين بصحراء سيناء. وهناك مخطوط آخر في مكتبة الفاتيكان يعود إلى القرن الثالث عشر توجد على هوامشه الجانبية ملاحظات باللُّغة العربيَّة(١٣). أما في مصر فأقدم مخطوط فيها يحوي القدَّاس المرقسي اليوناني فيعود إلى القرن السَّادس عشر، وهو موجود في المكتبة البطريركيَّة بالقاهرة، ولم يُنشر بعد. وقد دوَّنه البطريرك الملكاني ميليتيوس بيجاس Meletius Pegas سنة ١٥٨٥م، وليس هناك من دليل على المصدر الذي نُقل عنه هذا المخطوط.

وأوَّل مرة يُطبع فيها النَّص اليوناني لليتورجيَّة مار مرقس اليونانيَّة، كان في باريس سنة ١٦٢٤م، تحت عنوان "اللِّيتورجيَّة الإلهيَّة للقدِّيس مرقس الرَّسول والإنجيلي، تلميذ القدِّيس بطرس". ثم طبعه ونشره رينودوت Renaudot في باريس أيضاً في سنة ١٧١٦م، وأُعيدت طباعته مرة أخرى سنة ١٨٤٧م(١٤).

ويرى بعض العُلماء(١٥) أن قدَّاس القدِّيس باسيليوس القبطي، وقدَّاس القدِّيس غريغوريوس القبطي، يحملان نفس السِّمات القبطيَّة لقدَّاس

١٢- وهما برديتان تعودان إلى القرن السَّادس، وتحويان النَّص اليوناني لليتورجيَّة القدِّيس مرقس الرَّسول، ويكمِّل إحداها الأخرى، ويرى علماء الليتورجيَّا أنهما كانا ضمن خولاجي يعود زمن الصَّلاة به إلى القرن الثالث الميلادي على الأكثر.

13- Vat. Graec. 2281.

14- Brightman, *op. cit.*, p. lxiii.

١٥- مثل ليدزمان، وجون ماسون نيل.

القدِّيس مرقس الرَّسول، وهو الذي سُمي قداس القدِّيس كيرلس، بعد أن دوَّنه القدِّيس كيرلس الكبير (٤١٢– ٤٤٤م) كتابة، وأضاف إليــه بعضاً من الأواشي.

- أما أقدم مخطوط يحوي القدَّاسين الباسيلي والغريغوري في نصــيهما اليوناني فيعود إلى القرن الرَّابع عشر، وهو موجود في مكتبة الفاتيكان[١٦]. وأوَّل مرة يُطبع ويُنشر هذان القدَّاسان باليونانيَّة كان في بــاريس ســنة ١٧١٦م عندما نشــرهما رينــودوت Renaudot في مؤلفــه: "مجموعــة اللِّيتورجيَّات الشَّرقيَّة – Liturg. Orient. Coll".

(ب) اللِّيتورجيَّات القبطيَّة لكنيسة الإسكندريَّة

هناك الكثير من المخطوطات القبطيَّة التي تحوي اللِّيتورجيَّات القبطيَّة الثلاث، الباسيلي والغريغوري والمرقسي (الكيرلسي)، أمَّا أقدمها فيعــود إلى القرن الثَّاني عشر، وهو مخطوط محفــوظ الآن في المكتبــة البريطانيَّــة بلندن[١٧]، إلى جانب ثلاثة مخطوطات أخرى تعود إلى القرن الثَّالث عشــر الميلادي محفوظة في مكتبات بودليان Bodleian بأكسفورد[١٨]، والفاتيكــان بروما[١٩]، ومانشستر بإنجلترا[٢٠].

أما أقدم خولاجي مطبوع يضم الثلاثة قداســات معــاً في نصــها القبطي، فهو الخولاجي الذي طبعه روفائيل الطوخي في روما سنة ١٧٣٦م بالقبطيَّة والعربيَّة بعد أن حذف منه أسماء القدِّيسين أصــحاب الطبيعــة

16- Vat. Graec. 325.

١٧– وهو برقم ١٢٣٩ شرقيَّات.
١٨– وهو برقم (هنت ٣٦٠)
١٩– وهو برقم (قبطيَّات)١٧
٢٠– وهو برقم (قبطيَّات ٤٢٦)
وقد تم تدقيق هذه الفقرة في هذه الطَّبعة الثَّانية من الكتاب.

الواحدة monophysite الذين وردوا في المجمع مثل البطريــرك القــدِّيس ديسقوروس الإسكندري، والبطريرك القدِّيس ساويرس الأنطاكي، ووضع بدلاً منهم أسماء آخرين يتبعون مجمع خلقيدونية. وكذلك أضاف علــى قانون الإيمان فيما يختص بالرُّوح القُدُس كلمة "والابن" في عبارة "منبثق من الآب"، وهو ما تعلّم به الكنيسة الكاثوليكيَّة. بالإضافة إلى حواشــي أخرى أضافها بالعربيَّة. وقد أعاد السمعاني J.A. Assemani طباعته باللاتينيَّة سنة ١٧٥٤م.

وفي سنة ١٨٨٢م طبع الماركيز يوحنــا John marquess of Bute في لندن كتاب "الخدمة الصباحيَّة القبطيَّــة ليــوم الــرَّب - The Coptic Morning Service for the Lord's day"، وهو منقول مع بعض الإضافات عن خولاجي الطوخي. ويحتوي أيضاً على خدمة رفع بخور باكر، وملحق عن الخدمة الإلهيَّة.

وأوَّل مرَّة يُطبع فيها الخولاجي القبطي في القاهرة، حاوياً القدَّاسَــين الباسيلي والغريغوري، فكان سنة ١٨٨٧م على يد القمــص فيلوثــاوس إبراهيم كاهن الكنيسة المرقسيَّة البطريركيَّة بالقاهرة. ثم طبع أيضاً في نفس السَّنة كتاب "ما يجب على الشَّمامسة من القراءة في الخدمة والتَّرتيــل"، ويحتوى على مردَّات الشَّماس والألحان الثَّابتة والمتغيِّرة، وذلك بالقبطيَّــة والعربيَّة مع حواشي بالعربيَّة.

وفي سنة ١٩٠٢م طبع القمص عبد المسيح صليب المسعودي كتاب "الخولاجي المقدَّس" حاوياً القدَّاسات الثلاثة بالقبطيَّة والعربيَّة، ومتضمناً حواشي كثيرة نقلها من كتاب "التَّرتيب الطَّقسي"، السَّابق ذكره بعد أن عدَّل في القليل منها، فصار هذا الخولاجي هو المرجع الرَّئيسي لليتورجيَّة القبطيَّة حتى هذا اليوم.

ولقد طُبع في روما سنة ١٨٣١م أوَّل دلاَّل لقراءات الكنيسة القبطيَّة،

ويحوي قائمة بفصول أناجيل الأعياد والأصوام والسُّبوت والآحاد والأربعاء والجمعة على مدار السَّنة اللِّيتورجيَّة، طبقاً لمخطوط عربي بمكتبة الفاتيكان يعود إلى القرن الخامس عشر. أعقبه آخر طُبع في لندن سنة ١٨٧٤م، وذلك ضمن مجموعة "قاموس الآثار المسيحيَّة Dict. of Christian Antiq."، يحوي فصول أناجيل الآحاد والأعياد، ويسبق كل فصل إنجيلي آيات مختارة من المزامير لعشيَّة وباكر والقدَّاس. وفي ألمانيا طُبع سنة ١٨٧٩م قطمارس للسِّتة شهور الأولى (توت – أمشير)، والثَّلاثة شهور الأخيرة (أبيب – الشَّهر الصَّغير)، وكذلك لقراءات الصَّوم الكبير وصوم نينوى، وآحاد الخمسين المقدَّسة والأعياد الأساسيَّة[٢١].

٣- ليتورجيَّات الكنيسة الإثيوبيَّة[٢٢]

١- قدَّاس الرُّسُل
٢- قدَّاس الرَّب
٣- قدَّاس يوحنا بن الرَّعد
٤- قدَّاس القدِّيسة مريم
٥- قدَّاس الـ ٣١٨ بنيقية.
٦- قدَّاس القدِّيس أثناسيوس.
٧- قدَّاس القدِّيس باسيليوس.
٨- قدَّاس القدِّيس غريغوريوس.
٩- قدَّاس القدِّيس إبيفانيوس.
١٠- قدَّاس القدِّيس يوحنا ذهبي الفم.
١١- قدَّاس القدِّيس كيرلس.
١٢- قدَّاس القدِّيس يعقوب السروجي
١٣- قدَّاس القدِّيس ديسقوروس.
١٤- قدَّاس القدِّيس غريغوريوس الثاني

فهي أربعة عشر قداساً. وبحسب تقليد كنيسة إثيوبيا، فإن القدِّيس باسيليوس الكبير أسقف قيصرية (٣٣٠- ٣٧٩م) هو الذي جمع قدَّاس الرُّسُل، وقدَّاس الثلاثمائة والثمانية عشر بنقية، وقدَّاس القدِّيس أثناسيوس.

ولا يتَّفق مع هذه القدَّاسات في الكنيسة القبطيَّة سوى قداس القدِّيس

21- Brightman, *op. cit.*, p. lxix.

٢٢- القس مرقس داود، قداسات الكنيسة الإثيوبيَّة، القاهرة ١٩٥٩م

باسيليوس، باستثناء الملاحظات الآتية:

• عند قول الكاهن "ووضع لنا هذا السرّ العظيم الذي للتقـوى ..." يبخر بالشورية على المذبح[٢٣]. ويقول الشمَّاس: "أيها الكهنة ارفعوا أيديكم".

• عند قول الكاهن "وشكر وبارك" يبارك ثلاث مرَّات على الخبز، ثم يغرس إصبعه برقّة في خمسة مواضع من الخبز دون أن يفصله.

• لا وجود لمردَّات الشمَّاس "أمين" لا في مباركـة الخبـز ولا في مباركة الكأس، ولكن الشَّعب هو الذي يؤمِّن "آمين نؤمن ..."، وهذا هو الطَّقس الإسكندري القديم، في أصوله التقليديَّة الأولى.

• في صلوات الأواشي، كانت تُصلى أوشية الملك بعد أوشـية ثمـرات الأرض: "اذكر يارب ملك هذه البلاد عبدك (هيلاسلاسي الأوَّل)".

• عندما يذكر الكاهن اسم والدة الإله القدِّيسة مريم في مجمع القـدَّاس الإلهي، يقول الشَّعب ثلاث مرَّات: "مريم الدَّائمة البتوليَّة".

• يختلف المجمع قليلاً عن نظيره القبطي، ويرد فيه اسم القـدِّيس أنبا ببنوده.

• عند قول الكاهن: "... أن يجعلنا مستحقين لشـركة وتنـاول أسراره الإلهيَّة غير المائتة"، يكمِّل مباشرة بقوله "الجسد المقدَّس، والـدَّم الكريم اللَّذان لمسيحه" دون ذكر لسجود هنا، وهو الطَّقس الإسكندري القديم في أصوله الأولى.

• يردِّد الشَّعب الصَّلاة الربيَّة "أبانا الذي في السَّموات ..." قبـل القسمة عقب قول الشمَّاس "صلوا"، وبعدها أيضاً.

• هناك صلاتان للقسمة في القدَّاس الباسيلي الإثيوبي، الأولى هـي

٢٣- القس مرقس داود، قداسات الكنيسة الإثيوبيَّة، ص ٢٠٠

صلاة القسمة العاديَّة التي تقول: "أيها السيِّد الرَّب، إلهنا العظيم الأبدي ...". أما الثانية فهي: "هوذا كائن معنا على هذه المائدة اليوم عمانوئيل إلهنا، حمل الله الذي يحمل خطية العالم كله ...". وهي صلاة القسمة التي تُقال في أعياد السيِّدة العذراء والملائكة والسَّماويين، بحسب تقليد كنيسة الإسكندريَّة.

ولكن يفصل بين القسمتين مرد للشَّعب يقول: "جنود ملائكة مخلِّص العالم يقفون أمام مخلِّص العالم ويحيطون بمخلِّص العالم، أي بجسد ودم مخلِّص العالم. فلنقترب إلى وجه مخلِّص العالم[٢٤]، بالإيمان الذي هو منه، لنُخضع ذواتنا للمسيح".

فيقول الشمَّاس المساعد: "افتحوا أيها الرؤساء أبوابكم".

فيقول الشمَّاس: "أيها الوقوف احنوا رؤوسكم".

فيبدأ الكاهن بصلاة القسمة الثانية مباشرة[٢٥].

- مردات الشَّعب تختلف قليلاً عن نظيرها في القدَّاس الباسيلي المصري.

أما القدَّاسان الآخران الغريغوري والكيرلسي في كنيسة الإسكندريَّة، فيختلفان اختلافاً كلياً عن نظيريهما في قدَّاسات تلك الكنيسة.

وجرت العادة أن تُقدَّم للكاهن في بداية الخدمة ثلاث قربانات ليختار إحداها للحمل، أما القربانتان الباقيتان فمع أنهما لم يتقدَّسا، لكنهما تعتبران كخبز مقدَّس، وتوزعان بين الإكليروس في نهاية الخدمة[٢٦].

وفي إثيوبيا ثلاث نغمات يُصلّى بها هي: جيز، أراراي، وأزل. وقد

٢٤– تعبير "مخلِّص العالم"، هو اصطلاح يميِّز ليتورجيَّة الغال، وطقس شمال إيطاليا، ثم انتقل إلى روما، ولكن أصله يعود إلى ليتورجيَّة الغال (فرنسا حالياً).

Cf. Brightman, *op. cit.*, p. 31ff.

٢٥– القس مرقس داود، قداسات الكنيسة الإثيوبيَّة، ص ٢١٤

٢٦– نفس المرجع، ص ٩٧

رتبها لكنيسة إثيوبيا أحد رجال الكنيسة واسمه "يارد" في القرن السَّادس الميلادي خلال الفترة من سنة ٥٢٣م - سنة ٥٤٥م[٢٧]. أما "الزماري" فهي الترانيم التي أعدَّها "يارد" في القرن السَّادس.

ثالثاً: حول النُّصوص اللِّيتورجيَّة ذاتها[٢٨]

١ـ بنية النَّص اللِّيتورجي

الكلمة اليونانيَّة ἀκολουθία (أكولوثيًّا)، ومقابلها في اللُّغة السِّريانيَّة tešmeštâ (تشمشتا)، وفي اللاتينيَّة ordo ، تعني كلـها "بنيـة الوحـدة اللِّيتورجيَّة – The structure of the Liturgical unit"، أي العناصـر أو التَّركيبات أو المكوِّنات التي تتكوَّن منها أي وحدة ليتورجيَّة كالقـدَّاس الإلهي، أو صلوات السَّواعي، أو أحد أسرار الكنيسة ... الخ. فهذه كلها هي وحدات ليتورجيَّة، ويشتمل كل منها على العناصـر اللِّيتورجيَّـة. فالنُّصوص اللِّيتورجيَّة في النهاية تشكِّل الوحدة اللِّيتورجيَّة.

هذه النُّصوص اللِّيتورجيَّة التي تشكِّل أي وحدة ليتورجيَّة، قد نراهـا في شكلها النهائي المتطوِّر، أو في أي مرحلة من مراحل تطورها.

٢ـ أهمية دراسة الطَّقس المقارن لفهم النُّصوص اللِّيتورجيَّة

تكون الدِّراسة المقارنة للنُّصوص اللِّيتورجيَّة المختلفة مفيـدة للغايـة عندما نستطيع بواسطتها تفسير أو شرح نص ليتـورجي لطقـس مـن

٢٧- نفس المرجع، ص ٧٧

28- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F.L. Cross, London, 1958.

الطُّقوس بمقارنته مع نفس النّص في طقس آخر.

ويفيدنا الطّقس المقارن أيضاً في التعرُّف على تلك التّركيبات اللّيتورجيَّة التي تتغيَّر معانيها أو مواصفاتها أو وظائفها من طقس لآخر، حتى وإن كانت شائعة في كل أو معظم الطُّقوس. فضلاً عن أنه يلزم أيضاً مراعاة التّركيبات اللّيتورجيّة أو النُّصوص اللّيتورجيّة التي تحمل نفس المعنى ونفس الوظيفة أو العمل، ونفس الموقع الليتورجي في الوحدة اللّيتورجيّة في كل الطُّقوس المسيحيَّة للكنائس المختلفة، أو على الأقل في أكبر عدد كافي من هذه الطُّقوس اللّيتورجيَّة، وعلى الأخص جداً إن كانت هذه التّركيبات اللّيتورجيَّة لها ما يقابلها في ليتورجيَّة المجمع اليهودي Synagogue وهي المهمَّة التي يضطلع بها الطّقس المقارن.

فمثلاً؛ في دراسة مقارنة للممارسات الدَّيريَّة المبكّرة في بلاد الغال، قدَّمها العالم الألماني أنطون بومشتارك A. Baumestark في مؤلَّف له بالألمانية[٢٩]، يتَّضح مدى الارتباط الوثيق بين هذه الممارسات الدَّيرية بالطّقس السِّرياني الغربي (الأنطاكي)، وكتاب الصَّلوات الروماني Roman Breviary .

وهناك أيضاً نقاط التقاء كثيرة بين الطّقسين القبطي والبيزنطي، ومعهما الطّقس الأرمني. مع ملاحظة أن الطّقس الأرمني، باستثناء بعض تفصيلات قليلة هو عموماً الشّكل القديم للطّقس البيزنطي.

والطّقس القبطي يكاد يلتقي في نصوص ليتورجيَّة – إلى حد التّطابق – مع الطّقس الكلداني القديم، لاسيَّما في بعض الأسرار الكنسيَّة مثل سر المعموديَّة على سبيل المثال.

29- *Fest brevier und Kirchenjahr der Syrischen Jakobiten*, Cf. fasc. 2 of Studi Liturgici (Grotta Ferrata, 1912).

وهناك نقاط تقابل بين الطَّقس الكلداني أو الآشوري مع الطَّقس الأمبروزي لكنيسة ميلان.

ويمكن تفسير طقس روما وشرحه بطريقة أفضل إذا قوزن بالممارسات الطَّقسيَّة البيزنطيَّة والأرمينيَّة والأنطاكيَّة. وهناك أيضاً نقاط التقاء بين طقس روما وطقس الإسكندريَّة، وقد كان للبابا أثناسيوس الرَّسولي دور عميق في هذا الخصوص.

إن دراسة الطَّقس المقارن تقودنا للتعرُّف على بنية الوحدة اللّيتورجيَّة في الطُّقوس المختلفة مثل: أصل هوسات التَّسبحة وتاريخها في الطُّقوس المختلفة، وكذا مزامير تسبحة السَّحَر الشَّهيرة (١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) والتي تُسمى الهوس الرَّابع في الطَّقس القبطي، ونظام السَّهر اللّيلي، واجتماعات الصَّباح والمساء في الطُّقوس المختلفة، ونشأة القراءات الكنسيَّة وتطورها بين الطُّقوس المختلفة. والبنية الأساسيَّة للقدَّاس الإلهي في التَّقاليد المختلفة، وأصلها الواحد، لاسيَّما صلوات الاستدعاء، وتاريخ تطورها.

ولنورد الآن قليلاً من الأمثلة التوضيحيَّة على تداخل الطُّقوس المختلفة مع بعضها البعض:

- في خدمة الصَّباح في الكنيسة القبطيَّة توجد صلاة لا زالت تُقال حتى اليوم باللُّغة العربيَّة بدايتها "أيها الرَّب إله القوَّات ..."، لازال أصلها اليوناني محفوظاً حتى اليوم تحت عنوان "صلاة الصَّباح - Εὐχὴ Πρωϊνή" في خولاجي نادر كُتب سنة ١٢٠٧م بواسطة كاهن الكنيسة الكُبرى والمحراب البطريركي بالقسطنطينيَّة، حيث أُدخلت هذه الصَّلاة على الطَّقس البيزنطي في بداية الألف الثَّانية، أي أوائل القرن الحادي عشر في الكنيسة الكبرى بالقسطنطينيَّة، ومقدِّمة هذه الصَّلاة في نصها اليوناني هو Ὁ Θεὸς τῶν Δυνάμεων.

- المزمور الثَّاني والسِّتون "يا الله إلهي إليك أبكِّر إذ عطشت إليك

نفسي ... الخ"، وهو مزمور الصَّباح الشَّهير الذي يوجد في الطُّقوس الشَّرقيَّة؛ القبطيَّة والبيزنطيَّة والأنطاكيَّة والمارونيَّة والأرمينيَّة، وكان معروفاً سابقاً في الطَّقس الغالي القديم، وكان معروفاً في طقس روما أيضاً حتى سنة ١٩١١م عندما سقط منه بعد التَّجديد الذي أجراه البابا بيوس العاشر على كتاب المزامير الروماني Psalterium Romanum .

فهذا المزمور كمزمور شهير في الممارسات الطَّقسية المسيحيَّة القديمة، وكحجر زاوية في كل صلوات الصَّباح في كافة الطُّقوس في القرن الرَّابع الميلادي بشهادة كثير من الوثائق القديمة[٣٠]، من الغريب أن نجده قد أصبح مجرد واحد من مزامير الصَّباح في كافة الطُّقوس الشَّرقيَّة الحاليَّة. فهو في الطَّقس القبطي يأتي ضمن مجموعة مزامير صلاة باكر التي تشمل الآن ١٩ مزموراً. ونجده في الطَّقس البيزنطي يمثل مكاناً فرعياً ضمن المجموعة الأولى من مجموعتي مزامير صلاة السَّحَر البيزنطيَّة[٣١]. ولا ذكر له في صلاة السَّحَر في الطَّقس الأرمني.

ومن جهة أخرى، عندما نقارن بين صلاتي السَّحَر في كل من الطَّقسين البيزنطي والأرمني، نلاحظ أن صلاة السَّحَر في الطَّقس الأرمني تشتمل على أربعة مزامير فقط هي المزامير (٣، ٨٧، ١٠٢، ١٤٢)، بينما أن مزامير السَّحَر البيزنطيَّة هي ستة (٣، ٣٧، ٦٢، ٨٧، ١٠٢، ١٤٢)، مما يتَّضح معه أن المجموعة الثلاثيَّة الثَّانية من المزامير أي (٨٧، ١٠٢، ١٤٢) هي الأكثر قدماً لورودها في كلا الطَّقسين بنفس التَّرتيب، ولأنه من المعروف أن الطَّقس الأرمني هو الشَّكل الأكثر قدماً للطقس البيزنطي

٣٠- انظر للمؤلِّف كتاب: "الأجبية أي صلوات السَّواعي"، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٣١- صلاة السَّحَر البيزنطية تحوي ستة مزامير Hexapsalmos موزعة على مجموعتين: المجموعة الأولى تحوي المزامير ٣، ٣٧، ٦٢، والمجموعة الثانية تحوي المزامير ٨٧، ١٠٢، ١٤٢. حيث تُختتم كل مجموعة بـ ذكصا... كانين... الليلويا (ثلاث مرات). المجد لك يا الله.

كما سبق أن ذكرنا. فنستنتج من ذلك أن تطوراً قد طرأ على الطَّقس البيزنطي، إذ بعد أن سقط المزمور (٦٢) منه، عاد فأضافه في زمن لاحق بعد المزمور (٣)، ثم أُضيف بعد ذلك المزمور (٣٧) لكي يشكِّل مع المزمورين (٣، ٦٢) المجموعة الثلاثيَّة الأولى، لتناظر المجموعة الثلاثيَّة الثانية الأقدم منها.

• صلاة التَّقديس الكُبرى Μέγας Ἁγιασμός لمياه المعموديَّة في ليلة الإبيفانيا - ليلة عيد الغطاس - في الطَّقس البيزنطي نجد أنها موجودة في كل الطُّقوس الشَّرقيَّة أيضاً، بل وحتى الصَّلاة الهامة في هذا الطَّقس والتي بدايتها "عظيم أنت يارب - Μέγας εἶ Κύριε " نجدها أيضاً موجودة في الطُّقوس القبطيَّة والسِّريانيَّة والأرمينيَّة، بل وحتى في أحد التَّرجمات اللاتينيَّة لهذه الخدمة.

وهناك أيضاً صلاة أخرى في ليتورجيَّة المعموديَّة تتَّصل بصلاة البَركة اليهوديَّة، وهي دليل هام يثبت قدَم هذه الصَّلاة، وهي التي تبدأ بالكلمات "مبارك أنت أيها الرب الإله ضَابط الكل — Εὐλογητός εἶ, Κύριε, Ὁ Θεός Ὁ παντοκράτωρ " حيث وُجدت هذه الصَّلاة أيضاً في التَّرجمة السِّريانيَّة لطقس المعموديَّة في كنيسة أنطاكية، واحتلَّت عند السِّريان نفس موضعها الذي تحتله في الطَّقس البيزنطي.

هذه بعض أمثلة على تداخل النُّصوص اللِّيتورجيَّة بين الطُّقوس المختلفة، وهذه التَّداخلات هي ذات قيمة عالية جداً لسببين:

السَّبب الأوَّل: تحديد زمن النَّص اللِّيتورجي في كنيسة ما.

فمثلاً نجد أن النُّصوص القديمة المشتركة بين الكنائس الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة القديمة وبين كنيسة القسطنطينيَّة غالباً ما تعود إلى ما قبل الانفصال بينهما في القرن الخامس الميلادي (سنة ٤٥١م).

السَّبب الثَّاني: استرجاع نص ليتورجي مفقود من أحد الطُّقوس.

وذلك بمقارنته بنص مماثل في طقس آخر. فطبيعي أنه عندما يُفقد النَّص الأصلي، فإن ترجماته في اللُّغات الأخرى تصبح ذات سند عظيم للحفاظ عليه. فمثلاً التَّرجمة السِّريانيَّة لأنافورا ثيؤدور الموبسويستي (٣٥٠- ٤٢٨م) قد حفظت لنا مصدراً موثوقاً به لليتورجيَّة آسيا الصُّغرى في القرن الرَّابع الميلادي.

ونفس الشئ أيضاً يُقال على كل أنافورات الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكيَّة التي تُرجمت عن أصول يونانيَّة، مثل أنافورات القدِّيس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥- ٥٣٨م)، ومعاصره يوحنا أسقف بوسطره John of Bostra .

٣- استرجاع النُّصوص اللِّيتورجيَّة المفقودة

تصل إلينا الأشكال أو الصِّيغ المختلفة للنُّصوص اللِّيتورجيَّة عن طريقين:

- إما عن طريق نصها الأصلي.
- أو عن نصها المترجم عند ضياع النَّص الأصلي.

فكثير من النُّصوص اللِّيتورجيَّة البيزنطية قد تعرَّفنا عليها من التَّرجمات السِّريانيَّة لها، ولقد بذل علماء اللِّيتورجيَّات محاولات ناجحة لحصر هذه النُّصوص البيزنطيَّة (اليونانيَّة) التي تُرجمت إلى السِّريانيَّة قبل أن يُفقد النَّص اليوناني الأصلي. وجدير بالذِّكر، أن السِّريان الأنطاكيين احتفظوا في ترجمات سريانيَّة بعدد ضخم من النُّصوص اللِّيتورجيَّة اليونانيَّة. ولقد قام العالم الليتورجي الألماني الأصل أنطون بومشتارك A. Baumestark بلفت النَّظر إلى العدد الكبير من المخطوطات التي تحوي هذه التَّرجمات السِّريانيَّة لنصوص أصليَّة يونانيَّة. وجدير بالذِّكر أن أقدم مخطوط سرياني منها يعود إلى القرن التاسع الميلادي.

وقد وُجدت هذه المخطوطات في مكتبات باريس وأكسفورد،

وبرلين، والمتحف البريطاني. وتعطينا هذه النُّصوص السِّريانيَّة أحياناً إيضاحات وشروحات أفضل من النَّص الأصلي الذي تُرجمت عنه.

والنُّصوص اللِّيتورجيَّة اليونانيَّة وُجد لها أيضاً ترجمة جورجيَّة، ومما يستحق الاعتبار أن عدداً كبيراً من التَّسابيح - والتي تُسمى في الطَّقس البيزنطي "القوانين Canons" المفقودة لازالت محفوظة في التَّرجمة الجورجيَّة، منها التَّسبحة الثَّانية. بالإضافة إلى عدد ليس بقليل من الطروباريَّات اليونانيَّة المفقودة في نصها الأصلي، والتي لازالت محفوظة في نصوصها المترجمة.

وإذا تذكَّرنا العلاقة الوطيدة بين جورجيا وفلسطين المسيحيَّة، فسوف لا يكون من الصَّعب علينا أن نعتبر أن النُّصوص اللِّيتورجيَّة الجورجيَّة قد حفظت لنا الأصول الأولى القديمة التي فُقدت.

لقد حفظت لنا اللُّغة السِّريانيَّة صلاة يونانيَّة Collection تُسمى "الصَّلاة الثَّامنة - oktoickos" فُقدت أصولها اليونانيَّة القديمة، وهي صلاة تعرفها الكنيسة السِّريانيَّة وتنسبها إلى القدِّيس ساويرس الأنطاكي، فقد ألَّف الجزء الأكبر منها ما بين سنة ٥١٢ - سنة ٥١٨م. أما أول مترجم لهذه الوثيقة الهامة فهو بولس أسقف أديسّا (الرَّها)، وفي سنة ٦٧٥م صحَّح يعقوب أسقف الرَّها (أديسّا) والمعتبر أنه جيروم الأدب السِّرياني ما ترجمه بولس[٣٢] بأمانة يُشهد لها. إذ ذكر الأسقف يعقوب كل شئ عن الإضافات التي أضافها الأسقف بولس على النَّص، والتَّعديل الذي أجراه على بعض كلماته كي يحافظ على نفس العدد من المقاطع syllables في نصها اليوناني الأصلي، مما اضطره إلى إضافة بعض كلمات

٣٢- هذا التنقيح الذي أجراه الأسقف يعقوب على نص الأسقف بولس نشره العالم بروكس E. W. Brooks مترجماً إلى الإنجليزية في مجموعة الآباء الشرقيين.
Cf. PO 6, 1911, p. 1- 179 ; 7, 1911, p. 595- 802.

جديدة على النَّص. وبذلك أمكننا أن نعيد صياغة النَّص الأصلي اليوناني المفقود إلى صيغته الأولي القديمة.

وفي مصر؛ فإن كثيراً من الوثائق اللّيتورجيَّة المبكّرة قد حُفظت لنا على قصاصات من ورق البردي، ولكن مما يُؤسف له أن هذه النُّصوص اللّيتورجيَّة متهالكة للغاية بفعل طول الزَّمن. وبرغم ذلك فقد قام العالم الألماني تيودور شيرمان Theodor Scherman بدراسة مستفيضة لهذه الوثائق البرديَّة. ولا زالت الكنيسة القبطيَّة حتى اليوم تمارس في خدماتها الكنسيَّة كثيراً من هذه النُّصوص اللّيتورجيَّة المبكّرة.

ومن بين هذه النُّصوص اللّيتورجيَّة عدد من الألحان والثيؤطوكيَّات التي وُجد لها نظير في الطَّقس البيزنطي، وخصوصاً في كتاب السَّواعي أي (الأجبية) Horologion. وهي الحقيقة التي تُرجع تاريخ هذه النُّصوص إلى ما قبل القرن الخامس الميلادي، أو السَّادس الميلادي على الأكثر، وهي الفترة التي لم تتعرَّض بعدها كنيسة مصر لأية تأثيرات ليتورجيَّة بيزنطيَّة.

وهذه النُّصوص السَّابق ذكرها هي ذو أصل فلسطيني. ولازالت وثائق البردي المصريَّة مدوَّن عليها لحن للعذراء مريم يشهد بقدمه، وتاريخه المبكّر. ولقد وُجدت ترجمة لهذا اللّحن عند الأقباط والأحباش، حيث نقله الأقباط عن الأحباش، ووُجد اللّحن أيضاً في ترجمة لاتينيَّة في طقس ميلان. ولازال يُمارس في اللّيتورجيَّة البيزنطيَّة حتى اليوم. أما بداية كلمات اللّحن فتقول: Χαίρε Θεοτόκε, τὸ ἀγαλλίαμα τῶν ἀγγέλων أي: " افرحي يا والدة الإله، فرح الملائكة".

ولقد نقلت روما عن القسطنطينيَّة أيضاً بعضاً من النُّصوص اللّيتورجيَّة، ومن بينها نصاً يونانياً ذا أصل فلسطيني يعود تاريخه إلى حوالي القرن السَّادس الميلادي، ونصه باليونانيَّة هو: Τῆς σαρκός σου Χριστέ μετελάβομεν καὶ τοῦ ἅιματός σου ἠξιώθημεν أي: "تناولنا جسدك

أيها المسيح، واستحققنا دمك".

ونفس النَّص اللاتيني لذلك الأصل اليوناني ظهر أيضاً في طقس ميلان في قدَّاس القدِّيس أمبروسيوس، ذاك الطَّقس الذي يُعتبر مستودعاً لكثير من الطُّقوس اللِّيتورجيَّة اليونانيَّة في ترجمتها اللاتينيَّة. فليتورجيَّة ميلان نقلت لنا أيضاً ترجمة للحن يوناني يُقال في أثناء التَّناول في يوم خميس العهد بدايته هي: Τοῦ δείπνου σου τοῦ μυστικοῦ ونصه هو: "اقبلني اليوم شريكاً في عشائك السِّري يا ابن الله. لأني لستُ أقول سرَّك لأعدائك، ولا أعطيك قُبلة مثل يهوذا، لكن كاللِّص أعترف لك اذكرني يارب إذا أتيت في ملكوتك(٣٣)".

وهناك كثير من الألحان في الطَّقس الأمبروزي (طقس ميلان) في ترجمتها اللاتينيَّة، ليس لها ما يقابلها اليوم من أصول يونانيَّة. ويبدو أنها ترجمة لنصوص يونانيَّة مفقودة الآن، تعود إلى موطنها الأصلي فلسطين، وتؤرَّخ ببداية القرن السَّادس الميلادي(٣٤).

كما يوجد عدد ضخم من الأنتيفونات Antiphons والمردَّات Responses المستخدمة في الطُّقوس الغربيَّة تطابق نصوصاً ليتورجيَّة يونانيَّة Greek Poetry واسعة الانتشار في الطُّقوس الشَّرقيَّة عموماً، والطَّقس البيزنطي خصوصاً(٣٥).

إنه من الصَّعب أن نحاول إعادة صياغة الشَّكل الأصلي للوثائق والمخطوطات بواسطة أمثال هذه التَّرجمات، ولكن جهودنا تصبح أكثر سهولة إذا توفَّرت لدينا ترجمتان مختلفتان لهذا المصدر، وخصوصاً إذا كانتا

٣٣- بهجة النفوس في الصَّلوات إلى الرب القدوس، عني بجمعه وترتيبه الأرشيمندريت إلياس إسطفان معدني، الإسكندرية ١٩٤٠، ص ٥٣٣.

34- Anton Baumstark, *op. cit.*, p. 106, 94- 98.

35- *Ibid.*, p. 100 .

في لغتين مختلفتين. علاوة على ذلك، إذا كانت هناك بعض الشَّذرات من النَّص الأصلي لازالت موجودة كي تعطينا فكرة عن أسلوبها ونمطها الذي يخصها في ذاتها.

• فصلاة القسمة في ليتورجيَّة القدِّيس يوحنا ذهبي الفم اليونانيَّة في التَّقليد البيزنطي، والتي بدايتها: Σοὶ παρακατατιθέμεθα τήν ζωήν ἡμῶν قد حُفظت لنا في نص صلاة سريَّة يقولها الكاهن في ليتورجيَّة القدِّيس باسيليوس المصريَّة في نصها اليوناني، وهي اللِّيتورجيَّة المستخدمة في كنيسة الرُّوم الأرثوذكس حتى اليوم[٣٦]. ونصها هو: "أيها السيِّد محب البشر، لك نودع كل حياتنا ورجائنا، ونطلب ونتضرَّع ونسأل أن تجعلنا مستحقين لتناول أسرارك السَّمائيَّة المرهوبة، أسرار هذه المائدة الطَّاهرة الرُّوحانيَّة بضمائر نقيَّة لصفح الخطايا، وغفران الذُّنوب، وشركة الرُّوح القُدُس، وميراث ملكوت السَّموات والدَّالة لديك، لا لمحاكمة ولا لدينونة[٣٧]".

• وكذلك نص الصِّيغتين اللَّتين تعقبان قُبلة السَّلام في التَّرجمة السِّريانيَّة لأنافورا القدِّيس باسيليوس، هما ترجمة للأصل اليوناني الذي حفظته ليتورجيَّة القدِّيس باسيليوس المصريَّة في نصها اليوناني، باستثناء أنافورا الاثني عشر رسولاً الأنطاكيَّة التي هي حالة خاصة في ذلك الأمر.

• ليس لدينا وثائق تثبت وجود الثَّلاثة تقديسات (التَّسبحة الشَّاروبيميَّة في القدَّاس الإلهي) في نصوص صلوات الطَّقس الغالي، ولكن أفعال التَّقديس والبَركة التي توردها هذه اللِّيتورجيَّة، تمكّننا من أن نؤكّد أن النَّص اللِّيتورجي في هذا الجزء من القدَّاس هو شبيه تماماً بنص ليتورجيَّات أورشليم والقسطنطينيَّة وروما، والذي يأتي مباشرة بعد

36- Anton Baumstark, *op. cit.*, p. 58.

٣٧- انظر: بهجة النفوس في الصَّلوات إلى الرب القدوس، عني بجمعه وترتيبه الأرشيمندريت إلياس إسطفان معدني، الإسكندرية، ١٩٤٠م، ص ١٢٥

التَّسبحة الشَّاروبيميَّة.

• هناك صيغ لصلوات ليتورجيَّة تأتي في شكل حوار متبادَل بين الكاهن والشَّعب، وهو ما يُسمى Stereotyped Formula وبمقارنة هذه الصِّيغ من الصَّلوات مع التَّقاليد المختلفة، نتمكن من صياغة نص ليتورجي مفقود في أحد التَّقاليد، حتى ولو لم تكن هناك من شواهد تؤكِّده.

فالصَّلاة الافتتاحيَّة لتبريك مياه المعموديَّة في الطَّقس الماروني والتي تقول: "عيوننا كما قلوبنا مرفوعة إليك، وأيدينا مبسوطة"، هي بالضَّرورة صلاة مرتبطة بالنِّداء المعروف "القُلوب إلى فوق"، وجوابها البسيط "هي عند الرَّب"، إذاً فهذه الافتتاحيَّة المارونيَّة لصلاة تبريك المعموديَّة تقودنا بالضَّرورة من خلال دراسة الطَّقس المقارَن إلى التَّيقُّن من أن المرد السَّابق لها، حتى وإن كان قد سقط من الوثائق القديمة، إلاَّ أنه يدل على نفسه من الصِّيغة اللِّيتورجيَّة التي تتبعه.

٤ ـ القوانين التي تحكم تطور النُّصوص اللِّيتورجيَّة

غالباً ما تكون مراحل تطور النُّصوص اللِّيتورجيَّة بطيئة، متتابعة، بالغة التَّعقيد. ولكي نوضِّح هذه الانعطافات أو الاتجاهات التي تحكم تطور هذه الوحدات اللِّيتورجيَّة بدءاً من شكلها الأوَّلي، أو البدائي، والذي غالباً ما يتعذَّر تداركه، ينبغي علينا أن نخوض مهمة دراسة تاريخ الطَّقس المقارن بين الكنائس المختلفة. ونود هنا أن نعرض للقوانين التي تحكم تطوُّر النُّصوص اللِّيتورجيَّة، وبالتالي تساعدنا على تحديد العصور المختلفة التي ترتبط بهذا التطوُّر.

(١) تطوُّر النَّص اللِّيتورجي ينتقل من التَّركيب الأكثر بساطة إلى التَّركيب الأكثر تعقيداً. وعلى ذلك فإن التَّركيب اللِّيتورجي الأكثر

صرامة هو الأكثر بدائيَّة.

والمثال الواضح لذلك هو نص الدِّيداخي أي تعليم الرُّسُل[٣٨]، والذي لم يتعد نصه القرن الأوَّل الميلادي.

(٢) النُّصوص اللِّيتورجيَّة ذات الأصول اليهوديَّة هي الأكثر قدماً من تلك النُّصوص ذات الأصول الهيلينيَّة:

فإن كانت النُّصوص اللِّيتورجيَّة ذات أصول يهودية، فإن ذلك يعني أنها نصوص قديمة حتى ولو انحصرت في بعض طقوس مسيحيَّة دون غيرها، أو حتى إن وُجدت في واحد منها فقط. وفي المقابل فإن أي نص أو تركيب ليتورجي لا مقابل له في أي نوع من صلوات المجمع اليهودي، يُعتبر أكثر حداثة من سابقه.

والنُّصوص اللِّيتورجيَّة للأنافورات المختلفة في كافة الطُّقوس الشَّرقيَّة هي خير مثال على ذلك. فالأنافورات لها أصول إما يهوديَّة مسيحيَّة Judeo - Christian Origins أو أصول هيلينيَّة بحتة Hellenistic Origin .

فالأصل اليهودي المسيحي يبدأ نصه اللِّيتورجي بالتَّحية من الكاهن للشَّعب، ويعقبه مباشرة فعل الشُّكر "نشكر – Εὐχαριστοῦμεν".

أما الأصل الهيليني البحت، فهو أيضاً يبدأ بالتَّحيَّة، ولكن يعقبه مباشرة وبعد النِّداء "القلوب إلى فوق" صيغة ليتورجيَّة مرتبطة أساساً بالطلبة "القلوب إلى فوق" دون فعل "شكر" يتبعها مباشرة. ومن هذين النَّوعين أو الشَّكلين لمقدِّمة الأنافورا تقع كافة اللِّيتورجيَّات شرقاً وغرباً. فالأنافورات التي من أصل يهودي تُرتب الصَّلاة فيها على أفعال الشُّكر "فلنشكر"، وتلك التي من أصل يوناني بحت تُرتِّب الصَّلاة فيها على نداء "ارفعوا قلوبكم". ونموذج هذا الشَّكل الأخير هو الصِّيغة اللِّيتورجيَّة

٣٨– هو الكتاب الأول من السِّلسِّلة الأولى من هذه الدِّراسات. طبعة أولى يناير ٢٠٠٠م، طبعة ثانية، يناير ٢٠٠٦م. وقد تُرجم من اليونانية مباشرة مع دراسة شاملة له.

المارونية السَّابق ذكرها لتبريك المعموديَّة[٣٩].

(٣) النَّص اللِّيتورجي الأقدم هو الأقل تأثراً بنصوص الكتاب المقدَّس، والأكثر حداثة هو الأكثر إقتداء بها، حيث ينسج على نسقها[٤٠].

وهذه العلاقة بين الليتورجيَّا والكتاب المقدَّس ذات أهميَّة جوهريَّة، وهنا ينبغي توخي الحذر في تطبيق هذا القانون، لأن اللُّغة التي يستخدمها أحياناً كاتب أحد الأسفار الإلهيَّة هي في الحقيقة صدى للغة ليتورجيَّة استقرت فعلاً في وجدان الجماعة المسيحيَّة الأولى. بمعنى آخر؛ نصوص الكتاب المقدَّس في بعض أجزاء منها هي ترديد لنصوص ليتورجيَّة استقرت بين الجماعات المسيحيَّة المبكِّرة قبل تسجيل هذه النُّصوص في الأسفار المقدَّسة.

ولنأخذ مثالاً لذلك، وهو الجزء الشَّهير من رسالة القدِّيس بولس الرَّسول إلى أهل فيلبي: «لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السَّماء، ومن على الأرض، ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب».

فنفس هذه الصيغة الكتابيَّة جاءت في اللِّيتورجيَّة البيزنطيَّة كمرد على قول الكاهن "القُدسات للقدِّيسين"، هكذا: "واحد هو القدُّوس الرَّب يسوع المسيح لمجد الله الآب. آمين". ونفس هذا النَّص يتكرَّر مرَّة ثانية في موضع آخر من اللِّيتورجيَّة البيزنطيَّة، وذلك في الكلمات الأخيرة من المجدلة الكبرى Gloria in Excelsis "المجد لله في الأعالي ... لأنك أنت وحدك القدُّوس، أنت وحدك الرَّب يسوع المسيح لمجد الله الآب".

39- Anton Baumstark, *op. cit.*, p. 90, 91.

٤٠- ولكن ينبغي ألاَّ تُطبَّق هذه النظرية تطبيقاً عاماً بلا استثناءات له، لأن الصَّلوات التي وردت في الرسالة الأولى إلى كليمندس الروماني (٥٩- ٦١م) ممتلئة بإشارات وتلميحات كتابية كثيرة. ولكن في حالة رواية التأسيس في الإفخارستيَّا، فإن روايات التأسيس المبكرة أو الأكثر قدماً هي بالفعل الأكثر تحرراً من النصوص الكتابية.

ألا نتوقَّع إذاً أن تكون هذه الآية التي ذكرها القدِّيس بولس الرَّسول في رسالته إلى أهل فيلبي جزءاً من مرد لنداء مشابه؟

(٤) النَّص اللِّيتورجي الأكثر حداثة يُشحن غالباً بعناصر تحوي كثيراً من التَّعاليم الإيمانيَّة التي تشرح الإيمان شرحاً مستفيضاً. أما الصِّيغ اللِّيتورجيَّة المبكِّرة، والتي صيغت بفطرة الجماعة المسيحيَّة الأولى كانت غالباً خالية من مثل هذه العناصر. فإن عُدنا إلى الفترة المحصورة بين القرنين الرَّابع والخامس الميلاديين، نجد أن النُّصوص اللِّيتورجيَّة قد حملت كثيراً من العبارات اللاهوتيَّة، إضافة إلى اللاهوت الجدلي أيضاً، والمباحثات العقيديَّة.

ويمكننا أن نشعر بهذه الرُّوح الجديدة في أنافورا القدِّيس سرابيون أسقف تمويس، وصديق البابا أثناسيوس الرَّسولي.

(٥) النُّصوص اللِّيتورجيَّة المتأخِّرة (أي الأكثر حداثة) تتطوَّر في اتجاه اتخاذها لشكل خطابي حماسي، ثم تصبح شيئاً فشيئاً أسيرة فصاحة وبلاغة لغوية.

ومثل هذه العبارات البليغة والفصيحة تغيب تماماً في صلوات الدِّيداخي، وأنافورا التَّقليد الرَّسولي لهيبوليتس.

وتحت تأثير العبارات اللاهوتيَّة البليغة التي أكسبت النُّصوص اللِّيتورجيَّة خاصيتها الحماسيَّة، وشحنتها بالعقيدة واللاهوت، أصبحت نصوص الصَّلوات تحت تأثيرها، ذات بنية وتركيب رسمي مُتقن، خاضع لقوانين البلاغة، ومتوافقاً مع أصول نشأتها. هذا الميل إلى البلاغة والذي ازداد وضوحاً مع توالي الزَّمن في العبارات اللِّيتورجيَّة يقودنا لفحص أسلوبها فحصاً منهجياً، وهو واحد من أهم المهام وأكثرها إلحاحاً في دراسة الطَّقس المقارن.

٥ ـ أساليب النُّصوص اللِّيتورجيَّة

إذا أخذنا في الاعتبار الشَّكل العام لنصوص الصَّلوات، ومادة إنشائها، أو تركيبها اللُّغوي، فإننا سنميِّز بوضوح بين ثلاثة أساليب لها هي:

- الأسلوب اللِّيتورجي ذو الأصل اليهودي.
- الأسلوب اللِّيتورجي ذو الأصل الهيليني، حيث نشأت اللِّيتورجيَّة المسيحيَّة وتطوَّرت.
- الأسلوب اللِّيتورجي الذي تشكَّل بواسطة جماعات مسيحيَّة بعيداً عن أي تأثير يهودي أو يوناني قديم.

(أ) الأسلوب اللِّيتورجي ذو الأصل اليهودي

كانت العبادة اليهودية في أيام الآباء الرُّسُل قد تحدَّدت تحديداً نهائياً، واتَّخذت شكلها الطَّقسي المحدَّد. فصلاة البَركة اليهوديَّة Barâkhâ تبدأ بصيغة "مبارك أنت أيها الرَّب إلهنا"، وهذه الصيغة التمهيديَّة يتبعها تسبيح مطوَّل لله، أما الخاتمة فهي طلبة تحوي فيها المقدِّمة، ومادة التَّسبيح نفسها في اختصار.

وفي شكل مقابل لهذه البَركة اليهوديَّة وُجدت في النُّصوص المسيحيَّة صلوات تبدأ بالكلمة اليونانيَّة "مبارك - Εὐλογητός" ظهرت في كثير من المجتمعات المسيحيَّة. وظهرت مبكِّرة جداً في كتاب العهد الجديد، ونحن نشير هنا إلى صلاة زكريا الكاهن Benedictus (لوقا ١:٦٨) التي تبدأ بنفس هذه الكلمة. وفي بعض أجزاء من الرَّسائل في العهد الجديد. وهنا تكون لغة الإنجيل هي رجع الصَّدى لليتورجيَّة قديمة. ولم تخل اللِّيتورجيَّات الشَّرقيَّة أبداً من هذا الشَّكل من الصَّلوات، وكذلك النُّصوص المقدَّسة عموماً. ولقد ظهر هذا الأسلوب من الصَّلوات بوضوح

في نصوص الصَّلوات الأرمينيَّة واليونانيَّة كما في صلاة الإكليل[٤١]، حيث أن أوَّل كلمات هذا الطَّقس هي: ""مباركٌ أنت أيها الرَّب إلهنا ..."" وهي ترجمة حرفيَّة للصِّيغة اليهوديَّة. ونجد نفس الشئ أيضاً في طقس المعموديَّة.

وكمثال آخر لهذا الأسلوب الأوَّل من النُّصوص اللِّيتورجيَّة ذات الأصل اليهودي، كلمة ""فلنشكر"" وهي الكلمة الافتتاحيَّة لكثير من الصَّلوات اليهوديَّة. وكمثال لذلك نجدها في صلاة البَركة الثامنة عشر الشَّهيرة والتي يرتِّلها اليهود ثلاث مرَّات في اليوم. وهذا الفعل ""يشكر"" في العبريَّة لم يُترجم في السبعينيَّة إلى ""يشكر – εὐχαριστεῖν"" ولكنه كان يُترجم دائماً إلى ""يعترف – ὁμολογεῖν"". ولكنه ظهر فقط في صيغة الشُّكر في الأسفار القانونيَّة الثّانية – Deutero - Canonical Books .

وهذا الفعل العبري قد ظهر في الوسط المسيحي في صيغة ""نشكر – εὐχαριστοῦμεν"" حيث دخل في صلوات الدِّيداخي وأنافورا هيبوليتس. ودخل أيضاً في كثير من صيغ الصَّلوات المسيحيَّة، ليس في صلوات الإفخارستيَّا فحسب، بل وفي كثير من صلوات الخدمات الكنسيَّة على اختلاف أنواعها، حتى في صلاة التَّجنيز كما نرى ذلك واضحاً في الطَّقس القبطي، ومعه أيضاً الطَّقس البيزنطي. وتغلغل هذا الفعل ""يشكر"" في جميع صلوات الكنيسة القبطيَّة على اختلافها، وهو معروف ومألوف تماماً للقارئ القبطي.

ونورد أيضاً مثالاً ثالثاً لهذا الأسلوب الأوَّل من النُّصوص اللِّيتورجيَّة ذات الأصل اليهودي. فهناك تراث يهودي ورثته صيغ الصَّلوات الإفخارستيَّة في الكنيسة المسيحيَّة. وهو مقتبس من الكتاب المقدَّس، حيث ثبت استخدامه بوضوح في هذه الصَّلوات. فقد أُدخلت هذه الاقتباسات الكتابيَّة في ليتورجيَّة المجمع اليهودي تحت صيغ ""كما

٤١– تُسمى في الكنيسة اليونانيَّة Ἀκολουθία τοῦ στεφανώματος

قيل"، "كما هو مكتوب".

فعلى سبيل المثال، يأتي في نهاية صلاة تُسمى Jôzêr في المجمع اليهودي اقتباس من المزمور (٧:١٣٦) «الصَّانع أنواراً عظيمة، لأن إلى الأبد رحمته» مسبوقاً بصيغة "كما قيل"، ونجد حالات كثيرة مثل هذه في الصَّلوات البيزنطيَّة، وربما لا تخلو صفحة من صفحات كتاب الإفخولوجيون البيزنطي دون ذكر لهذه الصِّيغة. واخترنا على سبيل المثال "صلاة المسحة الكُبرى[٤٢]"، والتي تبدأ بعبارة "يا الله العظيم المرتفع – Ὁ Θεὸς Ὁ μέγας καὶ ὕψιστος" حيث نجد ما لا يقل عن أربع مرَّات صيغة "أنت هو القائل – σὺ εἶ ὁ εἰπών" ثلاث منها هي اقتباسات من العهد الجديد (من الأناجيل)، والاقتباس الرَّابع عبارة لم يسبق ذكرها، تقول: "كلما سقط، انهضه ليخلص – Ὁσάκις ἄν πέσῃ ἔγειραι καὶ σωθήσῃ".

العلاقة بين النُّصوص اللِّيتورجيَّة الشعريَّة والنثريَّة ذات الأصل اليهودي

تتَّفق آراء جميع الباحثين عن وجود علاقة تربط بين النُّصوص الشعريَّة Poetry أي الموضوعة في قالب شعري، وتلك التي دُوِّنت في صيغة نثريَّة Prose ، وارتباط كل من هذين النَّوعين (الشِّعري والنَّثري) مع النُّصوص اليهوديَّة القديمة في المجمع اليهودي. فالكنيسة المسيحيَّة لم تأخذ فقط كل كتاب العهد القديم كميراث من المجمع اليهودي Synagogue ولكنها أيضاً جعلت من كتاب المزامير أهم وأكرم سفر للتَّرتيل والتَّسبيح في العهد الجديد.

على أننا نلاحظ أن هناك اختلافاً رئيسياً في ذلك بين الشَّرق والغرب. فالشَّرق المسيحي اعتمد في نصوص صلواته اللِّيتورجيَّة على الشَّكل الشِّعري المنظوم metrical form معتبراً إياه نصاً ليتورجياً ملزماً

٤٢– هي صلاة مسحة المرضى في الطَّقس البيزنطي.

لا غنى عنه. أما الغرب المسيحي فقد اعتمد على النَّص الكتابي، أي النَّص كما ورد في الأسفار المقدَّسة في كلا العهدين القديم والجديد، جاعلاً منه مادة لترتيل الأنتيفونات والمردَّات.

وكان لاستخدام المزامير نموذجان متمايزان، ظهرا كلاهما في العصور المبكِّرة للمسيحيَّة.

النموذج الأوَّل: وفيه يحتوي النَّص اللِّيتورجي على عناصر شعريَّة منظومة، حيث يأتي المزمور أو جزء منه معبراً على واحد فقط من هذه العناصر الشعريَّة المنظومة Poetry .

النموذج الثَّاني: وفيه يحتوي النَّص اللِّيتورجي على عنصر شعري منظوم يحتل مكاناً أقل أهميَّة في النَّص بالمقارنة مع نصوص آيات المزامير التي تُحفظ بكليَّتها في النَّص.

وعن النموذج الأوَّل نجد في التَّقليد السِّرياني نصاً ليتورجياً يُصلَّى يوم الجمعة العظيمة منسوب للقدِّيس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م)، يحوي بيتاً شعرياً واحداً متبوعاً بآية واحدة من المزامير. وهناك نص ليتورجي آخر للقدِّيس ساويرس الأنطاكي يُسمَّى "oktoichos = الثامن" في شكل أنتيفونا Ἀντίφωνα' وهو ما يُعرف باسم 'onîthâ (عونيتا) في الطَّقس الكلداني.

وفي كتاب الأنتيفونات السِّرياني نجد أن كل أنتيفونا يتبعها عادة آيتان من المزامير، ويتكرَّر النَّص الشِّعري هو نفسه بعد كل آية منهما. ولكن بعد أن طرأ على هذه النُّصوص تطوُّر شعري، أصبحت البنية أو الوحدة اللِّيتورجيَّة تتكوَّن من مجموعة من الأبيات الشِّعريَّة المنظومة، يتبعها عدد مساوٍ لها من آيات من المزامير، حيث يُختم هذان القسمان بتمجيد للثَّالوث على مردين، "المجد للآب ..."، "الآن وكل أوان ...".

وإن مثل هذا التَّعاقب المنتظم بين النُّصوص اللِّيتورجيَّة الشِّعريَّة الموزونة، وبين ما يتبعها من آيات من سفر المزامير، لا نجده في طقس روما، حيث أن النَّص اللِّيتورجي في طقس روما هو عادة مقطوعة كاملة من نص كتابي من الأسفار المقدَّسة. وفي العصور الوسطى سُمي هذا النَّص الكتابي باسم historia .

بالإضافة إلى ذلك، فهناك نقطة أخرى هامة تميِّز نصوص الصَّلوات اللِّيتورجيَّة ذات المرد response في الشَّرق المسيحي عنها في طقس روما. فطقس روما لا يحوي تمجيداً للثالوث في معظم نصوصه اللِّيتورجيَّة ذات المرد، على عكس الشَّرق المسيحي الذي لا تخلو نصوص صلواته اللِّيتورجيَّة ذات المرد من تكرار لا يمل لتمجيد الثَّالوث، الآب والابن والرُّوح القُدُس.

أما عن النموذج الثَّاني والذي يأتي فيه العنصر الشِّعري أقل شأناً من النَّص المزموري أو الكتابي بوجه عام، فهو ما نجده واسع الانتشار عند الأقباط والسِّريان الأنطاكيين والبيزنطيين.

ويُسمَّى هذا النَّوع عند الأقباط "الهوسات" في تسبحة نصف الليل، أو "الهوس الكبير" في تسبحة الأعياد الكنسيَّة الكُبرى.

ويُسمى عند السِّريان 'Eniânâ (عينيانا).

ويُسمَّى عند البيزنطيين Canons (قوانين)، وهي التَّسابيح التسعة.

وهذا النَّوع من النُّصوص اللِّيتورجيَّة معروف أيضاً عند الأرمن والأحباش[٤٣]. أي أن الكنائس الشَّرقيَّة كلها تعرفه جيداً.

إلاَّ أن ثمة ملاحظة جديرة بالاعتبار هنا؛ وهي أن هذا النَّوع من النُّصوص اللِّيتورجيَّة الكتابيَّة، وعلى الرَّغم من أنه استعار في بعض الأحيان نصوصاً من أسفار العهد الجديد، إلاَّ أن الكم الأكبر فيه يعود إلى

43- Anton Baumstark, *op. cit.*, p. 107- 109.

أسفار العهد القديم على وجه التّحديد، لذلك فقد أدرجناه تحت الأسلوب الأوّل من أساليب النُّصوص اللّيتورجيّة المسيحيّة، وهي ذات الأصل اليهودي.

(ب) الأسلوب اللّيتورجي ذو الأصل الهيليني

إن الصَّلاة Barâkhâ اليهوديّة هي في أساسها صلاة "تسبيح وشُكر"، أما ما يناظرها في الكنيسة المسيحيّة فهي صلاة Εὐχή أي: "طلبة وتوسُّل" ، كما يدل اسمها في اليونانيّة. وهذه الخاصيّة قد انحدرت إلينا بلا شك من الصَّلاة الربيّة، فحتى التّسبيح نفسه يُعتبر شكلاً من أشكال الطلبة والتوسُّل.

ونستطيع هنا أن نرى تأثير الوسط الهيليني الذي اعتاد أن يصيغ موضوع الصّلاة في شكل طلبة وتوسُّل. وعلى ذلك فإن اللّيتورجيّة المسيحيّة في صلواتها قد نشأت من مثل هذا التّوافق أو التّناسق بين تلك الصّيغة ذات الخاصيّة التوسليّة، وتلك الصّيغة الأخرى ذات الشُّكر والتّسبيح التي ورثتها من المجمع اليهودي.

وبنية الصّلاة المسيحيّة ذات التأثير الهيليني تتكوّن من أربعة أجزاء: المقدّمة، وهي الخطاب الموجّه إلى الله. والتّسبيح، وهو مطوّل أحياناً. والتوسُّل. ثم الخاتمة أو الخلاصة. وسنكتفي بإلقاء بعض الضّوء على المقدّمة والخاتمة، أي الجزئين الأوّل والرّابع.

المقدّمة

من أشهر الصّيغ الشّائعة لهذه المقدّمة، والتي تطوّرت عنها جميع الصّيغ الأخرى صيغة "أيها الرب إلهنا - Κύριε ὁ Θεὸς ἡμῶν " وهي ترجمة حرفية لصلاة البَركة اليهوديّة. وهذه الصّيغة معروفة في كثير من الطّقوس الشّرقيّة، وهي شائعة الاستخدام جداً في الطّقس القبطي بعد أن

تطوَّرت عنها صيغ أخرى كثيرة:

- "أيها السيِّد الرَّب يسوع المسيح إلهنا".
- "يا الله العظيم الأبدي الذي بلا بداية ولا نهاية، العظيم في مشورته، والقوي في أفعاله ...".
- "أيها الطويل الأناة ...".
- "أيها الكائن السيِّد الرَّب إله الحق ...".
- "أيها السيِّد الرَّب العظيم الأبدي ...".
- "يا رئيس الحياة وملك الدُّهور، كلمة الله الآب، ربنا وإلهنا ...".

ولكن من بين هذه الصِّيغ الكثيرة نعرف قليلاً عن مصدرها، أو الموطن الذي نشأت فيه مثل صيغة:

- "أيها المسيح إلهنا القوَّة المخوفة، غير المفهومة التي لله الآب ..."، وهي مقدِّمة صلاة صُلح للأنبا ساويرس الأنطاكي (القرن السَّادس).
- "يا إله المحبَّة، ومعطي وحدانية القلب ..."، وهي صلاة صُلح للقدِّيس يوحنا ذهبي الفم (القرن الرَّابع) في بداية القدَّاس الكيرلسي القبطي ... الخ.

ولكن هذه الصِّيغ الشَّرقيَّة نادرة في طقس روما. ذلك لأن طقس روما يخاطب الله بالكلمة المفردة "يا الله – Deus" حيث يتبعها عادة بأحد الصِّفات الإلهيَّة مثل: "omnipotens = كلي القُدرة"، و"aeternus = الأزلي"، و"sempiternus = الأبدي"، و"misericors = الرَّحوم". وفي الغالب تكون هذه الصِّفات مزدوجة، أي مجموعة من الصِّفات، كل مجموعة من صفتين. وبحسب الأسلوب البلاغي المعروف جيداً، فإن طقس روما يستخدم جملة تتكوَّن من ثلاثة شطرات Kola، الشَّطرة الأولى من كلمة واحدة، والشَّطرة الثَّانية من كلمتين، والشَّطرة الثالثة من ثلاث كلمات كما في المثل الشَّائع:

أيها السيِّد	Domine
الآب القدُّوس	Sancte Pater
الله القادر الأزلي.	Omnipotens aeterne Deus

أما في الشَّرق المسيحي، فإنه تحت تأثير النَّماذج الهيلينيَّة أو الفلسفيَّة اليونانيَّة، فقد حدث تطوُّر غزير في هذا المفهوم، أي مفهوم مخاطبة الله في الصَّلاة في شكل صفات عكسيَّة، أو ما يُعرف باسم "اللاهوت السَّلبي - Apophatic or negative theology" أي بوضع كلمة "غير" (والتي يقابلها الحرف اليوناني α) قبل الصِّفة، وذلك طبقاً لنظريات الفلسفة القديمة التي تميل إلى وصف أو تعريف من يتعذَّر وصفه بهذا الأسلوب العكسي.

وقداس القدِّيس سرابيون هو مثال واضح لذلك، حيث تصف هذه اللِّيتورجيَّة الله بالصِّفات الآتية:

"غير المخلوق" ἀγένητε	"غير المفحوص" ἀνεξιχνίαστε
"غير الموصوف" ἀνέκφραστε	"غير المدرَك" ἀκατανόητε

وهو الأسلوب اللِّيتورجي الذي نجده بوفرة في اللِّيتورجيَّة القبطيَّة، وصلوات الخدمات الكنسيَّة الأخرى، لاسيَّما التَّسبحة اليوميَّة.

وفي مستهل صلاة الإفخارستيَّا في الكتاب الثَّامن من المراسيم الرَّسوليَّة (٨:١٢:٦، ٧) نجد نفس الأسلوب أيضاً، والمثل هنا هو طبقاً للتَّقليد السوري الأنطاكي:

"مستحق وعادل بالحقيقة، أن نسبِّحك قبل كل شئ. أنت الإله الحقيقي الكائن قبل كل الكائنات، الذي منه تُسمى كل أبوة في السَّموات وعلى الأرض. غير المولود وحده، وغير المبتدئ. غير المملوك وغير المسود (الذي لا سيِّد له). غير المحتاج ... المعرفة التي لا بدء لها، والرؤيا السَّرمديَّة، والسَّمع غير المولود، والحكمة غير المكتسبة ... الخ".

وهناك نموذج آخر تنتهجه الفلسفة اليونانيَّة القديمة، وهو استخدامها للصِّفات في تضاهي وتناغم بينها. وكمثال لذلك هو ما نجده في صلاة مسحة المرضى في الطَّقس البيزنطي، حيث تبدأ الصَّلاة هكذا:

"الصَّالح،	ومحب البشر،
الرءوف،	والرَّب الكثير الرَّحمة،
الغزير في الرَّحمة،	والغني في الصَّلاح،
أبو الرأفات،	وإله كل عزاء".

وهذه العبارات الأربع السَّابقة والتي تتكون كل منها من شطرتين، موضوعة في تناسق مدروس يخضع لأسلوب الفلسفة اليونانيَّة القديمة. فأوَّل شطرتين من الجملة الأولى تتكوَّن في بساطة من صفتين مفردتين هما "صالح – Ἀγαθέ"، و"محب البشر – φιλάνθρωπε". وكل شطرة من الجملة الثَّالثة تحوي صفتين ترتبطان بحرف العطف "في – ἐν". أما الشَّطرتان في الجملة الرَّابعة، فإن الاسم في كل منهما يأتي متبوعاً بصفة تتمِّمه في حالة المضاف إليه. وذلك طبقاً لنظام شائع الاستعمال جداً في الصَّلوات اللِّيتورجيَّة التي تستخدم الأسلوب الخطابي.

ونضيف هنا أيضاً مثالاً أخيراً لهذا التَّوافق أو التَّناسق اللُّغوي، وهو هذه المرَّة من طقس الزَّواج.

"يا كاهن العُرس السِّري غير الدَّنس	Ὁ τοῦ μυστικοῦ καὶ ἀχράντου γάμου ἱερουργὸς
واضع النَّاموس الجسداني	καὶ τοῦ σωματικοῦ νομοθέτης
وحافظ عدم الفساد	Ὁ τῆς ἀφθαρσίας φύλαξ
والمدبِّر الصَّالح للأحياء".	καὶ τῶν βιωτικῶν ἀγαθὸς οἰκονόμος

فنحن هنا أمام شطرتين مزدوجتين double kola كل منهما تتكوَّن

من اسمين يسبق كل منهما تتمَّة في حالة المضاف إليه، وهناك وصلة ترقيميَّة بين الشَّطرة الأولى والرابعة.

الخاتمة

وهي الجزء الرَّابع والأخير من مكوِّنات النَّص اللِّيتورجي ذات الأصل الهيليني، وهذه الخاتمة هو ما نسميه دوماً بـ "الذُّكصولوجيَّة"، وهي تعريب الكلمة اليونانيَّة δόξα أي "المجد". أو ما يقابلها في اللُّغات الأخرى. وبينما اختفت هذه الذُّكصا من المجمع اليهودي في العصور الحديثة، فإن صيغة الذُّكصا في العبادة المسيحيَّة أصبحت عنصراً سائداً. وبدلاً من الختام القديم لصلاة البَركة اليهوديَّة، وضعت الدَّيداخي الصِّيغة الختاميَّة التالية في صلاة الإفخارستيَّا: "لك المجد إلى الآباد"، أو مع صيغة تبادلية أخرى: "لأن لك المجد والقوَّة بالمسيح يسوع إلى الآباد". ولقد انتشرت صيغة الدَّيداخي في الشَّرق انتشاراً واسعاً، وتطوَّرت كثيراً.

ويلاحظ القارئ أن الذُّكصا الختاميَّة في التَّقليد القبطي تضيف دائماً كلمة "والمُلك" في عبارة "لأن لك **المُلك** والقوَّة والمجد إلى الآباد". وتأتي أيضاً نفس هذه الصِّفة في تسبحة الكنيسة في أسبوع الآلام "يا عمانوئيل إلهنا **وملكنا** ..." وهي صفة تميِّز الطَّقس القبطي على غيره من الطُّقوس الشَّرقيَّة الأخرى.

وهناك صيغة ختاميَّة مشابهة تماماً لصيغة الدَّيداخي تأتي في ختام صلاة الإفخارستيَّا الكُبرى (صلاة الشُّكر الكُبرى) في التَّقليد الرَّسولي لهيبوليتس، وهي صيغة تقال أيضاً عند كل بركة.

وإلى عدة قرون متأخِّرة كانت صيغة: "لأن منه وبه وفيه (أي الابن) يا الله الآب القدير في وحدانيَّة الرُّوح القُدُس، يليق بك كل كرامة ومجد إلى أبد الدُّهور"، هي خاتمة صلوات القدَّاس في روما.

ومع مرور الزَّمن وانتشار البدعة الأريوسيَّة التي أقلقت الكنيسة يبدو أن تعبير "الذي **به** (أي بالابن) لك المجد" قد أعطى انطباعاً مشوَّشاً لمفهوم تساوي الأقانيم، فتحوّلت العبارة في بعض الطُّقوس الشَّرقيَّة إلى "ولك المجد **معه**" لتزيل كل غموض في معنى تساوي الأقانيم.

ومع ذلك ظلَّت الصِّيغة القديمة "الذي به لك المجد" تُردَّد حتى اليوم في ختام نصوص الصَّلوات اللّيتورجيَّة في الكنيسة القبطيَّة مع تعديل بسيط ينفي أي لبس في مفهوم تساوي الأقانيم: "... بالنِّعمة والرأفات ومحبَّة البشر اللواتي لابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلِّصنا يسوع المسيح، **هذا الذي من قِبَله** المجد والكرامة والعز والسُّجود، تليق بك، معه ومع الرُّوح القُدُس المحيي المساوي لك، الآن وكل أوان وإلى دهر الدُّهور كلها آمين".

وكما سبق أن ذكرنا، فإن ختام صلاة البَركة اليهوديَّة تحوي ملخَّصاً لصيغة المقدِّمة فيها، فيورد الختام ملخَّصاً لما احتوت عليه المقدِّمة من تسبيح، وهذا هو نفس ما نجده في كتاب الأفخولوجيون البيزنطي حتى اليوم تحت صيغة: "لأنك أنت هو ... وبك نرفع مجداً إلى الآب ... الخ".

وكأمثلة لذلك، ختام صلوات مسحة المرضى في الطَّقس البيزنطي حيث يقول: "لأنك أنت نبع الشِّفاء أيها المسيح إلهنا، ولك المجد ...". والصَّلاة القديمة التي تقال على المنتقلين "يا إله الأرواح وكل جسد ...".

وكذلك النَّص الذي حُفظ في كل المخطوطات القديمة التي تعود إلى النوبة المسيحيَّة قديماً "لأنك أنت هو قيامة وحياة وراحة عبدك الذي رقد، ولك المجد ...".

والصِّيغ الكثيرة التي وردت في اللّيتورجيَّة القبطيَّة مثل ختام أوشيَّة الإنجيل "لأنك أنت هو حياتنا كلنا، وخلاصنا كلنا، ورجاؤنا كلنا، وشفاؤنا كلنا، وقيامتنا كلنا، وأنت الذي نرسل لك إلى فوق المجد ...".

إنها دراسة لا تخلو من صعوبة، حينما نبغي أن نتعرَّف على الموطن

الذي نشأت فيه كل صيغة من الصِّيغ اللِّيتورجيَّة، سواء في مقدِّمتها أو في خاتمتها، وهذه مجرد خلفيَّة بسيطة عن أشكال النُّصوص اللِّيتورجيَّة، وطبيعة تكوينها، وقوانين تطوُّرها، وأهميَّة دراستها دراسة مقارَنة مع الطُّقوس المختلفة، ولكن لازال الموضوع يحتاج إلى دراسة متخصِّصة.



الفَصل الخَامس

كنائس الشَّرق وتأثير روما عليها

أولاً: حصر بكنائس الشَّرق المسيحي

(١) الكنيسة الآشوريَّة

وتُسمى أيضاً الكنيسة السِّريانيَّة الشَّرقيَّة. وهي تضم الآن:

(أ) كنيسة المشرق الآشوريَّة - جماعة التَّقويم الجديد (شيكاغو).

(ب) كنيسة المشرق الآشوريَّة - جماعة التَّقويم القديم (بغداد).

(ج) الكلدان.

(د) المالابار السِّريان في الهند.

وهي توجد في سوريا والعراق وإيران والهند والأمريكتين.

(٢) الكنائس الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة القديمة

(أ) الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة.

(ب) الكنيسة الإثيوبيَّة الأرثوذكسيَّة.

(ج) الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكية الأرثوذكسيَّة[١].

١- الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكية ذات التقليد السرياني الغربي تنقسم اليوم إلى الكنائس الآتية:

(أ) السِّريان الأرثوذكس من بطريركية أنطاكيا بما فيها كنيستها في الهند.

(ب) السِّريان الأرثوذكس لكنيسة مالانكار المستقلة في الهند.

(ج) السِّريان الكاثوليك.

(د) الموارنة.

(هـ) كاثوليك مالانكار في الهند.

(د) كنيسة المالابار الأرثوذكسيَّة بالهند.

(هـ) الكنيسة الأرمينيَّة الأرثوذكسيَّة.

(و) كنيسة إريتريا الأرثوذكسيَّة.

(٣) الكنائس الأرثوذكسيَّة البيزنطية

(أ) أربعة بطريركيَّات قديمة:

١- بطريركية القسطنطينيَّة: وتشمل الأرثوذكس المقيمين في تركيا، والجزر اليونانيَّة الاثني عشر، وجبل آثوس، وجزيرة كريت. بالإضافة إلى كنائس المهجر كما في سويسرا، والولايات المتَّحدة الأمريكيَّة[٢]، وغيرها.

٢- بطريركيَّة الإسكندريَّة للرُّوم الأرثوذكس في مصر وأفريقيا.

٣- بطريركيَّة أنطاكية للرُّوم الأرثوذكس في سوريا ولبنان والعراق.

٤- بطريركيَّة أورشليم: وتشمل الأرثوذكس في فلسطين وشرق الأردن.

(ب) خمس بطريركيَّات حديثة

٥- بطريركية موسكو: أو كنيسة روسيا. وترتبط بها الجماعات الأرثوذكسيَّة في الصين واليابان.

٦- بطريركية صربيا: في جمهورية صربيا (يوغوسلافيا سابقاً)[٣].

٧- بطريركية رومانيا: في جمهورية رومانيا[٤].

٨- بطريركية بلغاريا: في جمهورية بلغاريا[٥].

٢- الكنيسة الأرثوذكسيَّة في أمريكا، لم يعترف بها البطريرك المسكوني حتى اليوم، وكان أساقفة أمريكا الأرثوذكس قد عقدوا اجتماعهم السنوي المُعتاد في إبريل سنة ١٩٦٩م، وقرروا أن يرفعوا طلباً إلى البطريرك المسكوني أثيناغوراس لكي تدرج قضية الكنيسة الأرثوذكسيَّة في أمريكا على جدول أعمال المؤتمر الأرثوذكسي العام المقرر عقده سنة ١٩٧٠م.

٣- تعداد الأرثوذكس فيها ٧ مليون نسمة، بحسب إحصائية سنة ١٩٧٠م.

٤- بها ١٢ مليون أرثوذكسي، بحسب إحصائية سنة ١٩٧٠م.

٩- بطريركية جورجيا: في جمهورية جورجيا[٦].

(ج) الكنائس المستقلَّة إدارياً: وهي تتبع بطريركيَّة القسطنطينيَّة تبعيَّة شرفيَّة وهي:

١٠- كنيسة قبرص: في جزيرة قبرص[٧].

١١- كنيسة اليونان: في جمهورية اليونان[٨].

١٢- كنيسة تشيكوسلوفاكيا[٩]:

١٣- كنيسة بولندا: في جمهورية بولندا[١٠].

١٤- كنيسة ألبانيا: في جمهورية ألبانيا[١١].

١٥- كنيسة فنلندا: في جمهورية فنلندا[١٢].

(٤) الكنائس الشَّرقيَّة الكاثوليكيَّة

وهي الكنائس التي أعلنت اتحادها بكنيسة روما. وقد لُقِّبت منذ سنة ١٥٩٥م باسم "الكنائس المتَّحدة - Uniat Churches [١٣]" أي المتَّحدة مع روما، ولكن مع المحافظة على لغتها الوطنيَّة، وطقوسها المحليَّة. أما قانونها التَّشريعي فهو وفقاً لشرع كنسي موحَّد لهذه الكنائس، حيث أُنشئت لجنة

٥- بها ٦ مليون أرثوذكسي، بحسب إحصائية سنة ١٩٧٠م.

٦- بها ٢ مليون أرثوذكسي، بحسب إحصائية سنة ١٩٧٠م.

٧- بها نصف مليون أرثوذكسي، بحسب إحصائية ١٩٧٠م.

٨- بها ٨ مليون أرثوذكسي، بحسب إحصائية ١٩٧٠م.

٩- بها ربع مليون أرثوذكسي، بحسب إحصائية ١٩٧٠م. وقد انقسمت إلى جمهوريتي التشيك، وسلوفاكيا.

١٠- تعداد الأرثوذكس فيها ثلث مليون نسمة، بحسب إحصائية ١٩٧٠م.

١١- تعداد الأرثوذكس فيها ربع مليون نسمة، بحسب إحصائية ١٩٧٠م.

١٢- تعداد الأرثوذكس فيها ٧٠ ألف نسمة، بحسب إحصائية ١٩٧٠م.

١٣- من الكلمة اللاتينية Unio وهي في البولندية أيضاً Unia.

مشتركة تتمثّل فيها كل هذه الكنائس لوضع قانون شرقي موّحد. وقد حدث هذا بالفعل. ويجمع هذه الكنائس كلها "المجمع الشّرقي في روما".

وهذه الكنائس بحسب تاريخ انضمامها إلى روما هي:

١- الكنيسة المارونيَّة الكاثوليكيَّة: وانضمت إلى روما سنة ١١٨٢م، وهي منتشرة في سوريا ولبنان والعراق وإيران والقسطنطينيَّة.

٢- الكنيسة الأرمينيَّة: تحت رئاسة بطريرك كيليكيا. واتحدت مع روما سنة ١١٩٨م، ثم سنة ١٢٩١م، ثم سنة ١٧٤١م.

٣- الكنيسة الكلدانيَّة: واتحدت مع روما سنة ١٥٥١م، ثم سنة ١٨٣٠م، وأكثر أعضائها في العراق.

٤- كنيسة بولندا: وانضمت لروما سنة ١٥٩٥م.

٥- كنيسة المجر: وانضمت لروما سنة ١٥٩٥م.

٦- كنيسة المالابار في الهند: وانضمت إلى روما قبل سنة ١٥٩٩م، ثم في سنة ١٩٣٠م، وسُموا منذ ذلك التّاريخ باسم كنيسة المالانكار[١٤].

٧- كنيسة يوغوسلافيا: وانضمت لروما سنة ١٦١١م.

٨- كنيسة رومانيا: وانضمت لروما سنة ١٧٠١م، ثم عادت إلى الكنيسة الرُّوسيَّة سنة ١٩٤٨م.

٩- الملكيون: وهم يتبعون بطريركيَّة أنطاكية وسائر المشرق والإسكندرية وأورشليم للرُّوم الكاثوليك في الشّرق الأوسط والمهجر. وانضموا إلى روما سنة ١٧٢٤م.

١٠- الكنيسة القبطيَّة الكاثوليكيَّة: وانضمت إلى روما سنة ١٧٤١م.

١٤- تبعت هذه الكنيسة في الأصل الطّقس السرياني الشرقي، وبدءًا من القرن التاسع عشر تبنّت الطّقس السرياني الغربي نهائيا.

١١- كنيسة إثيوبيا: وانضمت إلى روما سنة ١٨٣٩م.

١٢- كنيسة اليونان: وانضمت لروما سنة ١٨٦٠م.

١٣ كنيسة أوكرانيا: وهي أكبر هذه الكنائس عدداً، وهي تُعد مثالاً صارخاً لتغلغل الكنيسة الكاثوليكيَّة في الشَّرق المسيحي، وقد كانت هذه الكنيسة تتبع الكنيسة الرُّوسيَّة الأرثوذكسيَّة. ولكنها بعد مراحل تاريخيَّة متعدِّدة انضمت إلى روما. واستقر الأمر على ذلك لاسيَّما بعد انهيار الشيوعيَّة سنة ١٩٨٩م، وتفكُّك ما كان يُعرف باسم الاتحاد السوفيتي.

وعدد أعضاء هذه الكنائس مجتمعة يربو على ١٢ مليون نسمة، نصفهم تقريباً من كنيسة أوكرانيا وحدها.

(٥) الكنائس الرُّوثينيَّة

تورد المراجع الطَّقسية تعبير "الكنائس الرُّوثينيَّة – Ruthenian Churches". وكلمة "روثينيا – Ruthenia" تعني "روسيا" في لغة العصور الوسطى اللاتينيَّة. ومنها اشتق اسم "الرُّوثينيم" وهو العنصر الفلزي الذي اكتُشف في جبال الأورال.

فالكنائس الرُّوثينيَّة هي بعض من الكنائس المتَّحدة Uniat Churches أي بعض من الكنائس الشَّرقيَّة التي اتَّحدت بروما. وهي توجد غالباً في أوكرانيا، وجزء من بولندا[١٥]، وتشيكوسلوفاكيا، والمجر، وبوهيميا، وشعوب هذه الكنائس يعيشون حتى اليوم في غرب روسيا وشرق أوروبا. ثم انتشروا في القرن العشرين في غرب أوروبا وشمال أمريكا وأماكن أخرى متفرِّقة.

١٥- وهي مقاطعة جاليسيا Galicia في بولندا.

وأسلاف رعايا هذه الكنائس، أي جدودهم الأولون، كانوا من السلافيين الذين تحولوا إلى المسيحيَّة بكرازة القدِّيس فيلاديمير، وكوَّنوا جزءًا من كنيسة روسيا تحت رئاسة متروبوليت كييف Kiev عاصمة أوكرانيا Ukrania ولكنه عُزل في مجمع فلورنسا سنة ١٤٤٣م وعيَّن البابا بيوس الثاني متروبوليتاً كاثوليكيًّا لكييف Kiev بدلاً منه، حيث تولى الرِّئاسة على هذه الكنائس.

إلاَّ أن هذه الكنائس قد رجعت إلى الأرثوذكسيَّة في بداية القرن السَّادس عشر. ولم يمض قرن من الزَّمان حتى انضم متروبوليت كييف Kiev مرَّة ثانية إلى روما سنة ١٥٩٥م ومعه بعض من الأساقفة[١٦]. فاختلطت اللِّيتورجيَّة البيزنطيَّة بعناصر لاتينيَّة.

وبعد تقسيم بولندا سنة ١٧٩٥م أصبحت هذه الكنائس الرُّوثينيَّة – باستثناء كنيسة جاليسيا في بولندا – تحت سلطة روسيا، وتدريجياً صارت تحت سلطة الكنيسة الأرثوذكسيَّة الرُّوسيَّة في بداية القرن التاسع عشر. وفي أوائل القرن العشرين، عندما أُبيحت الحريَّة الدِّينيَّة في روسيا، وصار لكنيسة روما الكاثوليكيَّة حريَّة التَّحرُّك في روسيا!!، عادت هذه الكنائس من جديد وانضمت إلى الكنيسة اللاتينيَّة.

وقد تأسَّست لهذه الكنائس كليَّة لاهوتيَّة في روما سنة ١٨٩٧م، لتخريج رجال الإكليروس واللاهوتيين لخدمة هذه الكنائس.

وهناك أيضاً جماعات مسيحيَّة روثينيَّة ذات شأن كبير في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة منذ سنة ١٨٧٦م، وكذلك في كندا منذ سنة ١٨٩٠م، والبرازيل والأرجنتين.

١٦– هم: فلاديمير Vladimir – لوتسك Lutsk – بلوسك Blosk – بنسك Pinsk – وكولم kholm.

واللّيتورجيَّة الرُّوثينيَّة تعتمد الآن على الطَّقس البيزنطي مع بعض التَّعديلات اللاتينيَّة، كي تتواءم مع خضوع هذه الكنائس لروما.

ثانياً: تأثير روما على الكنائس الشَّرقيَّة

نعرض هنا نبذة عن تأثير روما على الكنائس الشَّرقيَّة[١٧] من خلال "لجنة تصحيح الكُتُب اللّيتورجيَّة[١٨]"، منذ سنة ١٦٣١م إلى سنة ١٩٦٢م.

كان يؤرق الكنيسة الكاثوليكيَّة في روما في العصور الوسطى هاجسان هامان بشأن الكنائس غير الكاثوليكيَّة، وهما:

أولاً: أن كل من لا يتبع الكنيسة الكاثوليكيَّة الرُّومانيَّة هو من الهراطقة، ولا خلاص له خارجاً عنها.

وثانياً: أن كل نص ليتورجي غير النُّصوص اللاتينيَّة هو نص مليء بالأخطاء العقائديَّة والهرطقات، لذا كانت كنيسة روما ترى من واجبها لدى اتحاد أي كنائس أخرى بها أن تراجع نصوصها الطَّقسيَّة "لتطهِّرها" مما يخالف العقيدة الكاثوليكيَّة. وغالباً ما كانت تسعى لأن تجدِّد طبع هذه الكُتُب لديها لتتأكَّد من سلامة النُّصوص، فضلاً عن محاولة ليتنتها، فتضرَّر اللاهوت الشَّرقي أيَّما ضرر.

١٧- المقال منقول بتصرف عن مجلة المسرة، الأعداد ٧٨١-٧٨٤ السنة السابعة والسبعون، نيسان، سنة ١٩٩١م، ص ١٠٠-١٢٨، وهو للأرشمندريت "أوليفيه راكز" ترجمة وتعليق الأب ميخائيل أبرص.

١٨- وهي أحد لجان "مجمع انتشار الإيمان" أنشئ سنة ١٦٢٢م، وكان بمثابة وزارة تهتم بالإرساليات التبشيريَّة، حيث وفَّر لها المجمع المذكور إمكانيات كبيرة، مثل مطبعة متعددة اللغات، وإنشاء إكليريكيات وجامعات. كما أنشأ نظام "النواب الرَّسوليين" وهم أساقفة مرسلون يتصلون مباشرة بالبابا الروماني.

لهذا السّبب أسس البابا أوربانوس الثامن (١٦٢٣-١٦٤٤م) لجنة تصحيح الكُتُب الليتورجية للكنائس الشّرقيّة، وثبّتها البابا إكليمندس الحادي عشر (١٧٠٠-١٧٢٣م) سنة ١٧١٩م. وتابعت هذه اللجنة نشاطها حتى سنة ١٨٦٢م، ثم أكملت أعمالها داخل مجمع الكنائس الشّرقيّة عبر "اللجنة الليتورجية" التي وضع أسسها البابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢-١٩٣٩م) سنة ١٩٣١م.

ولهذه اللجنة أرشيف يتكون من ثلاثة عشر مجلداً يحوي مضمون أعمالهاز وتعود أقدم وثيقة رسمية منبثقة عن هذه اللجنة إلى سنة ١٧٢١م، وهي مطبوعة في جزئين: الجزء الأول، نموذج الملاحظات المتعلقة بالتريوديون[١٩] الذي نُشر في البندقية سنة ١٧٢١م. والجزء الثاني، بعض المقاطع الخاصة من التريوديون التي طلب المجمع المقدس من ذوي الاختصاص ترجمتها إلى اللاتينية.

ولم تكن هذه اللجنة هي أول عمل تتدخل به روما في القضايا الليتورجية الشّرقيّة، ولكن يعود أول شاهد على هذا التدخّل في القرن السادس عشر، عندما طبعت روما كتابين طقسيين يونانيين: الإكطويخوس[٢٠] ونُشر سنة ١٥٢٢م، وكتاب الليتورجيات الإلهية الثلاث، ونُشر سنة ١٥٢٦م، مع مقدمة للبابا إكليمندس السابع (١٥٢٣-١٥٣٤م) ثم تلا ذلك نشر كتابيّ القداس، ورتبة العماد للكنيسة الحبشية.

١٩- التريوديون: كتاب ليتورجي في الطّقس البيزنطي يحتوي على صلوات الزمن الطّقسي الممتد من أحد الفريسي والعشار إلى يوم السّبت العظيم في فترة الصوم المقدس الكبير وأسبوع الفصح. ويدعى هكذا لأن أغلب القوانين فيه تتألف من ثلاث أوديات.
لتفصيلات أوفى، انظر للمؤلف كتاب: "معجم المصطلحات الكنسيّة"

٢٠- الإكطويخوس: أي كتاب الألحان الثمانية، ويُدعى أيضاً (الباراكليتيكي)، أي كتاب المعزي، ويحتوي على قطع الفرض الكنسي حسب الطّقس البيزنطي لأيام الآحاد، وكل أيام الأسبوع.

وبعد المجمع التريدنتيني (١٥٤٥- ١٥٦٣م) أصبح هذا التدخل في شؤون الكنائس الشَّرقيَّة سافراً وسلبياً ومزعجاً، وكان ذلك على يد الآباء اليسوعيين. ففي الهند توصّل المطران ألكسي رئيس أساقفة جّوا[٢١] اللاتيني إلى أن يحرق العديد من المخطوطات الليتورجية المالابارية بعد مجمع ديامبير الذي عُقد سنة ١٥٩٩م، وحاول إصلاح الصلوات بطريقة عشوائية دون أية معايير، مستوحياً في إصلاحه هذا النصوص الواردة في الطَّقس اللاتيني فقط. ولم يكن الذين خلفوه أفضل منه، وبالتالي فقدت الكنائس بسببهم الكثير من تقاليدها، ولازالت تعاني الكثير من نتائج هذا التصرف بالرغم من محاولة السلطة الرومانية إعادة تلك التقاليد الشَّرقيَّة الأصيلة.

وفي سنة ١٥٩٥م، أصدر البابا إكليمندس الثامن (١٥٩٢- ١٦٠٥م) براءة باباوية مسماه Magnus Dominus et laudabilis nimis بمحافظة الكنيسة الروتانية[٢٢] على جميع الطُّقوس والاحتفالات الأرثوذكسيَّة القديمة دون أي تغيير، وحسب وثائق الآباء القديسين الأقدمين، اشترط أن لا تكون ضد الحقيقة، ولا ضد العقيدة الكاثوليكية، وأن لا تنفي الاشتراك مع الكنيسة الرومانية.

في هذا العصر عينه؛ اهتمت روما بصورة خاصة بنشر الكُتُب الليتورجية لكنائس الشَّرق، ومنها الكنيسة القبطية بطبيعة الحال، لذا حاولت الحصول على أكبر عدد ممكن من مخطوطات الليتورجيات الشَّرقيَّة، وابتدأت بترجمتها إلى اللاتينية لكي يتسنّى لها فهمها ومقارنتها بالتقليد اللاتيني وتصحيحها على هذا الأساس. ومن المؤسف أن هذه

٢١- جّوا: عاصمة المناطق التي احتلتها البرتغال في الهند.

٢٢- الكنيسة الروتانية: هي الكنيسة الكائنة في المنطقة الشرقية من تشيكوسلوفاكيا، والتي التحقت بالاتحاد السوفيتي بعد الحرب العالمية الثانية، وهي تتبع الطَّقس البيزنطي.

الطريقة أدّت إلى العديد من التصحيحات التي أضحت كقوانين في الكُتُب المطبوعة، ولم تفلت الكنيسة القبطية من هذا السطو، ولكنها كانت الكنيسة الأقل تأثراً بذلك بين الكنائس الشّرقيَّة(٢٣).

فطبعت روما للكنيسة المارونية كتاب رتبة (طقس) الجنّازات سنة ١٥٨٠م، تلاه كتاب القداس سنة ١٥٩٤م، ثم كتاب الكاهن والشماس سنة ١٥٩٦م، ثم فُرضت هذه الكُتُب في مجمع قنّوبين سنة ١٥٩٦م، لإسكات اعتراض الموارنة الذين فشلت مساعيهم دون الوصول إلى نتيجة ملموسة.

وتعرضت الكنيسة الأرمينيَّة أيضاً لتأثيرات لاتينيَّة واضحة جداً، ففي النّصف الأوّل من القرن السّابع عشر، فحص مجمع انتشار الإيمان وموفدوه الكُتُب الطّقسيَّة الأرمينيَّة. فجهَّزت لجنة خاصة كتاب القدّاس سنة ١٦٣٥م وطبعته سنة ١٦٤٢م. وجهَّزت أيضاً طبعة ثانية سنة ١٦٧٣م/ ١٦٧٤م، ورأت النُّور سنة ١٦٧٧م، وكم أثارت هذه الطّبعات من خلافات فيما بعد.

وكان للّيتورجيَّة الكلدانيَّة كذلك نصيب وافر في فحص كتبها، والتّدقيق فيها وتصحيحها، وقد عُينت لجنة خاصة لهذا الغرض سنة ١٦٣٣م. وعندما اعتلى يوسف الأوّل (١٦٨١- ١٦٩٦م) كرسي البطريركيَّة(٢٤)، أرسل إلى روما يطلب نسخاً لعدة كتب ليتورجيَّة، واستُخدمت هذه الكُتُب في القرن التالي.

وفي سنة ١٦٥٥م قرر مجمع انتشار الإيمان طبع كتاب الصّلاة اليوميَّة لسريان الكنيسة الأنطاكيَّة. ولقد تم تنفيذ هذا القرار جزئياً سنة ١٦٩٦م،

٢٣- سنعرض لتفصيلات ذلك في تعرضنا للطقس القبطي على كافة أوجهه.
٢٤- كان أسقفاً نسطورياً لحلب، ثم اعتنق الكاثوليكية وصار كلدانياً.

ووضع المجمع أيضاً كتاب الطُّقوس تحت الفحص والدِّراسة سنة ١٦٥٩م، إذ اعتبره المجمع مليئاً بأخطاء عقيدة الطبيعة الواحدة، وذلك بحسب فكر الكنيسة الكاثوليكيَّة. فأرسله إلى المجمع المقدَّس للكنيسة الأنطاكيَّة بعد أن ترجمه إلى اللاتينيَّة، ولا ندري ما حلَّ به بعد ذلك.

وعندما طلب اليونان طبع كتاب الإفخولوجيون[٢٥]، عُيِّنت لجنة خاصة لدراسته قبل الطَّبع. فبقيت حوالي تسع سنوات (سنة ١٦٣٦- ١٦٤٥م) عقدت خلالها ٨٢ جلسة دون التوصُّل إلى نتيجة، علماً بأن اللَّجنة كانت تضم العديد من المستشارين المؤهَّلين لمثل هذا العمل، ولقد اختلفت مراراً آراء أعضاء اللَّجنة، خاصة بين اللاهوتيين التَّقليديين منهم والمؤرخين.

تأليف لجنة تصحيح كتب الكنيسة الشَّرقيَّة

في بدء حبريَّة البابا كليمندس الحادي عشر (١٧٠٠- ١٧٢١م) أظهر عدة أساقفة قلقهم للمجمع المقدَّس ولمجمع انتشار الإيمان حيال استعمال الكاثوليك الشَّرقيين كتباً ليتورجيَّة مطبوعة لدى غير الكاثوليك، وفيها العديد من الأخطاء اللاهوتيَّة (بحسب الفكر اللاتيني طبعاً)، وكانت التُّهم تتعلَّق خصوصاً باليونان، وكانوا كثيرين آنذاك في إيطاليا. لذا قرَّرت لجنة من مجمع انتشار الإيمان سنة ١٧٠٨م تصحيح هذه الكُتُب وطبعها في مطابعها. وفي سنة ١٧١٦م ألَّف المجمع المقدَّس لجنة خاصة مهمتها تصحيح أوَّل كتاب للطَّبع.

بعد فترة وجيزة وفي سنة ١٧١٩م أسَّس البابا كليمندس الحادي عشر

٢٥- الإفخولوجيون: كتاب ليتورجي في الطَّقس البيزنطي، يحتوي على الليتورجيات التي تصلي بها الكنيسة البيزنطية، وعلى طقوس الأسرار وصلواتها، والعديد من صلوات التبريك والتكريس.

لجنة "تصحيح كُتُب الكنيسة الشّرقيَّة" لكي ينال نتيجة أسرع، ونوعيَّة أفضل. فهي مؤسَّسة دائمة، مستقلّة ذاتياً، لكنها تابعة لمجمع انتشار الإيمان، مهمتها تصحيح كل الكُتُب الكنسيَّة لدى الشّرقيين. وهي مؤلّفة من خمسة كرادلة أعضاء، من بينهم رئيس وسكرتير وعدة مستشارين منتخبين لكفاءهم الخاصة في المجالات اللاهوتيَّة والّليتورجيَّة واللّغويَّة والاستشراقيَّة. وهكذا أصبحت هذه اللّجنة مستقلّة عن المجمع المقدَّس، ولكن دون أن تقطع علاقتها به. وفي سنة ١٧٣٣م قرر البابا كليمندس الثاني عشر (١٧٣٠- ١٧٤٠م) أن تكون كل مصاريف اللّجنة الجديدة على عاتق المجمع المقدَّس.

تصحيح كُتُب الكنيسة اليونانيَّة

كان كتاب التريوديون أوَّل كتاب عنيت اللّجنة بتصحيحه، ونوقش في أربع جلسات حتى سنة ١٧٢٢م، ثم طُبع بعدها كتاب "التريوديون اليوناني" في روما سنة ١٧٢٤م، وسُجل عليه عَمْداً "بولونيا" بدلاً من "روما" ليتجنب المجمع المسؤوليَّة.

ثم اجتمعت اللّجنة في مايو سنة ١٩٢٢م لفحص كتاب "البنديكستاريون[٢٦]"، وبعد سنتين ابتدأت بفحص وتصحيح كتاب "المعزّي"، وكتب "الميناون[٢٧]" لشهري أيلول[٢٨] (سبتمبر)، وتشرين الأوَّل (أكتوبر). وبعد سنة ١٧٢٤م توقفت أعمال اللّجنة في زمن البابا

٢٦- البنديكستاريون: أي الخمسين، وهو كتاب ليتورجي بيزنطي، يشتمل على صلوات الفرض من أحد الفصح إلى عيد جميع القديسين.

٢٧- الميناون: أي كتاب الأشهر، ويحتوي على صلوات تختص بكل شهر من شهور السنة الليتورجية.

٢٨- تبدأ السنة الطّقسية البيزنطية في شهر سبتمبر.

بنديكتوس الثالث عشر (١٧٢٤- ١٧٣٠م)، ولكنها استأنفت أعمالها في زمن البابا كليمندس الثاني عشر (١٧٣٠- ١٧٤٠م). ففي سنة ١٧٣٨م ظهرت مجموعة كتب تحت عنوان "كتاب سنوي يحتوي على كل الصَّلوات الكنسيَّة"، وهو كتاب عبارة عن ٩ مجلدات منفصلة هي:

١- كتاب المزامير والأورولوجيون.

٢- الباراكليتون.

٣- الباراكليسي للعذراء والدة الإله.

٤- التريوديون.

٥- البنديكستاريون.

٦- ٨ الأنثولوجيون، أو مختصر صلوات الميناون (٣ أجزاء).

٩- صلوات غير المعروفين[٢٩]. واللّيتورجيَّات الثلاث، مع ملحق للقراءات والطروباريَّات[٣٠].

وتابعت اللّجنة فحص صلوات الميناون خلال عدة جلسات، وانتهى التَّصحيح سنة ١٧٤٤م، وطُبع جزء منها فقط في مجموعة سنة ١٧٣٨م، ولكن لم يُطبع باقي الميناون قبل نهاية القرن التاسع عشر.

في سنة ١٨٢٥م، طُبع في روما "قانون" ليتورجية القدِّيس يوحنا ذهبي الفم، تليه بركة المياه يوم عيد الظُّهور الإلهي، ولا نجد في السَّماح بطبعه من قِبَل روما أي أثر لا لمجمع انتشار الإيمان، ولا للَّجنة التي نحن بصددها. وفي سنة ١٨٤١م، قرَّرت لجنة مجمع انتشار الإيمان إعادة طبع نسخة سنة ١٧٣٨م، ولكن لم يُنفَّذ هذا القرار، ووزع المجمع كتباً غير

٢٩- ويُسمّى كتاب "قديسو الله" وفيه صلوات لرتب من القديسين، كرئيس كهنة، أو شهيد، أو غيرهما.

٣٠- الطروبارية: كلمة يونانية تعني ترنيمة أو لحن، ولكل عيد من الأعياد الكنسية طروبارية أو أكثر تختص به.

كاثوليكيَّة، وعندما رُفعت الشَّكاوى سنة ١٨٥٣م على هذا التصرُّف، طرح المجمع الموضوع مجدَّداً على بساط البحث، ومع ذلك لم يتحقق أية طبعة حتى سنة ١٨٦٢م. ونرى أن المجمع كان يقرر كل مواضيع طبع الكُتُب اللِّيتورجيَّة اليونانيَّة في القرن التاسع عشر بمعزل عن لجنة تصحيح الكُتُب اللِّيتورجيَّة.

في سنة ١٧٥٤م طبعت اللَّجنة كتاب "الإفخولوجيون" حسب التَّقليد اليوناني الأصيل بعد حسم الخلافات التي كان من أهمها مسألة "شكل الأسرار"، فالمؤرخون كانوا يطالبون بفرض بعض المفردات التي تستعملها الكنيسة اللاتينيَّة على الكنيسة اليونانيَّة، بينما كانت رغبة اللاهوتيين التَّقليديين وضع بعض الزِّيادات بتحفُّظ وفطنة، لإيضاح هذه المفردات. وقد دُعي هذا الإفخولوجيون "إفخولوجيون البابا بنديكتوس الرَّابع عشر"، لأن هذا البابا تابع عن كثب أعمال اللَّجنة، وصدَّر الكتاب برسالة مسهبة مؤرخة بتاريخ ١٧٥٦م، وجهها إلى كل الإكليروس التَّابع للطقس اليوناني والمتَّحد بروما. ويعتبرها نموذجاً لكل الطبعات اللاحقة.

وحتى القرن الثامن عشر اهتمت اللَّجنة فقط بتصحيح الكُتُب اللِّيتورجيَّة وطبعها، إنما في القرن التالي، وسَّعت دائرة عملها، فأخذت تهتم حتى بفحص قوانين المجامع العامة والسينودسات الشَّرقيَّة، التي كان يصل الأمر فيها إلى حرم أعمال بعض المجامع من قِبَل باباوات روما، بعد رفع أعمال اللَّجنة إليه.

وفي سنة ١٨٣٩م نشر مجمع انتشار الإيمان أوَّل ليتورجيكون عربي - يوناني، بعد أن استخدمت اللجنة أسلوباً محرجاً على مدى سبعة عشر عاماً أي منذ سنة ١٨٢٢م، وهي السنة التي قُدمت فيها المخطوطة العربية لكتاب الليتورجيكون إلى مجمع انتشار الإيمان لطبعه.

وأخيراً طبعت مطابع مجمع انتشار الإيمان سنة ١٨٥١م، الإفخولوجيون الصغير، وهو جزء من الإفخولوجيون الكبير.

تصحيح كُتُب كنيسة رومانيا الكاثوليكيَّة

طُبعت أوَّل كتب ليتورجيَّة لكنيسة رومانيا الكاثوليكية محلياً منذ سنة ١٧٥٧م. ويحفظ لنا المجلّد العاشر من أرشيف اللّجنة (لجنة تصحيح الكُتُب اللّيتورجيَّة) مراسلة يعود تاريخها إلى سنتي ١٧٦٩، ١٧٧٠م، وفيها يشكى المرسلون في منطقة "فاغارانس" من تأثير أرثوذكسي على الكُتُب اللّيتورجيَّة المستعملة، وكان جواب اللّجنة أنه لا مجال للقّلق في هذا الشّأن، لأن النُّصوص المذكورة والمشكوك في أمرها، مطابقة للنُّصوص اليونانيَّة التي وافقت اللّجنة عليها سابقاً.

تصحيح كُتُب الكنيسة القبطيَّة

جمع الأب "هـ ملك[٣١]" كل ما عملته لجنة تصحيح الكُتُب اللّيتورجيَّة القبطيَّة، وكانت اللّجنة قد بدأت بالتّحضير لهذه الكُتُب منذ سنة ١٧٣٤م. وفيما بين السّنوات ١٧٣٦م - ١٧٦٤م طبعت اللّجنة كتب: الخولاجي، والأجبية، والرِّسامات الكهنوتيَّة، وكتاب الطُّقوس[٣٢]، وكتاب الثيؤطوكيَّات. واتَّبعت نفس المبادئ التي تبنَّتها عبر السِّنين مع الكُتُب اليونانيَّة. وكان ذلك تحت إدارة نيقولا أنطونيللي، وهو السكرتير

٣١- باحث قبطي توفي مؤخراً، وكتب عن هذا الموضوع بالتفصيل في كتابه:
H. Malak, Les Livers Liturgiques de L'Eglise Copte, in Mélanges Tisserant iii, Rome, 1964, p. 10ss .
ولم أتمكن من العثور على هذا الكتاب.

٣٢- ربما طقوس الأسرار الأخرى كالمعموديَّة، والميرون، وغيرها.

الذي عيّنه البابا كليمندس الثاني عشر (١٧٣٠- ١٧٤٠م) أمين سر هـذه اللّجنة من سنة ١٧٣٠ - ١٧٦٩م، حيث أصبح هو المحرّك الأوّل لها، بمساعدة العديد من العُلماء والمستشرقين، وكان من أبرزهم روفائيل الطوخي[٣٣].

وبعد طبع كتاب الثيؤطوكيّات سنة ١٧٦٤م تابعت اللّجنة اهتمامها بالطُّقوس القبطيَّة، فناقشت في سـنة ١٧٩٣م موضـوع مـادة الخبـز الإفخارسيّ، وشكل هذا الخبز لدى الأقباط.

تصحيح كُتُب الكنيسة الأنطاكيّة

كان كتاب الصَّلوات اليومية لسريان أنطاكية قد طُبع سنة ١٦٩٦م، وأُعيد طبع هذا الكتاب في سنة ١٧٠٨م، ومرّة ثالثة سنة ١٨٥٣م، وقـد حضّرت لجنة التّصحيح هذه الطّبعة الثّانية خلال فترة طويلـة، إذ أن أوّل الاجتماعات يعود إلى سنة ١٧٨٢م. ورغبت اللّجنة أيضاً في تحضير كتاب صلوات الأعياد وطبعه، لأننا نجد في محفوظاتها التّرجمة اللاتينيّـة لأجـزاء كبيرة من صلوات الأعياد، ولائحة بقديسي الكنيسة السّريانيَّة المعتـرَف بهم لدى الكنيسة الرُّومانيَّة. ولكن هذا المشروع لم يتحقّق في روما، بـل طُبع بعد وقت طويل في الموصل بالعراق، في سبعة أجزاء، خلال السَّنوات

٣٣- هو أسقف أرسينوه، وكان في الأصل قبطياً أرثوذكسياً من جرجـا بصـعيد مصر، لكنه اعتنق الكاثوليكية على يد أحد المرسلين اليسوعيين، وسافر إلى روما سنة ١٧٢٤م، اثنتي عشرة سنة، أتقن أثناءها اللغتين الإيطالية واللاتينية، إلى جانب إجادتـه للغة القبطيَّة والعربيَّة. وبتكليف من لجنة انتشار الإيمان ظـل يتـرجم المخطوطـات الطَّقسية القبطية إلى اللاتينية أو الإيطالية قرابة خمس وعشرين سنة، ونشـرت رومـا ولأول مرة كتب الطَّقس القبطية بعد أن عبثت بها، وقبل أن تنشر الكنيسة القبطيَّـة كتبها الطَّقسيَّة بقرن ونصف من الزمان. فقد كان الفراغ من نشر الكُتُب الطَّقسـيَّة القبطية في روما سنة ١٧٦٤م، وكان أوّل نشر لكتب الكنيسة القبطية الطَّقسيَّة مطبوعة هو الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

١٨٨٦- ١٨٩٦م.

وأخيراً في سنة ١٨٤٣م طبع مجمع انتشار الإيمان أوَّل كتاب قـدَّاس لسريان كنيسة أنطاكية، بعد جهد كبير.

تصحيح كُتُب الكنيسة الأرمينيَّة

نالت الكنيسة الأرمينيَّة نصيبها من طبعات رومانيَّة لكتبها في القرن السَّابع عشر، ففي سنة ١٧٢٤م تمت الموافقة على طبع كتـاب القـدَّاس الأرمني الكاثوليكي لناكسيفان[٣٤]، وفي سنة ١٧٥٨م، تسلَّمت اللَّجنـة طلب طبع كل الكُتُب اللِّيتورجيَّة الأرمينيَّة. وفي سنة ١٧٧٧م، طُبع كتاب القدَّاس الأرمني، وقد لاقت هذه الطَّبعة العديد من الاتهامات والانتقادات، فتقرَّر إتلافها!!.

وفي أوائل القرن التاسع عشر، وبالاتفاق مع بطريرك القسـطنطينيَّة الأرمني، طُبع كتاب ليتورجية الكنيسة الأرمينيَّة في طبعة تختلف عن طبعة روما سنة ١٦٧٧م، ولكن البطريرك منع توزيع هذه الكُتُب قبل الحصول على إذن صريح من مجمع انتشار الإيمان.

وفي غضون القرن التاسع عشر طُرح من جديد موضوع الطَّبعـات الرُّومانيَّة لليتورجيا الأرمينيَّة. ففي محاضر سنة ١٨٣٢م وسنة ١٨٥٣م، نجد طلباً جديداً لتصحيح هذه الكُتُب وتحضيرها للطَّبع. وظل مجمل الموضوع معلَّقاً دون حل نهائي.

٣٤- ناكسيفان: مدينة في أرمينيا.

تصحيح كُتُب الكنيسة الآشوريَّة

نعلم أن الآشوريين هم مسيحيو الإمبراطوريَّة الفارسيَّة القديمة، ومسيحيو المالابار في الهند الجنوبيَّة، وأن للاثنين التَّقاليد الكنسية ذاتها.

قام المرسَلون البرتغاليون لدى وصولهم إلى الهند في القرن السَّادس عشر بإصلاحات عديدة ذات طابع لاتيني، ففي المجال اللّيتورجي، شوَّهوا طقس القدَّاس الأصيل بشكل ملموس، ولم تتدخَّل السُّلطة الرُّومانيَّة إلاَّ بطريقة عامة جداً، ولأن الكُتُب اللّيتورجيَّة المستعملة لدى هذه الطوائف بقيت كلها مخطوطة حتى النِّصف الثَّاني من القرن الثامن عشر، فقد كان لابد أن تظهر بعض الاختلافات الواضحة بين النُّصوص، مما دفع بالنَّائب الرَّسولي في المالابار إلى الاتصال بمجمع انتشار الإيمان سنة ١٧٥٤م ليطلب منه أن يوفِّر له طبعة من كتاب القدَّاس، تكون على مستوى قرارات مجمع ديامبير[٣٥].

وفي الوقت عينه، كان كلدان الإمبراطوريَّة الفارسيَّة القديمة، وهم الذين حافظوا بدقَّة أكبر على تقاليدهم الأصيلة، يطالبون مجمع انتشار الإيمان بإلحاح بطبع كتبهم اللّيتورجيَّة، لذا قرَّرت لجنة تصحيح الكُتُب اللّيتورجيَّة في اجتماعها في يوليو سنة ١٧٥٧م طبع كتابين للقدَّاس الكلداني، الأوَّل للمالابار، والثَّاني لكلدان ما بين النَّهرين وللمناطق الأخرى، على أساس المخطوطات التي أرسلها البطريرك يوسف في القرن السابق، لكن بعد "**تطهيرها**" من كل خطأ. وكان لرأي يوسف السِّمعاني (١٦٨٨- ١٧٦٨م) المرجعيَّة الأولى في هذا التَّطهير، وهو الرَّجل

٣٥- ديامبير: مدينة في الهند، التأم فيها مجمع سنة ١٥٩٩م، وفُرضت فيه تشريعات وعوائد لاتينية، فولّى على المالابار أسقف راهب يسوعي لاتيني خاضع لرئيس أساقفة غوا البرتغالي.

المتضلّع في اللُّغة السِّريانيَّة.

ولما كانت ترجمة القدَّاس الكلداني للمالابار "مليتنة" جداً، قــرَّرت اللّجنة إعادة النَّظر في هذا الموضوع متسائلة: هل من الضَّروري تثبيــت هذه الصِّيغة اللاتينيَّة بطبعة روما؟ وبعدها تقرَّر تطهير طقوس المالابار من كل تأثير لاتيني، ومحاولة العودة إلى الأصول التَّقليديَّــة. لكــن النائــب الرَّسولي في المالابار رفض ذلك، وانتقد رئيس مجمــع انتشــار الإيمــان الكاردينال جوزيف ماري كاستيللي. فما كان من هــذا الأخــير إلاّ أن أحال الانتقاد إلى لجنة تصحيح الكُتُب سنة ١٧٦٦م.

وفي السَّنة التالية، نشر مجمع انتشار الإيمان كتاب القدَّاس الكلــداني المخصَّص لكلدان الشَّرق الأوسط، لأنه يحتوي على ترجمة عربيَّة، وحاول المجمع إقناع المالابار بقبول النَّص السِّرياني نفسه، لكن أولئك رفضــوا - أغلب الظَّن - بتأثير النائب الرَّسولي هناك.

في هذا الوقت، توفي أنطونيللي، وأصبحت اللّجنــة كلــها بــإدارة كاستيللي، فقرر في سنة ١٧٧٤م طبع كتاب القدَّاس للمالابــار بحســب المخطوطة المليتنة، ورأى الكتاب النُّور في السَّنة نفسها، تبعه بعد وقــت قصير كتاب الطُّقوس المالاباري ذو الصِّيغة اللاتينيَّة نفسها.

وكان هذان الكتابان من أسوأ الكُتُب التي طبعتها لجنة التَّصــحيح. وقد سُجلت لها بذلك مرحلة في ليتنة التَّقاليد الشَّرقيَّة الكاثوليكيَّة، لأن ما أُدخل من عادات لاتينيَّة قبل طبع الكتابين، لم يكن سوى تصرفات مبتذلة وغير واعية. وبطباعة هذه العادات في كتاب؛ يكون المجمع قد كرَّســها رسمياً في طبعة رومانيَّة. لربما كانت الحاجة آنذاك إلى بعد نظر البابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢- ١٩٣٩م) الذي اعتبر أن هذه "اللّيتنة" تؤدّي إلى

افتقار التراث المشترك للكنيسة الجامعة وإضعافه، أو إلى الدّور الذي لعبه مع الكاردينال أوجين تيسيران (١٨٨٤- ١٩٥٩م) كي يحققا في القرن العشرين تحركاً معاكساً لما جرى، أي محاولة إضرام الشّعلة الشّرقيَّة التي حاولت الأجيال الرُّومانيَّة السَّابقة إخمادها.

كانت هذه الطّبعات لكتاب القدّاس الكلداني، ولكتابي القدّاس والطقوس المالاباريين، هي النشاط الوحيد الذي قامت به لجنة تصحيح الكُتُب لهذه الكنيسة. ونجد في طيَّات أرشيف المجمع بعض المحاولات الأخرى مثل: مشروع عام لإعادة النَّظر في كتب ليتورجيَّة أخرى لسريان المالابار سنة ١٧٨٨م، قرار في سنة ١٧٩٧م بتوكيل لجنة التَّصحيح بمراجعة كل كتب الكلدان المشتبه بها، أمر سكرتير المجمع سنة ١٨٠٢م بترجمة الكُتُب اللّيتورجيَّة الكلدانيَّة لتطهيرها من الأخطاء ... الخ. ونجد بين سنتي ١٧٠٨، سنة ١٨١٧م، رأي مستشار في ما يخص بعض من المقاطع من الفرض الإلهي الكلداني.

وفي القرن التاسع عشر، طُبع كتاب الطُّقوس السَّابق ذكره للمرَّة الثانية سنة ١٨٤٥م، وفي السَّنة نفسها، طبع مجمع انتشار الإيمان كتاب الصَّلوات اليومية للكلدان من أعمال جوزيف غوريّل، ودام استعماله حتى سنة ١٨٨٦م، عندما ظهرت طبعة لايبزك[٣٦] الشَّهيرة في ثلاثة مجلدات. وهي من أعمال الأب بيجان.

٣٦- لايبزك، مدينة في ألمانيا (الشرقية)، شهيرة بجامعتها، وطُبع فيها العديد من الكُتُب العربية.

تصحيح كُتُب الكنيسة المارونيَّة

اهتم الكرسي الرَّسولي كثيراً باللّيتورجيَّة المارونية قبل أن يؤلّف لجنة تصحيح الكُتُب سنة ١٧١٩م. بعد هذا التَّاريخ، نجد العديد من الكُتُب اللّيتورجيَّة تُطبع في روما، لكن دون تدخُّل اللّجنة، لا في تجميعها، ولا في طبعها، ولا في فحص القرارات القانونيَّة الخاصة باللّيتورجيا، كتلك التي أخذت في مجمع جبل لبنان المنعقد سنة ١٧٣٦م، والذي وافقت عليه روما سنة ١٧٤١م.

أما في القرن التاسع عشر، فقد عادت اللّجنة لتهتم بالموارنة بصورة مكثفة، وبحيويَّة، فدرست أولاً سنة ١٨١٩م في عهد السكرتير بطرس كابرانو مسألة الإضافات التي أدخلها جرمانوس جوّا، مطران حلب الماروني على قانون الإيمان[٣٧]، كما فحص مجمع انتشار الإيمان تكرار صحة أعمال مجمع لبنان سنة ١٧٣٦م، ونتائجه. وأعادت اللّجنة أيضاً النَّظر في الموضوع نفسه بين سنتي ١٨٣٣، ١٨٣٤م. أما في مجالها الخاص، فقد راجعت اللّجنة نصوص كتاب الطُّقوس الماروني الجديد الذي قدّمه سنة ١٨٣٣م إسطفان حبيش باسم البطريرك الماروني. وبتحريض من السكرتير أنجيلوماي اعتبر المجمع الكتاب غير مرض تماماً لأنه لا يتوافق مع قرارات مجمع لبنان، ويحتوي على كثير من التَّجديدات، ولكن عند إصرار المصنِّف الأسقف الماروني، عادت لجنة التَّصحيح فقبلت كتاب الطُّقوس الجديد.

٣٧- زيادة: "إله من إله" وكلمة "الرُّسُل" في عبارة "الناطق في الأنبياء والرُّسُل".

تصحيح كُتُب الكنيسة الإثيوبيَّة

في النِّصف الأوَّل من القرن السَّادس عشر ظهرت طبعة رومانية لعدة نصوص إثيوبيَّة، ثم ما لبث هذا النَّشاط أن توقَّف، ولم تعد اللجنة تهتم بالأمر مباشرة. لكننا نجد مع محفوظاتها بعض الآثار القليلة عن هذه اللِّيتورجيَّا. ففي المجلد الثَّاني مثلاً نجد تقريراً للنائب الرَّسولي يتضمَّن مجموعة معلومات عن كتاب الطُّقوس الإثيوبيَّة مع النص الأصلي والتَّرجمة اللاتينيَّة لأنافورا العذراء، مؤرخ بتاريخ سنة ١٨٦٣م.

وهناك كتب أخرى أثارت اهتمام اللَّجنة، لاسيَّما الكتاب المقدَّس، وكتب التَّعليم الدِّيني وغيرها من الكُتُب التَّقويَّة، لكن هذه الاهتمامات تبقى ثانويَّة، ولا نستطيع التوقُّف عندها.

وفي النهاية

يبقى هذا البَّحث أولياً، ومن يود الاهتمام بليتورجيا معيَّنة، يمكنه أن يراجع محفوظات اللَّجنة، ومجمع انتشار الإيمان، ويطَّلع على تفاصيل الأمور والقرارات والنتائج. ظهرت هذه اللَّجنة تحت اسم "لجنة تصحيح الكُتُب الكنسيَّة الشَّرقيَّة"، لتصبح فيما بعد باسم "لجنة تصحيح الكُتُب الكنسيَّة للكنائس الشَّرقيَّة"، وتنتهي باسم "لجنة تصحيح كتب الكنيسة الشَّرقيَّة". وهذا التَّغيير يدل على توسُّع مجال نشاط اللَّجنة، إذ أصبح الاسم عاماً لا يحدد بالضَّبط أي كتب هي المقصودة، فقد تعدَّى اهتمام اللَّجنة أحياناً الكُتُب اللِّيتورجيَّة، فاهتمت بقرارات المجامع والسينودسات.

وفي الوقت نفسه فقد فسَّرت كلمة "تصحيح" التي لا تتعارض بالضَّرورة مع كلمة "إعادة الشئ إلى ما كان عليه" بغير معناها، فلم تعد

اللّجنة تعنى بإرجاع تقليد خاص أصلي إلى حقيقته، اللّهم إذا كان قد أضاع أصالته، بل أضحت "مقابلة مع تقليد روماني، واستبعاد كل ما هو غير منسجم معه"، وهذا هو الوجه السلبي لتلك اللجنة. لذا من المؤسف أن يكون نشاط هذه اللّجنة قد أدّى أحياناً إلى اندثار بعض التّقاليد الأصلية الشّرقيَّة، كالسّريانيَّة، والمالابارِيَّة، والأرمينيَّة، والمارونيَّة، وليس غالباً لأسباب لاهوتيَّة، أو واقعيَّة، بل لأسباب سطحيَّة، وغير واعية.



البَاب الثّاني

كنيســـــــة المشرق الآشوريَّة

أولاً: تاريخ الكنيسة الآشوريّة

هي كنيسة بلا بهاء أو قوة دنيويّة[1]، كنيسة إنجازاتها الرّئيسيّة إنجازات ليتورجيّة، ثقافيّة، تبشيريّة. كنيسة تحدّت البقاء على قيد الحياة ضمن أسوار من العُزلة والازدراء. ولم يبدأ وجود كنيسة المشرق الآشوريّة في القرن الثالث كما يعتقد بعض المستشرقين، ولكنها كنيسة تأسّست في آخر العصر الرّسولي أي في نهاية القرن الأوّل، أو على الأكثر بداية الثّاني، في بلاد ما بين النّهرين على الضفة الشّرقيّة للفُرات، ضمن حدود الإمبراطوريّة الفارسيّة القديمة، وخارج الإمبراطوريّة الرُّومانيّة. فنعمت بقسط وافر من الاستقلاليّة السّياسيّة والكنسيّة، وقدّمت كغيرها

١- إلى جانب المراجع التي ذكرتها في الهوامش، فقد استعنتُ بالمراجع التالية عن هذا الجزء من الكتاب:

- الأب إغناطيوس ديك، الشّرق المسيحي، لبنان، ١٩٧٥م.
- الأب هنري دالميس الدُّومينكي، الطقوس الشّرقيّة، المعهد الكاثوليكي، المعادي، ١٩٧٨م.
- الأنبا ساويرس بن المقفع، كتاب مصباح العقل، تحقيق الأب سمير خليل اليسوعي.
- الدكتور عزت زكي، كنائس المشرق، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩١م.

F.L. Cross & E.A. Livingstone, The Oxford Dictionary of the Christian Church (ODCC), 2nd edition, 1988.

من الكنائس آلافاً من الشُّهداء من أجل الحفاظ على إيمانها[٢]. لكنها سقطت في شئ من الانزوائيَّة. فما هو أصل هذه الكنيسة؟ ومن أين أتت؟

يؤكِّد دكتور عزيز سوريال عطيَّة في مؤلَّفه "Eastern Christianity – المسيحيَّة الشَّرقيَّة"، أن هذه الجماعة المسيحيَّة هي في الحقيقة بقايا الأسباط العشرة التي سُبيت في القديم إلى أرض الكلدانيين فيما بين النَّهرين إلى ما وراء بابل. وهي أرض آشور[٣]. فعلى مدى أجيال طويلة حُفظ جانب كبير من سلالة العبرانيين في المنطقة الشماليَّة من آشور، والتي تُعرف الآن باسم "كردستان"، والتي عُرفت قديماً باسم "أديينه" مسكن الأسباط العشرة في "جوزان وحاران ومنطقة حلح[٤]". ومنهم تسلسل أبناء الكنيسة النَّسطوريَّة في وقتنا الحاضر.

وهناك أدلة تثبت أن أصل هذه الكنيسة هم الأسباط العشرة الذين سباهم تغلث فلاسر أوَّل ملوك الآشوريين[٥]، وبعده شلمناصر[٦]:

+ لو رجعنا إلى التَّقرير الذي كتبه لوقا الطبيب في سفر الأعمال عن المجتمعين في أورشليم يوم الخمسين لوجدناه يذكر «يهوداً أتقياء من كل أمَّة على وجه الأرض»، ومن ضمنهم يذكر «الماديون والعيلاميون والسَّاكنون ما بين النَّهرين». هؤلاء كانوا في العيد في أورشليم، وأُتيح لهم أن يشاهدوا المعجزات التي اقترنت بحلول الرُّوح القُدُس على التَّلاميذ في يوم الخمسين، فإذا بهم يسمعون الرُّسُل ينادون ببشارة الإنجيل بنفس اللُّغة

٢- كان أول اضطهاد لهذه الكنيسة على مستوى واسع، هو الاضطهاد الذي شنّه شاهبور الثاني تحت حكم الإمبراطورية السَّاسانية سنة ٣٤١م.

٣- انظر: ٢ ملوك ١٧:٦-٢٣

٤- انظر: ٢ ملوك ١٩:١١- ١٣

٥- ١ أيام ٥:٢٦

٦- ٢ ملوك ١٨:١١

التي وُلدوا فيها.

وكذلك لو رجعنا إلى نفس السِّفر في الأصحاح السَّادس والعشرين، واستمعنا إلى الخطاب الذي ألقاه القدِّيس بولس الرَّسول أمام الملك أغريباس، فإننا نجده يذكر أنه واقف في موضع الاتهام ليُحاكَم على رجاء الوعد الذي صار من الله لآبائنا. الذي أسباطنا الاثنا عشر يرجون نواله. فلو كان أغريباس يشك في هذه الحقيقة - أي حقيقة وجود هذه الأسباط - لما ترك هذه الملاحظة تمر دون اعتراض.

+ يذكر المؤرخ يوسيفوس في حديثه عن الملك أغريباس أنه بعد مرور أربع سنوات على محاكمة القدِّيس بولس الرَّسول أمامه، أنه ألقى خطاباً على اليهود محاولاً تسكين ثائرتهم ضد الرُّومان، وقال لهم: "وهل تعتقدون أن إخوتكم السَّاكنين عبر الفُرات في أدبينه سوف يهبُّون لمعونتكم؟"، وكان قد مرَّ على سبي الأسباط العشرة إلى أرض آشور حتى ذلك الحين ما يزيد على سبعة قرون كاملة، ومع ذلك فالملك يتحدَّث عن وجودهم كشعب له كيانه في القرن الأوَّل المسيحي.

+ يوجِّه القدِّيس يعقوب رسالته إلى «الاثني عشر سبطاً الذين في الشتات»، وغني عن القول، أن هؤلاء غير اليهود الدُّخلاء أو الأمم المتهوِّدين.

+ يذكر القدِّيس جيروم في القرن الخامس الأسباط العشرة كجماعة تعيش في أيامه في أرض السَّبي. وفي شروحاته لنبوة هوشع يقول: "إن الأسباط العشرة يعيشون حتى يومنا الحاضر خاضعين لسُلطان ملوك فارس، حتى أن سبيهم لم ينتهي بعد، وما زالوا يسكنون المدن، والمناطق الجبليَّة في أرض المديانيين".

+ لمَّا عاد عزرا إلى أورشليم اصطحب معه ألفين من الرِّجال، فهل

كان هذا هو العدد الذي سُبي؟ يجيب المؤرِّخ يوسيفوس على هذا السؤال قائلاً: "... وبعد أن أخذ عزرا القرارات من الملك بالرجوع، قرأها على اليهود الذين في أورشليم، كما أرسل منها نسخاً لكل بقيَّة الشَّعب الذي كان في أرض ميديا. وحينما عرف اليهود تقوى ذلك الملك نحو الله، ولطفه وإحسانه لعزرا، فاضت قلوبهم بالسُّرور، بل إن كثيرين منهم رجعوا إلى بابل تمهيداً لعودتهم إلى أورشليم. لكن غالبية أمَّة إسرائيل بقيت هناك في أرض الماديين، أي دولة ميديا". وقد تكوَّنت دولة ميديا من اتحاد مملكة آشور بمملكة مادي، وهناك بقى يهود الشَّتات مئات السِّنين قبل ظهور المسيحيَّة. ولا يوجد أي دليل حتى اليوم يثبت أي اضطهاد وقع على هذه الكنيسة تحت حكم الفُرس القدماء[٧].

ومن الملاحظات ذات الاعتبار أنهم ينفِّذون بدقَّة، وحتى اليَوم، النَّاموس اليهودي الذي يقضي بالانتقام من مرتكب الجريمة، والذي يقوم به من يُسمى في التَّوراة بـ "ولي الدَّم". حتى أنه يُحسب عاراً يلحق بأسرة القتيل إذا لم تقم بأخذ الثأر. ولم تفلح تعاليم الإنجيل في محو هذه العادة اليهوديَّة. أما مُدن الملجأ في العهد القديم فقد استُبدلت بها الكنائس في الطَّقس الكلداني. فيستطيع القاتل بطريق الخطأ أن يلجأ إلى الكنيسة، ويبقى هناك دون أن يمسه ولي الدَّم، حتى يجتمع الشُّيوخ ويفحصوا جريمته. فإذا ثبت سوء نيَّته، يسلَّم إلى ولي الدَّم ليموت. أما إذا أثبت التَّحقيق براءته، فتُحدَّد ديَّة بواسطة القُضاة حسبما يتراءى لولي الدَّم.

وهكذا نرى أن القانون المدني للكنيسة الآشوريَّة مستمد في معظم بنوده من النَّاموس الموسوي، وهو ما يقدِّم لنا أقوى دليل على أصولهم اليهوديَّة.

٧- الحوار السِّرياني، مرجع سابق، ص ١٣٠

ولغة كنيسة المشرق الآشوريَّة هي الآراميَّة السِّريانيَّة، ولقد كانت هذه اللُّغة نفسها هي لغة اليهود المتداولة في عصر السيِّد المسيح. وتحتفظ البشائر الأربع لنا بعيِّنات من هذه اللُّغة مثل قول المسيح: «طاليثا قومي»، أي »يا صبيَّة قومي«، وكذلك كلمة السيِّد المسيح على الصَّليب «إيلي إيلي لَما شَبَقتني»، أي «إلهي إلهي لماذا تركتني»، وأيضاً كلمة «إفَثّا» أي «انفتح».

وهذه اللُّغة الآراميَّة السِّريانيَّة التي تكلَّمها النَّساطرة، لا يوجد من يتكلَّم بها الآن في العالم عدا بعض القُرى اللبنانيَّة مما يدل على أنهم سلالة شعب قديم واحد. ولا يزال الآشوريون في جبال الكردستان وشمال العراق ينطقون بلهجة متحدِّرة من الآراميَّة. أما اللُّغة الآراميَّة السِّريانيَّة فلم تعد اليوم لغة حيَّة، واقتصر استعمالها على الصَّلوات الطَّقسيَّة. إلاَّ أن الكلدان في العراق يتعلَّمون السِّريانيَّة في المدارس، وهم اليوم أشد تمسُّكاً بلغتهم القوميَّة وأكثر فهماً لها.

دخول المسيحيَّة إلى بلاد فارس القديمة

إن ما أحاط هذه الجماعة من ظروف، قد مهَّد السَّبيل أمامها لقبول رسالة المسيحيَّة. فقد كانوا أكثر تفتُّحاً من يهود فلسطين في مناقشة نبوات العهد القديم، وتفهُّم مضمونها على أيدي المبشرين لهم بالمسيح المخلِّص، المسيَّا الذي انتظروه مئات السِّنين منذ إبراهيم. ويؤكد بعض المؤرِّخين أن هذه الجماعة المسيحيَّة تكوَّنت فيها أقدم وأعرق الكنائس المسيحيَّة على الإطلاق. فكنيسة المشرق الآشوريَّة هي بالتأكيد من أقدم كنائس العالم.

ولا يسعفنا التَّاريخ في كشف كيفيَّة دخول المسيحيَّة إلى تلك

البلاد. ولكن هناك تقاليد لهذه الكنيسة تعتبر هي المصادر التي عرفت عن طريقها المسيحيَّة.

أولها: زيارة المجوس للطفل يسوع في فلسطين، وعودتهم إلى بلادهم يكرزون بما رأوا.

وثانيها: قصة الملك أبجر الخامس ملك أديسَّا الذي سمع بأعمال المسيح فأرسل إليه يستضيفه إلى بلاده لكي يشفيه من مرضه، ولكي ينادي بالدِّين الجديد بين شعبه، وإرسال يسوع خطاباً إلى الأبجر مرسَلاً بيد حنانيا أحد رجال البلاط، يعده فيه بأن يرسل إليه أحد تلاميذه بعد أن يصعد هو إلى السَّماء لينال الشِّفاء على يديه، ويهبه الحياة هو ومن معه. وكان التِّلميذ الذي أرسله يسوع هو تداوس الرَّسول (أدّاي). فكرز بالإيمان المسيحي بدءًا من "الرَّها"، ثم امتد إلى الجنوب الشَّرقي منها عن طريق تلميذه ماري. فاعتنق الملك المسيحيَّة واعتمد هو وكل شعبه. وتركَّزت المسيحيَّة أوَّل ما تركَّزت في جنوب قسطيفون العاصمة الفارسيَّة القديمة. وبرغم أن القصَّة تفتقر إلى السَّند التَّاريخي، إلاَّ أنه من المؤكَّد تاريخياً أن الأبجر الثامن (١٧٦- ٢١٣م) كان مسيحياً. أما فتح الرُّومان لأديسَّا سنة ٢١٦م فقد أنهى حكم الأبجر التاسع.

وبينما كانت المسيحيَّة تُضطهد في الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة حتى سنة ٣١٣م، استطاعت الكنيسة الآشوريَّة أن تتطوَّر بسلام في بلاد فارس القديمة. وكان ذلك قبل قدوم الفُرس سنة ٢٢٦م، وهم سلالة ملكيَّة تُدعى السَّاسانيِّين، تحت حكم الملك أردشير الأوَّل.

وفي سنة ٢٨٦م تبنَّت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة الزردشتيَّة ديناً للدَّولة فيها. وسرعان ما حلَّت موجات اضطهاد عديدة على الكنيسة كان أكثرها سفكاً للدِّماء ما بين سنة ٣٣٩م وسنة ٣٧٩م تحت حكم سابور

الثاني مخلّفة وراءها الآلاف من الشُّهداء.

وعندما استعادت الكنيسة الآشوريَّة السَّلام، تم عقد مجامع كثيرة في العاصمة الفارسيَّة، سلوقية الجديدة، في الفترة الواقعة ما بين سنة ٤١٠م وسنة ٧٧٥م، والمعروفة عموماً اليوم باسم Synodicon Orientale منها: مار اسحق (٤١٠م)، مار ياهبالاها (٤٢٠م)، مار داديشو (٤٢٤م)، مار آقاق (٤٨٦م)، مار آبا (٥٤٤م)، مار إيشوعياب (٥٨٧م)، مار صابريشو (٥٩٦م)، مجمع غريغور (٦٠٥م)، مجمع عام (٦١٢م) ... الخ.

ازدهار المراكز اللاهوتيَّة المسيحيَّة في دولة فارس القديمة

خلال الأربعة قرون الأولى للميلاد لم يكن هناك انقسام بين الكنيسة السِّريانيَّة الشَّرقيَّة والكنيسة السِّريانيَّة الغربيَّة، بل كانت "أديسَّا" وهي "الرّها" في الإمبراطوريَّة الفارسيَّة ملاذاً لأكثر من واحد من رواد الفكر المسيحي من الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة.

وبعد مجمع نيقية مباشرة، افتتح مار يعقوب مدرسة "نصيبين"، مع الشَّاب الموهوب مار أفرآم السِّرياني كمعلّم. وكانت المدرسة مع المدينة نفسها ضمن حدود الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة في ذلك الوقت. وفي سنة ٣٦٣م في عهد شاهبور (سابور) الثَّاني ملك الفُرس تنازلت الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة عن "نصيبين" موطن أفرآم السِّرياني، كجزء من معاهدة السَّلام بعد موت الإمبراطور جوليان أثناء حملته في جنوب بلاد ما بين النَّهرين. وبسقوط "نصيبين" في أيدي الفُرس لم يجد جهابذة الفكر هناك من سبيل إلاّ الهرب إلى "أديسَّا" وهي "الرّها". وكان على رأسهم القدِّيس أفرآم السِّرياني، أبو الأدب السِّرياني في مجال التَّفسير، وتأليف الأناشيد والنُسكيَّات، حيث تُرجمت كتاباته إلى اليونانيَّة والأرمينيَّة، وبعد ذلك إلى

اللُّغة العربيَّة.

ففي الوقت الذي فيه كانت أنطاكية تنحدر من ضعف إلى ضعف، كانت أديسًا تزداد قوَّة وحفاظاً على الأدب السِّرياني. حتى جاء الوقت الذي حدث فيه الانشقاق بين الكنيسة السِّريانيَّة الشَّرقيَّة (المسيحيَّة الآشوريَّة) وبين الكنيسة السِّريانيَّة الغربيَّة (المسيحيَّة الأنطاكية) وذلك سنة ٤٣١م، بظهور بدعة نسطور بطريرك القسطنطينيَّة، حيث انتقلت هذه البدعة إلى قلب السِّريانيَّة الشَّرقيَّة، ووجدت لها هناك مكاناً آمناً بعيداً عن الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة بسطوة أباطرتها.

وبتأصُّل هذه الهرطقة النَّسطوريَّة في الكنيسة السِّريانيَّة الشَّرقيَّة، اعتنقت الكنيسة الآشوريَّة سنة ٤٨٦م النَّسطوريَّة رسمياً وذلك في مجمع سلوقية، تحت تأثير متروبوليت نصيبين، المدعو برصوم. بعد أن أصبحت "نصيبين" أسقفيَّة هامة من أسقفيَّات كنيسة المشرق. وفي سنة ٤٨٩م، طرد الإمبراطور زينون النَّساطرة من الرَّها فهاجروا إلى فارس(٨)، فانقطعت هذه الكنيسة نهائياً عن الكنيسة الأم، وهي كنيسة أنطاكية. وأكَّد النَّساطرة موقفهم بطريقة أوضح في سنودس سنة ٦١٢م، عندما اعتمدوا المبادئ المخالفة للكنيسة الجامعة، فقالوا بطبيعتين، وأقنومين، وشخص prosopon واحد للمسيح، وأقصوا تماماً تعبير والدة الإله Theotokos عن القدِّيسة مريم. وهكذا انزوت هذه الكنيسة مؤثرة العزلة عن أحداث مسيحيَّة مستقبلة سواء في أنطاكية أو القسطنطينيَّة أو غيرهما.

وجاء الدَّور على مدرسة نصيبين عندما استقبلت في الوقت المناسب الأساتذة اللاجئين من الرَّها، حين تم إغلاق المدرسة اللاهوتيَّة في الرَّها من

٨- الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، المسيحيَّة والحضارة العربية، بيروت، بدون تاريخ، ص ٣٠

قِبَل الإمبراطور زينو سنة ٤٨٩م كما سبق القول.

وعلى مدى القرن الخامس كله كان التّعليم اللاهوتي في الرّها ونصيبين يسير جنباً إلى جنب، والشّاهد الرّئيسي على ذلك هو الشّاعر نارساي، الذي درّس وعلّم في الرّها، ثم انتقل حوالي سنة ٤٧١م ليعلّم في نصيبين، وظل يعلّم بها حتى سنة ٤٩٦م وهو العام الذي تم فيه إصدار القوانين المنقّحة لمدرسة نصيبين.

ولقد حافظت مدرسة نصيبين بشكل جلي خلال القرن السّادس على موقع ريادي كان له تأثير كبير على التّطورات اللاهوتيّة لكنيسة المشرق في هذه الفترة. وفي غضون منتصف القرن السّادس نفسه حينما بدأ الانتعاش الرّهباني يتركّز في جبل إيزالا شمال شرق نصيبين - وباضطراد دور الأديرة في التّعليم اللاهوتي - بدأ الضّعف يدب في مدرسة نصيبين مع أوائل القرن السّابع الميلادي.

وإلى جانب مدرسة نصيبين اللاهوتيّة كان يوجد مدارس لاهوتيّة في مدن أخرى مثل المدرسة الموجودة في سلوقية - قسطيفون.

الكنيسة الآشوريّة من عهد جوستنيان حتى العصر الحديث

كانت سياسة جوستنيان الإمبراطور الرّوماني ذات أصداء كبيرة على كنيسة المشرق الآشوريّة. فقد أدان المجمع الخامس سنة ٥٥٣م كتابات تيودور الموبسويستي. وكانت النتيجة المباشرة لاضطهاد جوستنيان لمناوئي مجمع خلقيدونية، أن العديد من الرّهبان والكهنة الأرثوذكس عبروا إلى الإمبراطوريّة السّاسانية طلباً للأمن. وكانت إحدى نتائج ذلك أن شهد أواخر القرن السّادس امتداداً ملحوظاً للوجود السّرياني الأرثوذكسي في

الإمبراطوريَّة السَّاسانيَّة.

فنشأت فيما بعد جماعة مسيحيَّة في الإمبراطوريَّة السَّاسانية ارتبطت مع بطريركية أنطاكية السِّريانيَّة الغربيَّة، ورُسم لها أساقفة من الكنيسة الأنطاكيَّة، وكان للأسقف يعقوب البرادعي دور متميِّز في ذلك. وفي سنة ٦٢٩م تم تنظيم هذه الجماعة رسمياً كجزء من بطريركيَّة أنطاكية. وكانت الأسقفيات السِّريانيَّة الغربيَّة في أراضي الكنيسة السِّريانيَّة الشَّرقيَّة جميعها في شمال وغرب العراق حالياً، في المنطقة الموجودة حول تكريت، وهي المنطقة التي احتلها الإمبراطور هرقل والجيش البيزنطي سنة ٦٢٩م.

ولم يتأثَّر النَّساطرة الذين كان معظمهم يعيش في العراق وإيران بالأحداث التي هزَّت بلاد الشَّام في القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر. ولما استولى المغول على العراق سنة ١٢٥٨م وقضوا على الخلافة العباسيَّة، تحسَّنت أوضاع النَّساطرة. فهولاكو الفاتح (١٢١٧- ١٢٦٥م) كانت أمه نسطوريَّة، وعدد كبير من شعبه اعتنقوا النَّسطوريَّة. واعتلى السُّدة البطريركيَّة عدة بطاركة من أصل مغولي، إلاَّ أن معظم المغول الوثنيين انتحلوا الإسلام في القرن الرَّابع عشر وتألبوا على النَّساطرة. وقضى تيمور لنك (١٣٩٦- ١٤٠٥م) على جماعاتهم في إيران والعراق، وكان لاضطهاده أسوأ الأثر على الكنيسة النَّسطوريَّة، وكاد أن يعدمها وجودها. أما من ثبتوا على إيمانهم من النَّساطرة ونجوا من المذابح، فقد لاذوا بالجبال في مناطق كردستان وبحيرتي وأورميا وفان. فانكمشوا إلى قبائل فقيرة تسكن الجبال ويسودها الجهل .

في العصور الوسطى

في أواسط القرن السَّادس عشر، وبالتحديد في سنة ١٥٥٢م، بدأ

الاتصال بين النَّساطرة والكنيسة الكاثوليكيَّة، بواسطة راهب من دير الرَّبان هرميزد قرب الموصل بالعراق، يُدعى شمعون سلاقة، احتجاجاً على مبدأ الوراثة البطريركيَّة من عائلة واحدة، وهو المبدأ الذي أُدخل على منصب البطريركيَّة منذ نهاية القرن الخامس عشر. فانقسم النَّساطرة إلى شطرين:

الشَّطر الأوَّل: بقي على مذهبه القديم، ودُعوا باسم "الكنيسة الآشوريَّة" (٩).

الشَّطر الثَّاني: اتحد بروما مع حفاظه على طقوسه، ودعوا باسم "الكنيسة الكلدانيَّة"، وبطريركهم يقيم اليوم في مقره في بغداد، بعد أن تنقل من مكان لآخر كان آخرها الموصل.

في العصر الحديث

كان النَّساطرة (الآشوريون) يتمتَّعون بشبه استقلال في معاملتهم الجبليَّة، وثاروا على العثمانيين إبان الحرب العالميَّة الأولى بتحريض من الإنجليز والروس، ثم تخلى عنهم الحلفاء فاضطروا إلى الهرب من وجه الأتراك، فنزحوا عن أراضيهم ولجأوا إلى العراق.

وفي سنة ١٩١٥م أُجبر كثير من مسيحيي الكنيسة الآشوريَّة على مغادرة أرض أجدادهم بسبب الاضطهاد الشَّديد لهم من قِبَل العثمانيين والأكراد. وحلَّت بهم في العراق نكسة جديدة سنة ١٩٣٣م، فلجأ عدد منهم إلى مناطق سوريا، ونُفي بطريركهم إلى الولايات المتَّحدة.

وأضحى الآشوريون الآن أقليَّة مشتَّتة ما بين إيران والعراق وسوريا والقوقاز. وبلغ عددهم في أوائل السَّبيعنيات من القرن العشرين حوالى

٩- سوف لا نلتزم بهذه التَّسميات، فعند ذكرنا لكلمة الكلدان أو الآشوريين فنعني بهم هذين الشطرين معاً، إلاَّ لو أشرنا إلى غير ذلك.

١٢٠ ألفاً، منهم ٨٠ ألفاً في العراق وسوريا ولبنان، وحوالي ٥ آلاف في الهند، و٢٥ ألفاً في أمريكا، مع بعض آخر موزع في بلدان العالم المختلفة.

وهم يعيشون الآن مبعثرين في أنحاء العالم، ويحاولون أن يحافظوا على خطر الانصهار بالبيئة التي يعيشون فيها، ليس فقط على إيمانهم، بل أيضاً على لغتهم وثقافتهم. وقد تحسَّنت أحوالهم أخيراً في العــراق، واستعاد البطريرك جنسيَّته العراقيَّة وتمكَّن من زيارة البلاد.

أما الفرع الكاثوليكي أي الكلداني، فقد تبنى جماعة منــهم التَّقــويم الغريغوري سنة ١٩٦٥م، ليحتفلوا بالأعياد المسيحيَّة مع الغــرب. وبلــغ تعداد الكلدان في أوائل السَّبعينيَّات من القرن العشرين حوالي ٣٠٠ ألف، معظمهم من العراق. ويقيم بطريركهم أيضاً في العراق.

ثانياً: النَّشاط التَّبشيري للكنيسة الآشوريَّة

(أ) قبل الإسلام

يشهد التَّاريخ بنشاط تبشيري جبَّار للكنيسة الآشــوريَّة امتــد إلى الشَّرق الأقصى في بلاد الهند (المالابار)، والصين، إلى جانــب الجزيــرة العربية، وبلاد المغول، والتَّتار، والأتراك.

التَّبشير بالمسيحيَّة في الجزيرة العربيَّة

كانت الجزيرة العربيَّة قبل ظهور الإسلام تحيا حياة البداوة البدائيَّــة، وعاش أهلها عيشة قبائل رُحَّل، لا يقرّون في مكان، ولا يتَّصلون بالأرض

التي يسكنونها اتصالاً وثيقاً كما يفعل المزارع. وعلى قدر ما تحضَّرت الشُّعوب التي حولهم كسكان الفُرات، وسكان وادي النيل، ظلوا هم في حياتهم البدائيَّة كقوم رُحَّل لا يقرُّون في مكان. فالذي يقود إلى الحضارة عيشة القرار واستخدام العقل في تنظيم شؤون الحياة، وإن كانت هناك أصقاع ممدَّنة في جزيرة العرب كصقع اليمن[١٠].

لقد كانت مظاهر الحياة الفكريَّة في الجاهليَّة لا تتعدَّى اللُّغة والشِّعر والأمثال والقصص، فهي فقط مظاهر عقلهم. أما العلم والفلسفة فلا أثر لها عندهم[١١]. والشِّعر الجاهلي لا يدلنا على خيال واسع متنوِّع، ولا على غزارة في وصف المشاعر والوجدان بقدر ما يدلنا على مهارة في التَّعبير وحسن بيان في القول، فيبهرك التَّفنن في القول أكثر مما يبهرك ابتكار المعنى، أو قل إن لسان العربي الجاهلي أمهر من عقله[١٢].

وفي ذلك يقول ابن خلدون: "... قدَّمنا أن الصَّنائع من منتحل الحضر، وأن العرب أبعد النَّاس عنها، فصارت العلوم لذلك حضريَّة، وبَعُدَ عنها العرب. والحضر لذلك العهد هم العَجَم أو من في معناهم من الموالي داخلِ الحواضر ... لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الرَّاسخة فيهم منذ دولة الفُرس ... فكان صاحب صناعة النَّحو، سيبويه، والفارسي من بعده، والزَّجاج من بعدهما، وكلهم عجم في أنسابهم ... وكذا حملة الحديث وعلماء أصول الفقه، وحملة علم الكلام، وأكثر المفسرين. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلاَّ الأعاجم. أما العرب الذين أدركوا هذه

١٠- انظر: أحمد أمين، فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٦م، ص ١١

١١- انظر: أحمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٧٨

١٢- انظر: نفس المرجع، ص ٩٦،٦٢

الحضارة وسوقها، فشغلتهم الرِّياسة في عهد الدَّولة العباسية ...[١٣]".

وهو ما يؤكده الدكتور العميد طه حسين فيقول: "إن الكثرة المطّلعة من العلماء الذين انصرفوا إلى الأدب واللُّغة والكلام والفلسفة كانوا من العجم الموالي ... ومن هنا كان هؤلاء العُلماء والمناظرون أصحاب ازدراء للعرب، ونعي عليهم، وغض عن أقدارهم ... إن الخصومة بين العرب والعَجَم دعت العرب وأنصارهم إلى أن يزعموا أن الأدب العربي القديم لا يخلو أو لا يكاد يخلو من شئ تشتمل عليه العُلوم المحدثة. فإذا عرضوا لشئ مما في هذه العُلوم الأجنبيَّة؛ فلابد من أن يثبتوا أن العرب قد عرفوه أو ألموا به أو كادوا يعرفون ويلمون به[١٤]".

كانت الجزيرة العربيَّة تقع بين أعظم مدنيتين في العالم آنئذ: فارس شرقاً، والرُّومان غرباً. ولقد رأى الفُرس والرُّوم أن خير وسيلة لدفع شر العرب عنهما هو أن يساعدوا بعض القبائل العربيَّة المجاورة على أن تستقر على التُّخوم، يزرعون ويتحضَّرون، ويكونون رِدْءاً لهم يصدُّون غارة البدو الذين يغزون وينهبون، فتكوَّنت على جانبي صحراء سوريا الفاصل بين الدَّولتين، مملكتان: الأولى عربيَّة فارسيَّة وهي دويلة اللَّخميين، وعاصمتها إمارة الحيرة على تخوم الفُرس، والثَّانية عربيَّة رومانيَّة وهي دويلة الغساسنة على تخوم الرُّومان.

ولقد عمَّر اللَّخميون في الحيرة، والغسانيون في الشَّام قروناً طويلة، وبلغوا من المدنية شأواً بعيداً إذا قيس بحالة العرب في الجزيرة. وكان منهم من يخالط الفُرس والرُّوم ويتكلَّم معهم بلغتهم. وكان من بين هؤلاء الحيريين والغسانيين شعراء لهم لغتهم الخاصة بهم غير لغة قريش التي سادت

١٣- نفس المرجع، ص ٢٤٢، ٢٤٣

١٤- د. طه حسين، في الشعر الجاهلي، الكتاب الثاني: ٥

الحجاز. ولأن الحيريين والغسانيين أرقى ممن حولهم من العرب، فقد أنفوا أن يخضعوا للسان غير لسانهم. ويؤكّد ثقات المؤرخين قديماً وحديثاً أن لغة اليمن كانت غير لغة قريش[١٥].

إمارة الحيرة

أسّس الفُرس إمارة الحيرة على الضفة اليُمنى لنهر الفُرات في عهد سابور الأوّل ملك الفُرس (حوالي سنة ٢٤٠م). واشتهرت الحيرة في الأدب العربي بحسن هوائها وطيبه حتى قيل: يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة[١٦]. وكان عرب الحيرة لا يرتبطون بفارس إلاّ بما توجبه المعاهدات عليهم. وكان ملك الفُرس ينصّب أميراً من قبيلة اللّخميين (وهي قبيلة من أصل يمني) على هذه الإمارة. وكان أمراء الحيرة مقصداً لشعراء عرب الجزيرة يمتدحونهم فينفحونهم بالمال. وكان الوثنيون من أهل الحيرة يعبدون أصناماً منها: اللات والعزّى، وسبد ومحرف.

وظل عرب الحيرة همزة الوصل بين الفُرس وعرب الجزيرة العربيّة. وكان لهم أثر كبير على الحياة الفكريّة للعرب عامة، فقد كانوا أرقى عقلاً ومدنيّة من عرب الجزيرة لمجاورتهم مدنيّة الفُرس العظيمة، واتصالهم بهم اتصالاً وثيقاً. بل لقد تسرّب إلى عرب الحيرة شئ من علوم اليونان وآدابهم. لأن الحكومة الفارسيّة في عهد هُرمز الأوّل أنشأت مستعمرات كوّنتها من أسرى الحرب الرُّومانيين، وكان من بين هؤلاء الأسرى من تثقّف بالثقافة اليونانيّة، ومنهم من كان يفوق الفُرس في الفنون والهندسة والطب. فاستخدم الفُرس هؤلاء الرُّومانيين في مهام شؤونهم.

١٥- نفس المرجع، ص ٣٩

١٦- الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، المسيحيّة والحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٥٦

ويُظن أن هؤلاء الأسرى الرُّومانيين هم الذين نزلوا إلى إمارة الحيرة وكانوا هم أصل النصرانيَّة فيها حيث بشَّروا بالمسيحيَّة. ولكن سرعان ما انتشرت النَّسطوريَّة في الحيرة(١٧). وكان رجال الدِّين النَّساطرة أطباء في بلاد فارس، وانتشر كثير منهم في الحيرة. وكان هؤلاء النَّساطرة هم الصِّلة بين اليونان والعرب.

وفي بداية القرن الخامس كانت الحيرة مركزاً لإيبارشيَّة، وقد اشترك مطرانها واسمه هوشع، في مجمع سلوقية. وقد ساهم مطارنة الحيرة في كثير من المجامع الكنسيَّة التي عُقدت في مملكة فارس في سنة ٤٢٤، ٤٨٦، ٤٩٧م، حتى لقد ربطت هذه المجامع مصير الكنيسة عند اللَّخميين بالكنيسة النَّسطوريَّة(١٨).

لقد بدأت جذور المسيحيَّة تنمو في الحيرة على يد ملكها امرئ القيس الأوَّل، ثم أخذ عودها يستقيم على عهد حفيده النُّعمان بن المنذر، وقيل على يد الجاثليق عبد يشوع بطريرك الكنيسة النَّسطوريَّة.

وبلغت الحيرة شأوها في أيام المنذر الثَّالث (٥٠٥- ٥٥٤م)، وكان معاصراً للإمبراطور الرُّوماني جوستنيان. وذكر بعض المؤرِّخين أنه لما عُقد الصُّلح بين الفُرس والرُّومان سنة ٥٢٢م، كان من شروطه أن يدفع الرُّومان قدراً من المال لملك الفُرس وللمنذر.

ولقد حاول أصحاب الطبيعة الواحدة في بداية القرن السَّادس أن يُدخلوا عقيدتهم إلى الحيرة، فوفد إليها أحد المطارنة واستطاع أن يكسب بعض الأشخاص لمذهبه، وأن يشيِّد كنائس. ولقد أرسل القدِّيس ساويرس

١٧- أحمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٤٣

١٨- الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، المسيحيَّة والحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٥٤

الأنطاكي (٤٦٥-٥٣٨م) مطرانين من أصحاب الطبيعة الواحدة إلى المنذر الثّالث في سنة ٥١٣م، ولكن ظلت الحيرة نسطوريَّة[١٩]. ولاقت تشجيعاً من الفُرس نكاية في الرُّوم. وكانت الحيرة من المراكز الهامة في حركة التَّبشير بالنصرانية بين العرب، ومنها ذهب قسم من المبشرين إلى اليمن والمناطق الأخرى من الجزيرة العربيَّة.

بعد ذلك تولى إمارة الحيرة النُعمان بن المنذر الخامس وهو زوج هند، والملقَّب بأبي قابوس، وصاحب النابغة الذبياني. وكانت هند زوجة النُعمان الخامس قد قبلت المسيحيَّة، ونشأ ابنها عمرو بن المنذر الذي تولى حكم الحيرة فيما بين عامي ٥٥٤، ٥٦٩م مسيحياً. وأنشأت هند ديراً سُمي "دير هند" وظل قائماً حتى عهد الطَّبري[٢٠]. ويقولون إن النُعمان اعتنق النُّصرانيَّة على يد عدّي بن زيد[٢١]، فوضع تاجه، وخلع أطماره، ولبس المسوح، ولزم عبادة الله في الجبال حتى مات[٢٢]. وفي رواية أخرى، مات سنة ٦٠٢م عندما غضب عليه كسرى، وبموته ألغت الحكومة الفارسيَّة نظام إمارة اللّخميين، وولّت من قِبَلها حاكماً فارسياً يخضع له أمراء العرب. واستمر الحال على هذا المنوال حتى سنة ٦٣٣م حين فتح الحيرة خالد بن الوليد.

ولقد أدى تأسيس الكوفة في الإسلام إلى أفول نجم الحيرة. وقد انتقل

١٩- نفس المرجع، ص ٥٥

٢٠- أحمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٠، ٣١

٢١- كان يوجد في الحيرة مدرسة شعراء، أشهرهم عدّي بن زيد، وذكر كتاب الأغاني أن الشّاعر الأعشى الذي طاف في جميع أنحاء جزيرة العرب قد أخذ آراءه الدِّينيَّة عن مسيحيي الحيرة.

٢٢- أحمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٤٦. انظر أيضاً: ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، عرّبه محمد فريد أبو حديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ١٢٧

النَّاس من المدينة القديمة إلى المدينة الجديدة، واستعملوا حجـارة الحـيرة وقصورها في بناء الكوفة، وبعد مقاومة طويلة للشَّيخوخة دخلت الحـيرة في عداد المدن المندثرة.

إمارة الغساسنة

كوَّن الغسَّانيون في الشَّام إمارة كالتي كوَّنها اللَّخميون في الحـيرة. ويقول المؤرِّخون أن أصل الغساسنة أيضاً يرجع إلى قبيلة جفنة، وقوامهم عرب سوريا الذين كانوا قد هاجروا من اليمن، ويقول ابن قتيبة: إن أوَّل أمير جاء بالغسانيين إلى سوريا هو ثعلبة بن عمـرو[٢٣]. إلاَّ أن تـاريخ الغساسنة في الشَّام هو من الأمور الغامضة في تاريخ العرب. ومعلوماتنـا الأكيدة عنهم ترقى إلى القرن السَّادس الميلادي فقط.

وكان الغسانيون أرقي عقليَّة حتى من عرب الحيرة، لأنهم كـانوا أقرب اتصالاً بالثقافة اليونانيَّة والمدنيَّة الرومانيَّة. وكان شعراء العرب يفدون إليهم مثل النَّابغة الذبياني، والأعشـى، وغيرهمـا فيحسـنون وفادتهم. والأدب العربي مملوء بالقصص والأساطير والأمثال التي قيلت في هؤلاء الغساسنة[٢٤].

ولقد كان هناك عداء شديد بين الغساسنة وإمارتهم في الشَّام، وبين اللَّخميين وإمارتهم في الحيرة، وكثيراً ما وقعت بينهم الحروب الهائلة.

وأهم أمراء الغسانيين وأوَّل من يثق محقِّقو المؤرِّخين بإمـارتهم هـو الحارث بن جَبَلة. وقد عيَّنه الإمبراطور جوستنيان سنة ٥٢٩م أميراً علـى

٢٣- الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، المسيحيَّة والحضـارة العربيـة، مرجـع سابق، ص ٤٩، ٥٠

٢٤- أحمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٥، ٣٦

جميع قبائل العرب في سوريا، ومنحه لقب فيلارك، وبطريق. وهو أعلى لقب بعد الإمبراطور. وكان يريد بعمله هذا أن يقيم خصماً قوياً في وجه عملاء الفُرس من العرب اللّخميين.

ولقد كان الحارث بن جَبَلة نصرانياً من أنصار القائلين بالطّبيعة الواحدة، وكان قد اعتنقت معه كل قبيلته هذه العقيدة. وكان الحارث يعضد الكنيسة السِّريانيَّة الوطنيَّة (السِّريان اليعاقبة)، وعند زيارته للقسطنطينيَّة طلب من الإمبراطورة ثيؤدورة تعيين أسقفين لسورية، وقد كرَّسهما بطريرك الإسكندرية وهما: يعقوب البرادعي وتيودورس. وامتدت سلطة يعقوب البرادعي القضائيَّة على سوريا والدِّيار العربيَّة، وكان مركزه الرَّها. أما تيودورس فقد شملت سلطته القضائيَّة الدِّيار الغربيَّة وفلسطين، وكان مركزها الحيرة. وهكذا توطّدت دعائم الكنيسة القائلة بالطّبيعة الواحدة، بعد أن كانت مهددة بالخطر. وإن جميع المحاولات التي بذلها أصحاب الطّبيعتين، ولاسيَّما البطريرك الأنطاكي أفرايم (٥٢٦- ٥٤٣م) لضم الحارث إليهم قد باءت كلها بالفشل، بل إن الحارث قد عضد عدداً كبيراً من الأديرة التي انتشرت في دياره.

وقضى الحارث أكثر أيامه في محاربة المنذر الثّالث أمير الحيرة. وفي سنة ٥٥٤م انتصر نصراً عظيماً على المنذر في قنسرين. ومات الحارث سنة ٥٧٠م بعد أن حكم حوالي أربعين سنة. وقد ظل اسمه يُذكر في الوثائق الكنسية حتى ربيع سنة ٥٧٠م حينما بُدئ بذكر ابنه المنذر.

استلم المنذر بن الحارث زمام الحكم، وسرعان ما هب لمحاربة عرب الحيرة اللّخميين، الذين كانوا قد أغاروا على سوريا بعد وفاة أبيه، فانتصر عليهم في يوم عيد الصعود في ٢٠ مايو سنة ٥٧٠م، وكاد الأمير الغساني يصل إلى الحيرة عاصمة اللّخميين.

وكان المنذر بن الحارث متحمِّساً لعقيدته مثل أبيه، وبذل نفس المجهود للدِّفاع عن المونوفيزيَّة. وكان يشترك شخصياً في المناقشات الدِّينيَّة. وتفيد بعض المراسلات التي عُثر عليها في هذه الفترة أنه كان يوجد في حاشية الملك المونوفيزي بعض أنصار عقيدة خلقيدونيَّة (الملكانيون)(٢٥).

وبعد ذلك بحوالي عشر سنوات ساءت العلاقة بين الغساسنة والرُّوم. فأقالوا المنذر بن الحارث من منصبه، وقبضوا عليه ونفوه إلى جزيرة صقليَّة سنة ٥٨١م. وكان لابنه النُعمان نفس المصير، مما يدل على أن الثّقة بين روما والغسانيين كانت قد انعدمت. فحل الرُّومان هذه الدويلة، واختاروا بعض القبائل لقيادها، ولما غزا الفُرس الرُّوم وأخذوا منهم أُورشليم ودمشق سنة ٦١٣، ٦١٤م، انحط شأن الغساسنة وضعف أمرهم، وكان آخر ملوكهم هو جَبَلة بن الأيهم حتى أنه عندما هجمت الجيوش الإسلامية على سوريا لم يتصدَّ لها أحد.

ولما فتح المسلمون الشَّام، التقى جَبَلة بعمر بن الخطاب، وكان على نصرانيَّته، فعرض عليه الخليفة عمر الإسلام فأنف منه، وذهب إلى بلاد الرُّوم مع ثلاثين ألفاً من شعبه، فندم عمر وقال: "لو قبلت منه الصَّدقة وتألفته لأسلم". وذلك يثبت أن حكاية إسلام جَبَلة المذكور، ثم ارتداده أنفة من القود الذي توعده به عمر، مسطورة كغيرها من المسطورات التي يخفل بها التّاريخ العربي(٢٦).

بلاد الحميريِّين (اليمن)

إلى جانب إمارتي الحيرة والغساسنة في الشّمال، كانت هناك أيضاً

٢٥- الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، المسيحيَّة والحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٥٢

٢٦- خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، مرجع سابق، ص ١٦٦

البلاد الحميريَّة في الجنوب، وهي المعروفة اليوم ببلاد اليمن. وقد عُرفت عبر التَّاريخ ببلاد "سبأ" كما روت الآثار المكتشفة في جنوبي الجزيرة العربيَّة، ودُعيت أيضاً "العربيَّة السَّعيدة" كما تدعوها دائرة المعارف البريطانيَّة[٢٧]. ويذكر البطريرك الأنطاكي مار إغناطيوس يعقوب الثّالث، أن ما يشير إليه يوسابيوس القيصري عن بنتينوس مدير مدرسة الإسكندرية بقوله: "... حتى أنه عُين سفيراً لإنجيل المسيح للأمم التي في الشَّرق، ووصل حتى إلى الهند" (تاريخ الكنيسة ٥:١٠:٢) أن المقصود بالهند هنا، بلاد اليمن، وذلك لاختلاف الكتبة والمؤرِّخين في تسمية الشُّعوب المنتمية إلى العرق الأسود[٢٨].

ومن أشهر مدن الحميريِّن المذكورة في الوثائق السِّريانيَّة: سبأ، مأرب، ذي ريدان، ظفار، نجران، هجران، وحضرموت. وكان ملوك الحميريين يُلقبون في أوَّل أمرهم بـ "ملوك سبأ وذي ريدان"، حتى إذا استولوا على بلاد حضرموت في حدود سنة ٣٠٠م أضافوا "حضرموت ويمانات" أيضاً[٢٩].

وكان برثلماوس الرَّسول هو أوَّل من دعا إلى النُّصرانيَّة فيها وفي الحجاز، وقد عمَّد خلقاً من سكانها، وخاصة من اليهود، الذين ترك لهم نسخة من إنجيل متى باللُّغة السِّريانيَّة الفلسطينيَّة التي عُرفت عصرئذ بالعبريَّة أيضاً، فوجدها لديهم الفيلسوف الإسكندري الشَّهير القس بنتينوس أستاذ المدرسة الإسكندرية اللاهوتيَّة، الذي توغَّل في تلك البِّلاد

٢٧- مجلد ٣، ص ٤٠٣

٢٨- إغناطيوس يعقوب الثالث، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق، الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية، دمشق ١٩٦٦، ص ٥

٢٩- إغناطيوس يعقوب الثالث، بطريرك أنطاكية، الشهداء الحميريون العرب، مرجع سابق، ص ٦

في أواخر القرن الثَّاني مبشراً بالإنجيل[٣٠].

وفي القرن الثَّالث ضُمت نجران واليمامة إلى أسقفية أُنشئت في قطر[٣١]. وفي القرن الرَّابع أنشأ عبد يشوع النَّاسك السِّرياني في جنوبي قطر، ديراً باسم مار توما، زاره نحو سنة ٣٩٠م مار يونان النَّاسك أحد تلاميذ مار أوجين، فوجده آهلاً بمئتي راهب. فأقام ثَمَّ مدَّة، يقضي الصَّلوات مع الرُّهبان بالسِّريانيَّة. وقد شهد مؤرِّخو العرب – مثل الطَّبري – بنصرانيَّة كثير من ملوك اليمن، منهم عبد كلال بن مثوب الذي وُلِّيَ الملك بسن وتجربة وسياسة حسنة.

وفي أوائل القرن الخامس، عُرف في نجران تاجر وثني مُعتبر اسمه حيَّان، سافر ذات يوم إلى القسطنطينيَّة في تجارة، وعاد إلى بلاده، ثم شخص إلى بلاد فارس، ومرَّ بالحيرة حيث أَلِفَ النَّصارى وعرف تعاليمهم، فتنصَّر واعتمد. ولما عاد إلى نجران، أوقف قومه على بطلان الشِّرك، وهدى أسرته إلى النصرانية وخلقاً من أهل نجران والبلاد الحميريَّة الأخرى المتاخمة لإثيوبيا أيضاً. وفي هذا القرن أزهر الدِّين المسيحي في نجران خاصة، بعد أن تنصَّرت قبيلة الحارث بن كعب اليمنيَّة الكبيرة. وانتشرت الكنائس في البلاد الحميريَّة، ولاسيَّما في نجران وظفار ومأرب والهجران (هجرين) وحضرموت، فأصبحت نجران كرسياً أسقفياً في العقد الثاني من القرن السَّادس. وكان مار بولس هو أوَّل أسقف لنجران، وقد

٣٠- يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ٥:١٠:٢

٣١- إغناطيوس يعقوب الثالث، بطريرك أنطاكية، الشهداء الحميريون العرب، مرجع سابق، ص ٧

رسمه القدِّيس فيلوكسينوس المنبجي[٣٢] (+ ٥٢٣م) وإذ استشهد أسقف نجران في ظفار رجماً بالحجارة من يهود طبريَّة نحو سنة ٥١٨م رسم لها أسقفاً ثانياً هو مار توما[٣٣].

ولقد احتفظ المؤمنون الحميريون بعقيدتهم الأرثوذكسيَّة القائلة بالطَّبيعة الواحدة للمسيح بعد الإتحاد، وكانوا في مأمن من الاضطهاد الذي تعرَّض له أصحاب هذه العقيدة، نظراً لبعدهم عن الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة واستقلالهم عن الدَّولة الفارسيَّة. فكان نصارى نجران في بادئ الأمر على مذهب الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكية، وهذا يعلِّل اتصالهم بإثيوبيا أكثر من اتصالهم بالرُّومان. حتى كانت سنة ٥٢٣م حين تعرَّض نصارى اليمن لاضطهاد عنيف أثاره عليهم مسروق أو ذو نوَّاس الذي تهوَّد وتملَّك على تلك البلاد، فقتل بضعة آلاف منهم، فشهدت المسيحيَّة في اليمن لمسيحها بعمق الحُب حتى الموت من أجله. وما أشَّد الفارق بين اليوم والأمس.

وكان هذا الاضطهاد واحداً من الأسباب الرَّئيسيَّة التي دفعت إثيوبيا لغزو اليمن سنة ٥٢٥م، إذ استنجد نصارى اليمن بإثيوبيا فأنجدوهم، وغزوا بلاد العرب سنة ٥٢٢م. وفي سنة ٥٢٥م أنشأوا مستعمرة إثيوبيَّة على شاطئ البحر الأحمر، واستمر حكمهم حتى سنة ٥٧٥م. وسرعان ما انتشرت المسيحيَّة انتشاراً واسعاً في اليمن، واتخذ أبرهة مدينة "نجران" مركزاً رئيسياً لهذا الغرض. وكانت "نجران" أهم موطن للنصرانيَّة في

٣٢- هو مطران منبج، وكان من أكبر العاملين على عزل فلابيانوس الثاني الأنطاكي، وتنصيب مار ساويرس البطريرك الأنطاكي سنة ٥١٢م، وفي خريف سنة ٥١٨م، نفاه القيصر يوستينوس إلى غنغرا، حيث خنقه البيزنطيون بالدخان سنة ٥٢٣م.

٣٣- نفس المرجع، ص ٧، ٨، ١٢

جنوب الجزيرة العربيَّة. وظلّت كذلك حتى ظهور الإسلام[٣٤]. وكانت مدينة خصبة عامرة بالسُّكان قريبة من الطَّريق التُّجاري الذي يمتد إلى إمارة الحيرة[٣٥].

ويحتفظ التَّاريخ لنا بوصف جميل لكنيسة نجران في اليمن، والتي بناها أبرهة الأشرم، موفد ملك إثيوبيا على بلاد اليمن. وذلك بعد منتصف القرن السَّادس الميلادي بقليل. ويُروى أن ملك إثيوبيا كان شديد العناية بأمر بنائها وزخرفتها، وكان يقضي النَّهار واللَّيل فيها، حتى أنها كانت تُشبه كنائس الرُّوم في بنائها وزخرفتها. بأعمدتها العالية من المرمر الثَّمين، والقباب المزيَّنة بالفسيفساء المذهَّبة الألوان. ويفصل الهيكل عن الكنيسة حاجز من الأبنوس والمطعَّم بالعاج بنقش بديع. وكانت الأبواب تغطيها صفائح من الذَّهب ومساميرها من الفضَّة. أما الأبواب الثلاثة التي تفضي إلى الهياكل الثلاثة فتغطيها صفائح كثيرة من الذَّهب عليها حلية من الجواهر، وصليب بارز من الذَّهب والجوهر. ولقد سُميت هذه الكنيسة "كعبة نجران"، ويظن بعض المؤرِّخين العرب أنها كانت قبلاً كعبة للعرب يحجُّون إليها قبل مجئ النصرانيَّة، ثم اتخذها النَّصارى بعد انتشار المسيحيَّة فيها. وكان لكعبة نجران أساقفة معتَمدون[٣٦]. ويذكر أدباء العرب أن من بين رؤساء المسيحيَّة قبل الإسلام قس بن ساعدة الإيادي[٣٧]، وهو أسقف نجران.

تلك هي الكنيسة التي بناها أبرهة وساعده جستنيان في بنائها. ولم تكن كنيسة آجيًا صوفيًا ذاتها بأغلى زينة ولا أبدع في الصِّناعة منها.

٣٤- خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، مرجع سابق، ص ١٦٧.

٣٥- سيأتي الحديث عن هذه الإمارة بعد قليل.

٣٦- أحمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٦

٣٧- أي من قبيلة إياد، وهي إحدى القبائل التي انتشرت فيها المسيحيَّة.

ولعل هذا الوصف المجمل يحمل إلينا صورة للمدنيَّة الـتي وجـدها الإسلام في بلاد العرب، غير أن العرب حتى ذلك الوقت لم يكونوا قـد أقبلوا على الصِّناعات والفنون، ولم ينم لهم ذوق فيها، ولذلك لم يـدرك المسلمون من تلك الثروة العظيمة، ومن ذلك الجمال البارع إلاَّ أنها كانت للغنيمة والتَّحطيم. فنالها المسلمون بالأذى وهدموها وسواها مـن أبنيـة النَّصارى. ولم تكن الأبنية وقتئذ لتُترك كما هـي، أو تُتخـذ مساجد للمسلمين كما حدث في غير ذلك الوقت، وفي الـبلاد الأخـرى، لأن الإسلام كان في أوَّل أمره شديد الوطأة على الدِّين المسيحي، يمحو آثاره كما كان قبل ذلك يوقع باليهود وعبدة الأوثان. ولاشك في أن المسلمين كرهوا ما في كنائس النصارى من كثرة الصُّور والرُّسوم المنقوشة بالألوان، فحق لهم بعض الحق أن يخلطوا ما بين المسيحيَّة وعبادة الأوثان[٣٨].

ولما غزا الفرس بلاد اليمن سنة ٥٧٥م واحتلّوها، طردوا الأحباش من نجران، ومنذ ذلك الوقت انتشرت النَّسطوريَّة في نجران، حتى إلى عهـد عمر بن الخطاب حيث بلغ مسيحيو نجران آنئذ أربعين ألفاً[٣٩]، وخوفـاً على الإسلام، أجلاهم عمر بن الخطّاب من نجران اليمن إلى نجران العراق، كما نقل إلى الشّام والعراق يهود خيبر ومسيحيي دومة الجندل إلى جانب نصارى نجران، وذلك تحـت شـعار "لا يجتمـع في جزيـرة العـرب دينان[٤٠]". إلاَّ أن الطَّبري يذكر في تاريخه أنه كان بنجران في زمانه بقايا

٣٨- ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، ص ١٣٢،١٣١

٣٩- د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولـة الإسـلامية، القـاهرة ١٩٩٧م، ص ٤٢

٤٠- "كان نبي الإسلام قد أوصى وهو على فراش الموت ألاَّ يبقى في بلاد العرب غير دين الإسلام، والظاهر أن ذلك تم بلا تريث ولا إمهال، فقد أخرج المسيحيون من الجزيرة العربيَّة ولم يبق منهم فيها أثر. وكذلك قضي على ما كان عندهم من العلـوم والفنون والآداب". انظر: ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، ص ١٣١

من أهل دين عيسى بن مريم على الإنجيل، وأنهم أهل فضل وعبادة[٤١].

أسباب انتشار المسيحيَّة في الجزيرة العربيَّة

انتشرت الدِّيانة المسيحيَّة في الجزيرة العربية انتشاراً واسعاً، وكان حظها في ذلك أكبر من اليهوديَّة، وقد شاركت في ذلك عدة عوامل:

■ كانت الأقطار المحيطة بالجزيرة العربيَّة آنذاك تدين بالمسيحيَّة؛ فسوريا في الشَّمال الغربي، والعراق[٤٢] في الشَّمال الشَّرقي، واليمن في الجنوب، وإثيوبيا في الغرب. ولم تكن شعوب تلك الأقطار بكاملها تدين بالمسيحية، غير أنها كانت تمثِّل الدِّيانة الرَّسميَّة لغالبيتها، أو لشطر كبير منها. وفي الأطراف كانت دولة الغساسنة وكان أمراؤها يدينون بالمسيحيَّة. وهكذا بدت الجزيرة العربيَّة وقتذاك محاطة بسوار من الدُّول والدُّويلات، النصرانيَّة فيها إما الدِّيانة الرَّسميَّة أو الغالبة[٤٣].

■ لجوء جماعات مسيحية كبيرة إلى بلاد فارس، ومن ثمَّ إلى بلاد العرب، هرباً من اضطهاد الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة بعد حرم نسطور ونفيه، عقب مجمع أفسس سنة ٤٣١م.

■ غزو الأحباش لليمن، ثم محاولة أبرهة الخائبة لمد سلطانه إلى قلب الجزيرة العربيَّة. وأن هذه الحملة وإن باءت بالإخفاق، فإنها تركت أثراً دينياً ولو كان محدوداً. بالإضافة إلى أثر العلاقة الوثيقة بين العرب

٤١- خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، مرجع سابق، ص ١٧٣

٤٢- لم تكن المسيحيَّة هي الدِّيانة الرَّسمية في العراق، ولكن المسيحيَّة تأصَّلت فيها في الرُّها، وجندي سابور، ونصيبين، وسلوقية. وكان في بعض هذه المدن مدارس في اللاهوت استمرت حتى الخلافة العباسيَّة.

٤٣- خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، مرجع سابق، ص ١٦٦

والبيزنطيين كان سبباً في تأثر العرب بالمسيحيَّة، فانتشرت في الجنوب عن طريق إثيوبيا، والشَّمال عن طريق سورية وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديرة والصَّوامع[٤٤].

▪ يذكر الطبري أن الذي زرع النُّصرانية في عرب الجنوب واليمن هو ذو نواس قبل تهوده، فلما تهوّد قاتل نصارى نجران.

▪ اتصال العرب بكل من نصارى الشَّام ومسيحيي اليمن في رحلتي الشِّتاء والصَّيف، كذلك كان عرب الجزيرة وخاصة من يقطنون الأطراف الشَّمالية على اتصال بكل من الغساسنة والمناذرة. وكانت المسيحيَّة قد انتشرت فيهما. فكان الحجاز يستقبل بانتظام القوافل القادمة من أطراف سوريا وما بين النَّهرين، وكانت تلك المناطق تذخر بكثير من الكنائس والأديرة، فكانت هذه القوافل تحمل معها القصص والموضوعات المسيحيَّة. كذلك كان في الحيرة من سراة النَّصارى من اشتركوا مع سراة قريش في الأعمال التجاريَّة مثل كعب بن عيد التنوخي، فهو من سراة نصارى الحيرة، وكان أبوه أسقفاً على المدينة، وكان يتعاطى التِّجارة، وله شركة في التِّجارة في الجاهليَّة مع عمر بن الخطاب في تجارة البزّ، وكان عقيداً له[٤٥].

▪ ومن أسباب انتشار النصرانيَّة في جزيرة العرب أيضاً وخاصة في منطقة الحجاز، وجود عدد كبير من العبيد (الرَّقيق)، الذين كانوا يدينون بالمسيحيَّة. ولاسيَّما الرَّقيق الأبيض المستورد من أقطار كانت ذات ثقافة وحضارة. وقد كان في مكَّة عند ظهور الإسلام جالية كبيرة من العبيد عُرفوا بالأحابيش، ومن هؤلاء عدد كبير من النَّصارى استوردوا للخدمة

٤٤- نفس المرجع، ص ١٦٧

٤٥- نفس المرجع، مرجع سابق، ص ١٧٠

والقيام بالأعمال اللازمة لسراة مكة. وذكر الدكتور طه حسين أن العرب في مكّة والطّائف قد عرفوا النصرانيَّة بفضل ما كان يصل إليهم من الرَّقيق. وقد ترك هؤلاء الأحابيش أثراً في لغة أهل مكّة ليظهر في وجود عدد من الكلمات الحبشيَّة فيها مثل الأدوات التي يحتاج إليها في الصِّناعات، وفي الأعمال اليدويَّة التي يقوم بها العبيد، وفي المصطلحات الدِّينيَّة[٤٦].

ويذكر الأب الحدَّاد الرُّومي الكاثوليكي أن العقيدة التي كانت سائدة في مكّة هي المونوفيزيَّة (الطّبيعة الواحدة في المسيح بعد الاتحاد)، كما شاعت أيضاً نفس هذه العقيدة في اليمن وإثيوبيا، وفي دولة الغساسنة وفي مشارف الشَّام كلها[٤٧].

▪ ساهم وجود عدد من الأديرة التي يقطنها الرُّهبان النَّصارى في انتشار المسيحيَّة بين عدد من القبائل، فقد لعبت الأديرة دوراً هاماً وفعالاً في التَّبشير بالنصرانيَّة، وتشير جغرافية توزيع الأديرة على انتشارها حتى في المواقع القصيَّة من البوادي. وكانت هذه الأديرة تتلقى المعونات من كنائس العراق والشام. ولقد أشارت دواوين السِّيرة المحمديَّة إلى الرَّاهب بحيرى وهو من أهل النُّصرانيَّة، وكان يقيم في صومعته سنة ٥٨٢م، والذي "تقابل معه محمد عندما كان غلاماً متوجِّهاً بصحبة عمه أبي طالب إلى

٤٦- نفس المرجع، ص ١٧٠، ١٧١
مقتبس من دكتور جواد، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام.
جدير بالذكر أنه ظهرت في مكّة قبل القرن الخامس شيعة نصرانية تُدعى "شيعة الفطائريين" ويذكر القدِّيس إبيفانيوس (٣١٠- ٤٠٠م) أنهم كانوا يقدِّمون للسيِّدة العذراء أم المسيح قرابين، على شكل فطائر، فتسموا باسم قرابينهم، ووصفهم ابن تيمية في كتابه "الجواب الصَّحيح"، ودعاهم "المريمانيين" أو "المريمانية". وهم الذين عناهم القرآن بقوله: كفر الذين قالوا إن المسيح وأمه إلهان من دون الله.
٤٧- إغناطيوس يعقوب الثالث، بطريرك أنطاكية، الشهداء الحميريون العرب، مرجع سابق، ص ١٧

الشَّام للمتاجرة "(٤٨). ولقد كان الكثرة من هؤلاء الرُّهبان على علم بالطِّب، ووظفوه واستخدموه في توطيد صلاتهم بعدد من شيوخ القبائل والتَّبشير بدينهم.

ولقد بلغ من تمكن النصرانيَّة في بعض قبائل شبه الجزيرة العربية أن قام عدد من أفرادها ذوي النفوذ فيها ببناء أديرة وصوامع. بل إن نفراً من العرب مال إلى الرهبنة وبنى أديرة، ومن بينهم حنظلة الطائي الذي فارق قومه ونسك، وبنى ديراً بالقرب من شاطئ الفرات يُعرف بدير حنظلة(٤٩). وكان لتنصر المناذرة أثر كبير في بناء الأديرة مثل: دير اللج، ودير مارت مريم، ودير هند الكُبرى، ودير هند الصُّغرى، ودير الجماجم، ودير عبد المسيح(٥٠).

■ أكد البعض ترجمة الإنجيل إلى العربيَّة آنذاك، واستدلوا على ذلك بما رواه البُخاري في كتاب "بدء الخلق"، وفي كتاب "التَّفسير" عن أنه كان يقرأ الإنجيل بالعربيَّة ويكتب منه ما شاء الله أن يكتب(٥١).

ويوجز الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي ذلك كله بقوله: "...أما النَّصارى فقد انتشرت ديانتهم انتشاراً قوياً في بعض بلاد العرب، فيما يلي الشَّام حيث كان الغسانيون الخاضعون لسلطان الرُّوم، وفيما يلي العراق حيث كان المناذرة الخاضعون لسُلطان الفُرس، وفي نجران في بلاد اليمن التي كانت على اتصال بالحبش وهم نصارى. ويظهر أن قبائل

٤٨- خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدَّولة المركزيَّة، مرجع سابق، ص ١٧٨
٤٩- أحمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٢
٥٠- خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، مرجع سابق، ص ١٧٤ مقتبس عن الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٧٧
٥١- خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، مرجع سابق، ص ١٨٤

العرب البادين تنصَّرت قبل الإسلام بأزمان تختلف طولاً وقصراً ...[٥٢]".

ويقول في موضع آخر: "إن القرآن حين يتحدَّث عن الوثنيين واليهود والنَّصارى وغيرهم من أصحاب النِّحل والدِّيانات، إنما يتحدَّث عن العرب، وعن نحل وديانات ألفها العرب[٥٣]".

وهكذا انتشرت المسيحيَّة في كل أرجاء الجزيرة العربيَّة، في وسطها وأطرافها، ودخلت المسيحيَّة إلى قلب مكَّة، والمدينة (يثرب) معقل الوثنيَّة آنذاك، وفي تقويم قديم للكنيسة النَّسطوريَّة أن النَّساطرة أقاموا مطراناً في يثرب إذ كان لهم ثلاث كنائس على اسم إبراهيم الخليل، وموسى الكليم، وأيوب الصديق[٥٤]. بل استطاعت المسيحيَّة أن تخترق قبيلة قريش ذاتها صاحبة الولاية على مكة، وهي التي كان يتولى أفراد منها سدانة الكعبة وما كان بها من أصنام. إذ آمن بالنصرانية بعض بطونها وعدد من رجالاتها[٥٥]، وكان من بينهم ورقة بن نوفل[٥٦].

ويذكر بعض المؤرخين[٥٧] أن المسيحيَّة دخلت قلب مكَّة مع الغزو الإثيوبي لها. بل إن المسيحيَّة وُجدت داخل الكَّعبة ذاتها، ويؤكِّد الأستاذ محمد كرد على وجود صور وتماثيل لكل من عيسى وأمه، وبقيتا حتى رآهما من أسلم من نصارى غسَّان، وكان على أحد عُمد الكَّعبة تمثال

٥٢- د. طه حسين، في الشعر الجاهلي، الكتاب الثاني: ٣
٥٣- نفس المرجع، الكتاب الأول: ٣
٥٤- الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، المسيحيَّة والحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٥٩
٥٥- خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، مرجع سابق، ص ١٧٣
٥٦- نفس المرجع، ص ١٧٨
٥٧- محمد إبراهيم الفيومي، في الفكر الديني الجاهلي، ص ٩٢. د/ طه حسين، مرآة الإسلام، ص ١٠. كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٧. مقتبس عن خليل عبد الكريم، مرجع سابق، ص ١٦٧

مريم وفي حجرها ابنها مزوّقاً[٥٨]. ولما دخل نبي الإسلام إلى الكّعبة يوم الفتح وفيها صور الملائكة والأنبياء، كصورة إبراهيم أب الآباء، إلى جانب صورتي السيِّد المسيح والعذراء القدِّيسة، أمر أن تُمحى كل الصوَر باستثناء صورتي عيسى ومريم[٥٩].

وإلى جانب ذلك فإن السِّجلات التاريخيَّة قبل الإسلام تؤكّد لنا أيضاً وجود كثير من القبائل العربيَّة في شرق الجزيرة العربيَّة كانت أعضاء في الكنيسة الآشوريَّة الشَّرقيَّة. وكانت توجد عدة أسقفيَّات في البحرين وعُمان وقطر وشرق السعوديَّة وجنوبها. وحديثاً تم اكتشاف آثار كنيسة كبيرة في جنوب الخليج العربي، في جزيرة صير بني ياس Sir Bani Yas يعود تاريخها إلى ما بين القرنين الخامس والثامن الميلاديين.

فنظراً لانتشار المسيحيَّة بهذه الصُّورة، فقد كان من المحتَّم أن تقوم الكنيسة بتنظيم شؤون العبادة في تلك المراكز، ولا تتركها تسير بصورة عشوائيَّة، وهو ما يشير إليه عباس محمود العقاد عندما يذكر أنه لما كانت للنصرانيَّة هذه المثابة من الامتداد في بلاد العرب، لزم عن ذلك ولابد أنه كان للنَّصارى أساقفة في مواضع جمة منها لتنتظم بهم سياسة الكنيسة، وكان للكنيسة الأنطاكية أسقفان، يُدعى أحدهما أسقف العرب، والآخر يُدعى أسقف العرب التغلبيين[٦٠]، وكان يقيم في الحيرة. أما النَّساطرة فلم

٥٨- محمد كرد على، الإسلام والحضارة، الجزء الأول، ص ١٢٣. انظر: خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، مرجع سابق، ص ١٧٩

٥٩- خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، مرجع سابق، ص ١٨٠

٦٠- نسبة إلى قبيلة تغلب التي انتشرت فيها المسيحيَّة. ولم تكن هي الوحيدة التي فشت فيها النصرانية بل الكثير غيرها مثل: إياد، تميم، حنيفة، قضاعة وغيرها.

يكن لهم من هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريرك له[٦١].

قدوم الإسلام إلى مسيحيي كنيسة المشرق

لما فتح العرب فارس، وكثيراً من بلاد الرُّوم رأوا من أدوات الزِّينة والتَّرف ما لم يكونوا قد رأوا، ورأوا من الحرف الدَّقيقة والفنون الجميلة ما لم يعهدوه، كما رأوا من تنظيم الحكومة وتدوين الدَّواوين ما لم يكن يخطر لهم على بال، فاضطروا أن يقتبسوا من الأمم المفتوحة ألفاظاً يدخلونها في لغتهم. وكانت اللُّغة الفارسيَّة أقرب منبع يستمدون منه ما يحتاجون إليه، وإلى جانب الفارسيَّة التي نقلوا عنها الكثير[٦٢] أخذوا أيضاً كلمات كثيرة يونانيَّة[٦٣] ومصريَّة وإثيوبيَّة ويهوديَّة[٦٤] وأدخلوها على لغتهم العربيَّة، وانتقلت هذه الكلمات بدورها

٦١- خليل عبد الكريم، مرجع سابق، ص ١٧٤. مقتبس من عباس محمود العقاد، مطلع النور، ص ٩٩

٦٢- مثل: الجرَّة، الديباج، السُّندس، الياقوت، الفيروز، البلّور، الكعك، الفلفل، الزنجبيل، القرفة، النرجس، النسرين، السوسن، العنبر، الكافور، الصندل، القرنفل، البستان، الأرجوان، القرمز، السراويل، التنُّور، الجوز، اللوز، الدولاب، الميزان، الزئبق، الباشق، الجاموس، الطيلسان، المغنطيس، المارستان، الصك، صنجة الميزان، الصولجان، الفرسخ، الزمرد، الآجر، الجوهر، السكر، الطنبور ... الخ.

انظر: أحمد أمين، مرجع سابق، ص ١٨٢

٦٣- كلمات يونانية مثل: القسطاس (الميزان)، السَّجَنجَل (المرآة)، البطاقة (الرقعة)، القسطل (الغبار)، القنطار، البطريق، الترياق، النقرس. ورووا أن علي بن أبي طالب حين سأل واحداً مسألة فأجابه عليها، فقال له: "كالون – καλόν" وهي كلمة يونانية تعني "أصبت". انظر: أحمد أمين، مرجع سابق، ص ٢١٥

٦٤- كلمات يهودية وتعاليم مثل: بعث، جهنم، نار، حساب، ميزان، شيطان، إبليس، ... الخ. انظر: أحمد أمين، مرجع سابق، ص ٤٢. وانظر أيضاً: خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، مرجع سابق، ص ١٦٠

إلى القرآن[٦٥]. ففي القرآن خمسون لغة، فإلى جانب اللُّغة العربيَّة هناك أيضاً اللُّغات الفارسيَّة والروميَّة والنبطيَّة والإثيوبيَّة والبربريَّة والسِّريانيَّة والعبرانيَّة والقبطيَّة ... الخ[٦٦].

كان الفتح الإسلامي للمدن الملكية الفارسيَّة في سنة ٦٣٧م. وعندما جاء الإسلام كان معظم سكان ما يُعرف اليوم بالعراق وجزء كبير من إيران من المسيحيين[٦٧].

ومع الفتح العربي لم يتغيَّر وضع الكنيسة الآشوريَّة، فالحُكم في مملكة فارس لم يكن قط في يد المسيحيِّين، فكان بمقدور المسيحيِّين في أغلب الأحيان العبادة بحريَّة في داخل الكنائس. أما في الحياة العامة فقد فُرض

٦٥- جدير بالذكر أن القرآن يتحدَّث عن النصرانيَّة وليس عن المسيحيَّة، أي عن النصارى، وليس عن المسيحيين. ورغم أن القرآن جاء بعد المسيح بأكثر من ستة قرون، فإنه توقف عند تناوله للنصرانيَّة عند حد معيَّن. فلم يشر مثلاً إلى تلاميذ المسيح، ولا إلى بولس الرَّسول، وعندما يتحدَّث عن الإنجيل يذكره بصيغة المفرد، ولا يشير إلى الأناجيل الأربعة. وإن القارئ للقرآن يشعر بفارق كبير بين حديثه عن اليهوديَّة وبين تناوله للمسيحيَّة. فتكلم عن الأولى بإسهاب وافر، بينما طرح المسيحيَّة طرحاً موجزاً مقتضباً. ويرى الشيخ خليل عبد الكريم أن السَّبب في ذلك يرجع إلى جماعة الأبيونيين وهم من اليهود المتنصرين الذين وصلوا إلى وسط الجزيرة العربيَّة وغرها، أو 'الخوارج' كما تصفهم بعض الكتابات المسيحيَّة، بسبب خروجهم عن جوهر الإيمان المسيحي، إذ قد عملوا على الاحتفاظ بتعاليم وممارسات العهد القديم. فكل الاعتقادات التي كانت تؤمن بها هذه الجماعة، تكاد تكون متطابقة لما جاء بشأنها في القرآن، وكانت تلك الجماعة لا تعترف إلاَّ بإنجيل واحد، هو 'إنجيل الأبيونيين'، أي 'الإنجيل بحسب متى'، ولكنه إنجيل غير كامل، وغير صحيح، بل مشوه ومزور. وكانوا يعتبرون ما عداه تحريفاً للإنجيل الصحيح. وغالبيتهم لا يعترفون بأن المسيح هو ابن الله، بل واحد من الأنبياء المرسلين. وأنكروا صلب المسيح ... الخ.
انظر: خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، مرجع سابق، ص ١٩١- ١٩٣

٦٦- نفس المرجع، ص ٢٠

٦٧- الحوار السرياني، مرجع سابق، ص ١٨١

على المسيحيِّين بعض الشُّروط مثل اللِّباس المميَّـز أو الزِّنـار، وتحـريم العلامات الخارجيَّة مثل النواقيس والصُّلبان، ومواكـب الـدَّفن المـثيرة للضجيج في الشَّوارع. ومع سياسة فرض الجزيَّة أو التحوُّل إلى الإسلام، تحولت جماعات كثيرة إلى الإسلام لاسيَّما في بعض الأماكن مثل "عمان".

ولما استتب الأمر للعباسيين بمؤازرة الفُرس، وقضـوا علـى حكـم الأمورين في دمشق، انتقل مركز الخلافة إلى العراق، وأصبحت العاصمة بغداد. فصار للنَّساطرة مكانة مرموقة في الدَّولة، ونقل البطريرك مركـزه من "المدائن" عاصمة الفُرس السَّاسانيين إلى بغداد. وكان للنَّساطرة شأن هام في نطاق الوظيفة والطب والتَّرجمة. فاحتلوا مراكز رئيسيَّة في الـبلاد بسبب ثقافتهم وتقدمهم في العُلوم.

آلت المسيحيَّة، التي كانت تذوب ببطء خلال العهد العباسي، بسبب الضَّغط الاجتماعي بشكل رئيسي، إلى الزَّوال في حوالي سـنة ١٣٣٥م، عندما سادت الفوضى في المملكة المغوليَّة. ثم مـا لبثـت أن تضـاءلت المسيحيَّة الشَّرقيَّة بالأكثر أثناء الحكم العثماني.

إلاَّ أن النَّساطرة فقدوا بسرعة إيبارشياتهم التي كانـت في الجزيـرة العربيَّة على سواحل الخليج الفارسي (العربي) بسبب الاضطهاد الشَّديد أو الهجرة أو انتحال الإسلام. ومن أشد الاضطهادات الـتي تعـرَّض لهـا النَّساطرة كانت في أيام حكم الخليفة المهدي (٧٧٥- ٧٨٥م). أما هارون الرَّشيد، فقد هدم كثيراً من الكنائس نتيجة وشاية كاذبـة سمعهـا عـن المسيحيين، ولكنه عاد وأمر ببناء ما هدمه من الكنائس[٦٨].

٦٨- كان بختيشوع النَّسطوري هو طبيب بلاط هارون الرَّشيد، وكان هو أيضـاً طبيب الخليفة المنصور. وقد استمرت مدرسته الطبية ستة أجيال متتالية.

لقد ظلَّ العصر الذَّهبي للنَّساطرة ممتداً حتى القرن العاشر الميلادي عندما بدأ عصر تدهور الكنيسة بعد ذلك بسبب عوامل كثيرة منها النزاع على الكرسي البطريركي، وقوة نفوذ الأكراد وحروبهم المستمرة ضد النَّساطرة. حتى كان أشد اضطهاد وقع على النَّساطرة في أوائل القرن الرَّابع عشر في عهد "أبوزيدخان" الذي ذبح وسبى فيه أكثر من اثني عشر ألفاً من المسيحيِّين.

وبفقد النَّساطرة لإيبارشياتهم في الجزيرة العربيَّة أسَّسوا إيبارشيَّات جديدة في الغرب في المناطق التي كانت تحت الحكم البيزنطي، وحيث كان التوسُّع محظوراً عليهم في حلب ودمشق والقُدس وقبرص، امتدوا إلى الشَّرق خارج حدود الدَّولة العربيَّة فقاموا بمجهود تبشيري عظيم في بلاد التَّتار، والمغول، والهنود، والصِّينيين. فازدهرت المسيحيَّة في هذه المناطق منذ القرن الثامن حتى القرن الرَّابع عشر.

(ب) بعد الإسلام

سبق أن شرحنا النشاط التبشيري للكنيسة الآشوريَّة قبل أن يدخلها الإسلام، والآن نكمِّل هذا النشاط عينه، والذي لم يوقفه دخول الإسلام إلى بلاد فارس، حيث امتدت كرازة الكنيسة الآشوريَّة لتبشير الهند والصِّين والمغول والأتراك بالمسيحيَّة.

التبشير بالمسيحيَّة في الهند

في سنة ٣٤٥م طلب من يدعون "بمسيحيي القدِّيس توما" في

جنوب الهند من جاثليق المشرق أن يرسل إليهم بعض الكهنة، وذلك لافتقارهم إلى رئاسة كنسيَّة. فذهب إليهم أسقف يُدعى يوسف الرَّهاوي، ونزحت إلى هناك أيضاً اثنان وسبعون من العائلات.

وبالرَّغم من حقيقة أن تاريخ الطَّلب يبدو بأنه لا يتَّفق مع الاضطهاد الذي نشب في ذلك الحين في فارس، فالواقع أنه بعد قرنين، أي حوالي سنة ٥٥٣م، يذكر أحد الرحَّالة ويُدعى قزما Cosmas Indicopleustes بأنه كان في مقاطعة مالابار بالهند أسقف تمت رسامته في بلاد فارس(٦٩). وشُهد بوجود أسقفية في سيلان منذ القرن السَّادس، وأيضاً في جافا.

بدأ التَّفكُّك بين الكنيسة الهنديَّة وكنيسة المشرق الآشوريَّة بعد أن صار من الصَّعب الوصول إلى هناك، كما تقول مخطوطة بذلك، وكان بمقدور أسقف سرياني أن يزور المكان من آن لآخر فقط. وازداد هذا التَّفكك أثناء القرنين العاشر والحادي عشر.

ولما استولى البرتغال على الهند، وافق شعب المالابار - المغلوب على أمره - على الاتحاد بروما، إلاَّ أن اليسوعيين حالوا دون إقامة أساقفة من أهل البلاد يمارسون الطَّقس المالاباري. وفي سنة ١٥٩٩م، وفي مجمع ديامبر فُرضت عليهم تشريعات وعوائد لاتينيَّة، ووليّ عليهم أسقف راهب يسوعي لاتيني خاضع لرئيس أساقفة البرتغال. وخلال الفترة من سنة ١٥٩٩- ١٨٩٦م، حكم الأساقفة اللاتين مسيحيي القدِّيس توما. فاستاء المالابار من هذه التَّصرفات، وأنفصل عدد كبير منهم، وأرسلوا إلى بطريرك السِّريان الأرثوذكس في كنيسة أنطاكية يلتمسون لهم أسقفاً سريانياً، والسَّماح بإتباع الطَّقس السِّرياني الأنطاكي. ومنذ ذلك الحين

٦٩- الحوار السرياني، مرجع سابق، ص ١٨٠،١٧٩

انقسمت الكنيسة هناك إلى عدة جماعات.

ففي سنة ١٦٦٥م تحولت الكنيسة الهنديَّة من الطَّقس السِّرياني الشَّرقي إلى الطَّقس السِّرياني الغربي، أي الطَّقس الأنطاكي. تابعة بذلك بطريرك الكنيسة الأنطاكيَّة. وسُميت الكنيسة باسم "كنيسة السِّريان الأرثوذكس بالهند". وعن هؤلاء انفصلت جماعات أخرى في أوقات مختلفة، وهم الأنجوريون Anjuriana في سنة ١٧٧٢م، والأنجليكان في سنة ١٨٦٤م، والمارثوميون في سنة ١٨٧٦م، وكل هؤلاء ماعدا الأنجليكان يستعملون اللِّيتورجيَّة السِّريانيَّة.

واليوم فإن السِّريان الأرثوذكس الذين رفضوا الولاء للبطريرك الأنطاكي فيدعون بالكنيسة المستقلَّة. وهم يشكِّلون مع الكنيسة السِّريانيَّة التي لازالت خاضعة للبطريرك الأنطاكي حوالي ٢ مليون نسمة.

وفي سنة ١٨٩٦م حصل الذين استمروا تحت حكم أساقفة اللاتين على حق إقامة أساقفة لهم من أهل البلاد. وفي سنة ١٩٢٣م صارت لهم رئاستهم المنفصلة. وهم يُعرفون حالياً بكنيسة مالابار السِّريانيَّة، وعددهم حوالي ٣,٥ مليون نسمة. وفي سنة ١٩٩٣م صار لهم رئيس أساقفة.

وجدير بالذِّكر أنه في سنة ١٩٣٠م انضم اثنان من الأساقفة من الكنيسة السِّريانيَّة الهنديَّة (كنيسة المالابار) الخاضعة لبطريرك أنطاكية إلى الكنيسة الكاثوليكيَّة، ومنذ ذلك التَّاريخ دُعوا "كنيسة المالانكار" وهم يتبعون الطَّقس السِّرياني الغربي، وعددهم حوالي ٣٠٠ ألف نسمة.

ويبلغ مسيحيو كنيسة الهند بكل جماعاتهم المذكورة أعلاه حوالي ٧ مليون نسمة.

التَّبشير بالمسيحيَّة في الصين

كانت العلاقة بين بلاد فارس والصين قد بدأت حوالي سنة ٥٤٠م، ولكن العمل التَّبشيري الفعلي بدأ سنة ٦٣٥م أي قبل سنتين من سقوط مدينتي الفرس الملكيتين بأيدي العرب. ويشهد لوجود سريان شرقيين في الصين اكتشاف لوحة قديمة من الحفريات الأثريَّة في بلاد الصين، سُطِّرت عليها عدة أسماء بالآراميَّة السِّريانيَّة Aramic Syriac وهي اللُّغة التي يتحدَّث بها النَّساطرة واليهود القاطنين في بلاد فارس. وهي تختلف عن السِّريانيَّة القديمة التي صارت الآن لغة بائدة.

وهناك كتابة صينيَّة موجودة على لوح حجري موجود الآن في متحف Uenuo في طوكيو، تخبرنا أن جنرالاً صينياً فارسي المولد، مسيحي الدِّين كان اسمه A- Lo- Ham أي إبراهيم، قد عُيِّن ما بين ٦٥٦، ٦٦١م حاكماً للقبائل في هضبة التِّبت. قد علَّمهم ما يدعوه "جوهر العقيدة المقدَّسة"، أي الإيمان المسيحي. وقد حدث هذا بعد دخول المسيحيَّة إلى الصين بعشرين عاماً فقط.

واستطاع العمل التَّبشيري أن يستمر تحت حكم الإسلام، من خلال توحيد طرق التِّجارة. فكان الرُّهبان والأساقفة يرافقون التُّجار إلى الشَّرق الأقصى.

وقرب نهاية القرن السَّابع عانى المسيحيون في الصين من الاضطهاد إلى جانب البوذيين، ومرَّة أخرى في أوائل القرن الثَّامن في سنة ٧١٨م وسنة ٧١٩م من جانب الكونفوشيين.

في أواخر القرن الثَّامن الميلادي وأوائل التَّاسع كانت هناك أسقفيَّات

كثيرة في الصين. وقام البطريرك تموثي (٧٨٠- ٨٢٣م) بترقيـة أسـقف الصين إلى منصب متروبوليت، مع العديد من الأسقفيَّات التابعة له.

ولكن اضطهاداً عظيماً حدث للمسيحيِّين في الصين في سنة ٨٦٥م. وقُبيل سنة ٩٧٣م أرسل البطريرك "أوديشو Awdiso الأوَّل" راهباً من نجران مع خمسة من المرافقين إلى الصين. عادوا سريعاً، إذ لم يجدوا سوى مسيحي واحد باقياً، وقيل لهم بأن كل الباقين قد هلكوا، وبأن كنيستهم قد هُدمت.

ثم عادت المسيحيَّة للازدهار ثانية في الصين في زمن الحكم المغـولي. فلقد وُجدت بعض الأسرِ المسيحيَّة في المقاطعات الشـماليَّة في القـرنين الحادي عشر والثاني عشر(٧٠). ففي أوائل القرن الحـادي عشـر رسـم البطريرك ساوريشو الثالث Sawriso III الأسقف جـورج الكشـكري George of Kashkar ما بين ١٠٦٤- ١٠٧٦م لخرسـان وساجسـتان في إيران، لكنه ذهب إلى الصين بدلاً من إيران، وبقي هناك حتى وفاته.

ولكن لم تمتد المسيحيَّة النَّسطوريَّة إلى اليابان.

تبشير المغول والأتراك

المغول هم شعب آسيوي أغلبهم من الرُّعاة، يزيدون قليلاً عن ثلاثة ملايين نسمة، وينتشرون على الخصوص في منغوليا وشمـال منشـوريا وغربها، وجنوب سيبيريا، ويدينون بالبوذيَّة. وكان نظامهم الاجتمـاعي النَّموذجي إلى وقت قريب يضم أمراء ونبلاء ورجال دين. ويرجع تاريخ أقدم مؤلَّف موجود ومكتوب باللُّغة المغوليَّة إلى سنة ١٢٤٠م عندما ظهر المغول في التاريخ العالمي بزعامة جنكزخان وخلفائه، وذلك عندما فتحوا

٧٠- نفس المرجع السابق، ص ١٨٤

أكثر أقاليم أوروبا وآسيا. والواقع أن القبائل المغوليَّة - وبخاصة التي فتحت روسيا، وتوغّلت في الدَّاخل حتى المجر وألمانيا - كانت تضم عناصر كبيرة من الأتراك وغيرهم من الشُّعوب. وادَّعى تيمورلنك الذي فتح إمبراطوريَّة جديدة في القرن الرَّابع عشر أنه من سلالة جنكزخان. أسَّس المغول أسرة حكمت في الصين، ولكنهم طُردوا منها سنة ١٣٧٠م. وأسَّس بابر المغولي إمبراطوريَّة مغوليَّة في الهند في القرن السَّادس عشر. ومنذ القرن الرَّابع عشر تدهور شأنهم(٧١).

ولسنا نعرف متى تم تبشير المغول بالمسيحيَّة، ومن قام بذلك. إلاّ أنها حقيقة واقعة أنه في الوقت الذي اندفع فيه المغول نحو بغداد سنة ١٢٥٨م، كانت عدة قبائل منهم مسيحيَّة. وكانت قد تبنَّت الأحرف السِّريانيَّة لكتابة لغتها. وهو نفس ما فعلته جمهورية منغوليا مؤخراً، بدلاً من الأحرف السيريلكيَّة(٧٢).

كانت أم خان هولاكو نسطوريَّة، وكانت زوجته الملكة دوكوز خاتون، مسيحيَّة. وقد وصفتها مخطوطة سريانيَّة غربيَّة، يعود تاريخها إلى سنة ١٢٦٠م بأنها هيلانه الجديدة، ونصير قوي للصَّليب مع زوجها مع أنه كان نفسه بوذياً. وكان العديد من رؤساء الجيوش المغوليَّة مسيحيين(٧٣). بل قد اعتلى السُّدة البطريركيَّة بطاركة من أصل مغولي.

وكان بعض المبعوثين المغول إلى الغرب مسيحيين. وأكثرهم شهرة هو الرَّاهب برصوم، الذي كان معلم البطريرك يهوا للاها الثالث (١٢٩١- ١٣١٧م). وكلاهما كانا يتحدثان التركيَّة.

٧١- محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ص ١٧٢٧

٧٢- الحوار السرياني، مرجع سابق، ص ١٨٨

٧٣- مثل نايمان كيتبوغا Naiman Kitbuga الذي هزمه المماليك وقتلوه في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠م. وكذلك سانداغو Sandaghu ... الخ.

أما عن الأتراك، فقد كان بعض من أفراد الهون البيض Hephtalites المقيمين فيما يُعرف الآن بدولة أفغانستان قد قبلوا الإنجيل - ربما من الأرمن - في بداية القرن السّادس. وفي سنة ٥٤٩م طلبوا من الجاثليق مار آبا Mar Aba أن يقوم برسامة واحد من كهنتهم ليكون أسقفاً عليهم.

وقد ذُكر بأنه في سنة ٥٨١م كان هناك أتراك يخدمون كمرتزقة في الجيش الفارسي، يتقلّدون صلباناً مربوطة على جباههم. وصار العديد من الملوك الوثنيين من أتراك آسيا الوسطى مسيحيين، دُعي أحدهم إلى المسيحيَّة سنة ٦٤٤م بواسطة إيليا متروبوليت مرو Merw وآخر في سنة ٧٨٢، وثالث في سنة ١٠٠٩م.

وفي حوالي نهاية القرن الثامن قام البطريرك تيموثي - الذي كان يحبِّذ بشدة الإرساليّات الدِّينيَّة - برسامة متروبوليت "لبلاد الأتراك"، مع مقر إقامة في سمرقند. وهناك مصدر يشهد بالتّبشير بالإنجيل في التِّبت بالهند عن طريق أسقفية سمرقند التركيَّة. بالإضافة إلى شهادات أخرى تشهد بوجود كرسي أسقفي في سنة ١٠٤٥م. فضلاً عن أن الجغرافيين العرب يذكرون كنائس تم تحويلها إلى جوامع في القرن العاشر، في بخارى، وميركي، وسوغديانا ... الخ. وهذا يعني بالطّبع أنه كانت هناك العديد من المطرانيّات التي لا نعرف عنها أي شئ لسوء الحظ.

ولقد تم العثور على مقبرتين نسطوريتين تركيتين في سنة ١٨٨٥م في آسيا الوسطى إلى الشمال من البامير، جنوبي بحيرة بالقهاش قرب مدينتي بيشباك وتوكماك، وهما الآن واقعتان في دولة كازاخستان. وتتضمَّن الموجودات هناك حوالي ١٦٠ شاهد قبر، ثلاث عشرة منها محفوظة الآن في متحف Guimet في باريس، وهي مكتوبة بخط سرياني، ويعود تاريخها إلى الفترة ما بين القرن التاسع إلى القرن الرّابع عشر، وقد نشر المستشرق الروسي D. Chwolson بعض عبارات مكتوبة على مقابر لكهنة وعلمانيين،

من بينهم العديد من الموظفين العسكريين ذوي المراتب العالية(٧٤).

ثالثاً: إيمان كنيسة المشرق الآشوريَّة

تعترف هذه الكنيسة بقوانين وتعاليم مجمعي نيقية المسكوني(٧٥) سنة ٣٢٥م، والقسطنطينيَّة المسكوني سنة ٣٨١م(٧٦)، إلى جانب قوانين مجمع خلقيدونية(٧٧). ولكن كان لعلماء اللاهوت في كنيسة المشرق رأياً في مجمع خلقيدونية أبرزه ما ذكره إيشوعياب الثاني (٦٢٨- ٦٤٦م) حينما قال: "مع أن أولئك الذين اجتمعوا في مجمع خلقيدونية كانوا متسربلين بنية استرداد الإيمان، فقد انزلقوا مع ذلك بعيداً عن الإيمان الحق، بسبب اصطلاحاتهم الضَّعيفة في التَّعبير، الملتفَّة بمعان غامضة، فقد شكَّلوا حجر عثرة للعديدين(٧٨)".

٧٤- الحوار السرياني، مرجع سابق، ص ١٨٦

٧٥- ينبغي أن يدرك القارئ أن مجمع نيقية المسكوني عندما استعمل التعبيرات اللاهوتية "هيبوستاسيس Hypostasis، أوسيّا Ousia" لم يستعملهما بنفس المفهوم الذي استقر عنهما فيما بعد. ومن هنا كان منبت كثير من الخلافات. فالمجمع المذكور استعمل التعبيرين السابق ذكرهما ليحل أيهما محل الآخر دون فرق. ولكن فيما بعد قد تحدد مفهوم الهيبوستاسيس ليشير إلى الأقنوم، أو الشخص، ومفهوم الأوسيّا ليعني الجوهر، دون خلط بين المفهومين. و لم يستقر مفهوم "الأقنوم" في استعماله المسيحي قبل القرن السَّادس.

٧٦- في سنة ٤١٠م وفي أثناء انعقاد مجمع سلوقية - قسطيفون، قبلت كنيسة المشرق رسمياً قرارات وتعاليم مجمعي نيقية والقسطنطينيَّة. وهو أحد مجامع الكنيسة الآشوريَّة، وعُقد بأمر الشاه يزدجرد الأول، وكان أسقف سلوقية آنئذ هو ماراسحق، لذلك يُدعى هذا المجمع باسمه أحياناً. وأسقف سلوقية يُطلق عليه اسم متروبوليت، أي رئيس أساقفة. انظر: الحوار السرياني، مرجع سابق، ص ٦٠، ١٢٨

٧٧- الحوار السرياني، مرجع سابق، ص ٦٩

٧٨- نفس المرجع، ص ١٤٢

وفي مجمع مار آقاق الذي عُقد سنة ٤٨٦م أقرّت الكنيسة الآشوريّة الاعتراف بطبيعتين في السيِّد المسيح، الطَّبيعة الإلهيَّة، والطَّبيعة البشريَّة، مع عدم الخلط أو المزج أو التَّشويش أو التَّمايز بين هاتين الطبيعتين(٧٩).

وفي عهد مار باباي (٥٦٩- ٦٢٨م) رئيس دير جبل إيزالا الواقع شمال شرق نصيبين، تلخَّصت عقيدة النَّساطرة فيما يختص بشخص السيِّد المسيح فيما يلي:

"إن المسيح هو ابن الله الواحد، المعبود من الجميع في طبيعته، فهو في طبيعته الإلهيَّة مولود من الآب قبل كل الدُّهور، منذ الأزل، وهو في طبيعته الإنسانية مولود من مريم العذراء في ملء الزَّمان في جسد متَّحد، وليس لاهوته من طبيعة مريم، ولا ناسوته من طبيعة الآب، والطَّبيعتان في الأقنوم الواحد، في شخص واحد، وبنوة واحدة".

وفي سنة ١٩٩٤م أعلنت الكنيسة الآشوريَّة إيمانها فيما يختص بالسيِّد المسيح، تحت الصيغة التَّالية: "نؤمن بأن ربّنا ومخلّصنا، يسوع المسيح، هو الإله الابن المتجسِّد، تام في لاهوته وتام في ناسوته. لم ينفصل لاهوته عن ناسوته لحظة واحدة، ولا لطرفة عين. ونؤمن أن ناسوته واحد مع لاهوته بغير اختلاط أو امتزاج أو انقسام أو انفصال(٨٠)...".

ولا تطلق كنيسة المشرق الآشوريَّة على العذراء لقب "والدة الإله – Theotokos (٨١)"، أي "يالدات إلاها" إنما يلقبونها فقط بـ "أم المسيح – Christotokos"، أي "يالدات بشيكاه". وهذه العقيدة التي انفردت بها هذه الكنيسة دون كنائس المسكونة تبلورت في مجمع مار

٧٩- نفس المرجع، ص ٧٣

٨٠- نفس المرجع، ص ٦٥

٨١- أشار الأسقف مار أفرام الآشوري، وأسقف تريجور إلى أن عدم استعمال تعبير Theotokos من قبَل كنيسة ما قبل مجمع أفسس، لا ينطوي على نكران كون **العذراء المقدسة أم الله.** الحوار السرياني، مرجع سابق، ص ٥٨

صابريشو الذي عُقد لديهم سنة ٥٩٦م والذي ورد فيه: "... نؤمن بشدَّة بحسب الكلمة وكتابات وتقاليد آبائنا القدِّيسين، برب واحد يسوع المسيح، المولود الوحيد، ابن الله، الذي وُلد قبل إنشاء العالم بذاته الإلهيَّة، روحياً دون أم، وفي آخر الزَّمان وُلد من مريم العذراء القدِّيسة **بطريقة جسديَّة** دون معرفة رجل بقدرة الرُّوح القُدُس ...".

وفي مجمع عُقد لديهم سنة ٦١٢م جاء جانب من نص إيمان الكنيسة في قرارات المجمع كالآتي: "... نحن نؤمن في قلوبنا، ونعترف بشفاهنا برب واحد يسوع المسيح، ابن الله ... هو الله الكامل، والإنسان الكامل ... الذي وُلد في ذاته الإلهيَّة من أبيه بشكل أبدي، قد وُلد في آخر الزمان من أجلنا من العذراء القديسة **في ناسوته**[٨٢]...".

كان نسطور أسقف القسطنطينيَّة (٤٢٨- ٤٣١م) يؤمن بأن العذراء القدِّيسة قد ولدت الإنسان يسوع المسيح، وأن اللاهوت حلّ في المسيح بعد ولادته، لذلك لا تُدعى العذراء "والدة الإله". وبرغم ذلك فقد ظلّت هذه الكنيسة تكرِّم العذراء في صلواتها وتسابيحها كأم المسيح ابن الله. فالعذراء في الكنيسة النَّسطوريَّة دائمة البتوليَّة، وبواسطتها كان الخلاص، وهي شفيعة البشر لدى ابنها، وقد خصَّتها الكنيسة النَّسطوريَّة بأعياد مميَّزة منذ أقدم العصور، كعيد تهيئة العذراء بميلاد السيِّد المسيح، وعيد الانتقال، إلى جانب عيد خاص في الخامس عشر من أيار (مايو) وهو عيد العذراء حافظة الزروع.

إن الحوار غير الرَّسمي مع الكنيسة الآشوريَّة، والذي دار في فينَّا سنة ١٩٩٤م، وبعد أن أُلقيت فيه مباحث كثيرة ومطوَّلة، لاسيَّما عن نسطور، خلص الباحثون من الكاثوليك إلى القول[٨٣]: "لا نغفل ضعف تفسير

٨٢- الحوار السرياني، مرجع سابق، ص ٨٤

٨٣- وردت هذه العبارة خطأ في الطَّبعة الأولى (ص ٢٢٩) هكذا: "خلص

نسطور لوحدة شخص المسيح[٨٤]". وأيضاً: "يعاني فكر نسطور من قصور حاد[٨٥]". وإنه من الغريب حقاً ألاَّ يظهر اسم نسطور مرَّة واحدة في مجامع القرنين الخامس والسَّادس للميلاد. ولم يرد اسمه أبداً كحجة تتبّع في قضايا مسيحيَّة في نفس الكنيسة النَّسطوريَّة[٨٦].

وجدير بالذِّكر أن نشير - بعد كل ما ذكرناه - إلى أن المجمع المقدَّس للكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة في جلسته في ١٩٩٦/٦/١م قد أصدر البيان التالي:

"اتضح بعد بحث ما جرى في الحوار السِّرياني في فيينا في يونيو ١٩٩٤م وفبراير ١٩٩٦م أن الآشوريين هم نساطرة يقدِّسون نسطور مع ديودور الطَّرسوسي وثيؤدور الموبسويستي، ويخطِّئون القدِّيس كيرلس، وذلك بالرَّغم من الحوار الذي أجرته معهم الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة، وبعد أن تظاهرت الكنيسة الآشوريَّة بالموافقة على الإيمان السَّليم. وهناك اتفاقيَّات تمَّت بينهم وبين الكاثوليك. ونحن مصمِّمون على موقفنا برفض دخولهم كأعضاء في مجلس كنائس الشَّرق الأوسط، إلى أن يعترفوا بعقيدة وقرارات المجمع المسكوني الثَّالث في أفسس" [٨٧].

الباحثون من نفس الكنيسة الآشوريَّة إلى القول ..."، وصحتها كما ورد في المتن. وأعتذر للقارئ العزيز عن هذا الخطأ غير المقصود.

٨٤- نفس المرجع، ص ١١٠

٨٥- نفس المرجع، ص ٢٠٩

٨٦- نفس المرجع، ص ١٤٢

٨٧- القرارات المجمعية في عهد صاحب القداسة والغبطة البابا شنوده الثالث (١١٧)، القاهرة، الطبعة الأولى، نوفمبر ١٩٩٦م، ص ٥٩

رابعاً: الطَّقس الآشوري، واللِّيتورجيّا الآشوريَّة

الطَّقس السِّرياني الشَّرقي هو أبسط الطُّقوس الشَّرقيَّة، ومن أقدمها. نشأ في مناطق بعيدة عن المؤثرات الهيلينيَّة، ولم ينطق إلاّ بالآراميَّة، فحافظ أكثر من سواه على الصِّيغة السَّاميَّة للجماعات المسيحيَّة الأولى المنحدرة من اليهوديَّة. وهو طقس تأمُّل وإصغاء للكلمة تتناوب فيه قراءات طويلة من المزامير على وتيرة واحدة في كنائس خالية من الزِّينة، وهو في ذلك طقس بسيط قنوع. وكل صلواته تبدأ حتماً بالصَّلاة الرَّبيَّة. ولا يوجد باب أو حجاب يحجب رؤية الهيكل. ولقد انحسرت طقوس الأسرار ولم يبق منها إلاّ الضَّروري.

وكان التَّنظيم الأساسي للطَّقس السِّرياني الشَّرقي على يد البطريرك إيشوعياب الثَّالث (٦٥٠- ٦٥٩م) الذي اتبَّع النِّظام الجاري استخدامه آنئذ في دير مار كورئيل، ودير مار أبراهام الملقَّب بالدَّير العالي (دَيْرو علويو) على ضفاف نهر دجلة في الموصل، وأجرى عليه بعض الإضافات والإصلاحات، مكسباً إياه وجهه الجميل الذي لازال عليه حتى اليوم، مع ما لحقه من إضافات عبر الأجيال وخاصة في القرن الحادي عشر على يد البطريرك إلياس أبو حليم، والثَّالث عشر على يد البطريرك حُب الله الثَّاني.

غير أن الطَّقس السِّرياني الشَّرقي قد تأثر بمؤثرات لاتينيَّة أُقحمت عليه في القرن السَّادس عشر، لاسيَّما في الجزء من الكنيسة الآشوريَّة الذي انضم إلى روما وتسمَّى باسم "الكنيسة الكلدانيَّة". فقد حافظت هذه الكنيسة على الممارسة اللِّيتورجيَّة التي يستخدمها النَّساطرة مع بعض التَّعديلات. وعلى الرَّغم من حذف اسم تيودور الموبسويستي، واسم نسطور من عنواني الأنافورات الخاصة بهما، إلاّ أنهما لازالتا تُستخدمان في

صلوات الكنيسة الكلدانيّة.

وكان آخر إصلاح ليتورجي لهذه الكنيسة في القرن التّاسع عشر هو ما قام به مار عبد يشوع خيّاط متروبوليت آمد، والذي صار بطريكاً باسم عبد يشوع الخامس خيّاط (١٨٩٤- ١٨٩٩م). حيث أصدر كتاباً بعنوان: "الصّلاة الفرضيّة للكهنة حسب طقس السّريان المشارقة وهم الكلدان".

واللّيتورجيا الآشوريّة مستقلّة وفريدة في نوعها، وهي تحمل في طيّاتها آثار الحضارات التي تعاقبت في بلاد ما بين النّهرين من ساميّة، وبابليّة، وآشوريّة، وفارسيّة، ويهوديّة، ومسيحيّة. ولقد أثرى الرّهبان والبطاركة الأقدمون هذه اللّيتورجيّا الآشوريّة أمثال آفراهات الفارسي، ومار شمعون البطريرك الشّهير، ومار أفرآم، ومار ماروتا متروبوليت ميافرقين، والشّاعر نرساي وكثيرون غيرهم.

وعلى خلاف التّقليد السّرياني الغربي الأنطاكي والذي يُظهر تنوّعاً في الأنافورات، فالتقليد السّرياني الشّرقي يعرف ويستعمل ثلاث أنافورات فقط هي:

(أ) أنافورا الرّسولين أدّاي وماري، (قداشا دَشليحي).
(ب) أنافورا تيودور الموبسويستي، (قداشا دامبشقانا).
(ج) أنافورا نسطور، (قداشا دمار نسطوريوس).

ولقد تم اختيار هذه الأنافورات الثّلاث منذ القرن السّابع الميلادي، من قِبَل البطريرك إيشوعياب الثّالث (٦٥٠- ٦٥٩م)، والذي منع في نفس

الوقت استعمال الأنافورات الأخرى[1].

وتعد أنافورا الرُّسُل، أي أنافورا أدّاي وماري، هي الأقدم بين هذه الأنافورات الثّلاثة، والأكثر تكريماً، والأكثر استخداماً بينها حتى اليوم، وهي تُستعمل بدءاً من اليوم الذي يتلو أحد الشّعانين حتى نهاية السّنة الطّقسيَّة ماعدا أيام الأعياد.

أما الأنافورتان الأخريان، فهما أقل استعمالاً. ويُحتفل بأنافورا تيودور الموبسويستي Theodor of Mopsuestia من أوّل السّنة الطّقسيَّة حتى أحد الشّعانين، إلى جانب أيام الأعياد. أما أنافورا نسطور فتُستعمل في خمسة أعياد فقط هي: الغطاس، ويوحنا المعمدان، ومعلّمي الكنيسة اليونانيين، ويوم الأربعاء لصوم أهل نينوى، ويوم الثلاثاء من الأسبوع المقدّس.

وإلى جانب أن آسيا الصُّغرى هي منشأ أنافورات تيودور الموبسويستي ونسطور، إلاّ أنهما يعودان إلى التّقليد البيزنطي. ولقد تمّت ترجمتهما من اليونانيَّة إلى السّريانيَّة في منتصف القرن السّادس بواسطة الجاثليق مار آبا (٥٤٠- ٥٥٢م)، وساعده في ذلك مار توما "معلّم الرّها". ومن النّاحية الأخرى لابد وأن تكون أنافورا أدّاي وماري قد نشأت في سوريا نفسها في وقت مبكّر جداً، وربما في الرّها في القرن الثّاني أو الثّالث.

١- هناك ثلاث أنافورات أخرى سريانيَّة شرقيَّة معروفة بالإسم فقط، وهي: أنافورا برصوما، وأنافورا نرساي، وأنافوزا تيودوريطوس الطرسوسي.

أنافورا أدّاي وماري

وهي من مدوّنات أوائل القرن الثّالث المسيحي قبل ظهـور بدعـة أريوس، ونسطور، وقبل حدوث الانشقاق بين الكنائس، ولذلك فهـي تمثل الصّلوات الإفخارستيّة في صورتها البدائيّة الأصيلة[٢]. وهي تنقسم إلى قسمين ينتهي كل منهما بذُكصولوجيّة. وبين هذين القسمين أُضـيفت بعض الأواشي أو الصّلوات التوسليّة Litany في عصر لاحق.

القسم الأوّل: هو صلاة شُكر تتميَّز ببساطتها المتناهية، إذ بمقارنتـها بصلوات الشُّكر في باقي القدّاسات ذات الطّابع السّرياني[٣] يتّضـح لنـا مدى قِدَم هذه الصّلاة. وهذه الصّلاة تقدِّم الشُّكر لله الآب والابن والرُّوح القُدُس، أولاً على عمله في الخليقة، وأخيراً على عمله الخلاصي.

والتّسبحة الشّاروبيميّة[٤]، التي تقابلنا بعد ذلك فهي من الصّـلوات التي أُضيفت على النّص الأصلي. لأنه بقراءة النّص بكامله بـدون هـذه الإضافة يظهر مدى انسجام وتطابق الصّلاة بكاملها. وفي هذا تتشابه صلاة الشُّكر هذه مع مثيلتـها الـتي وردت في التّقليـد الرّسـولي لهيبوليتس، والتي هي من مدوّنات نفس العصر، في كونها لا تحتوي على التّسبحة الشّاروبيميّة.

القسم الثّاني: يظهر فيه تأثُّر الكاتب بالعشاء الرّبـاني كمـا أورده القدّيس بولس الرّسول، فيركّز على آلام وموت ودفـن وقيامـة ربّنـا

2- B. Botte, *L'Anaphore Chaldéenne des Apôtres*, *O. C. P.*, 1949, p. 259.

٣- مثل قداس القديس يعقوب، وقداس القديس باسيليوس.

٤- وهي: "قدوس قدوس قدوس رب الصباؤوت، السماء والأرض مملوءتان بمجده وحضوره، وبهاء مجد عظمته".

ومخلّصنا يسوع المسيح[٥]. حيث يبدأ هذا القسم بقوله: "ونحن كـذلك يارب، نحن خدامك المجتمعين باسمك، نقف في حضرتك في هذه السَّـاعة وقد قبلنا حسب التَّقليد هذا السِّر الآتي منك، وبابتهاج نمجِّـد ونعظّـم ونذكر، ونتمِّم هذا السِّر العظيم والمرهوب، والمقدَّس والمحيـي والإلهـي، الذي لآلام وموت ودفن وقيامة ربِّنا ومخلّصنا يسوع المسيح".

ليتورجية أدّاي وماري تشهد لتقليد شرقي سحيق في القدم

إن الفكر الأرثوذكسي التَّقليدي الذي برز بوضوح منـذ العصـور الوسطى كرد فعلٍ للاهوت الكاثوليكي، هو أن تقديس القرابين يتم لحظة استدعاء الرُّوح القُدُس ليجعل من الخبز جسد المسيح المقدَّس، ومن الخمر دمه الكريم.

أما العقيدة الكاثوليكيَّة في ذلك والتي استقرَّت منذ القرن الثّاني عشر فهي أن استحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمـه تـتم في روايـة التَّأسيس، وهي القسم الأكثر أهميَّة في صلاة القـدَّاس بحسـب الفكـر اللاتيني. وهي فكرة لم تكن مقبولة حتى بين اللاهوتيِّين الغربيِّين أنفسهم. وإن تطوُّر هذا الرأي قد دعَّمه حقيقة أن صلاة استدعاء الرُّوح القُدُس في التَّقليد اللاتيني تتم قبل رواية التَّأسيس وليس بعدها.

ورواية التَّأسيس هي تلك الكلمات التي قالها الرَّب في ليلة العشـاء الأخير عند تقديس الخبز والخمر. وأوَّل ذكر لها ورد عند القدِّيس بولس الرَّسول[٦]، والأناجيل الإزائيَّة. وهي تبدأ بكلمات: "أخذ خبزاً على يديه الطّاهرتين ... خذوا كلوا هذا هو جسدي ... خذوا اشربوا هذا هو

٥- انظر: ١كورنثوس ١١:٢٦

٦- رسالة كورنثوس الأولى ١١:٢٣

دمي ..."، أو ما يشبه تلك العبارة السَّابقة.

ولكن أنافورا الرُّسُل الآشوريَّة (أنافورا الرَّسولين أدّاي وماري) لا تدعِّم الموقف التَّقليدي الأرثوذكسي أو الفكر التَّقليدي الكاثوليكي. فأقدم المخطوطات لهذه اللِّيتورجيَّة والتي ترجع إلى القرن العاشر أو الحادي عشر للميلاد، لا يرد فيها ذكر لرواية التَّأسيس(٧).

أما صلاة استدعاء الرُّوح القُدُس في هذا القسم الثَّاني فيُظن أنها مضافة في زمن لاحق. ومع ذلك تبقي صلاة استدعاء غير مستوفية شروطها كما في اللِّيتورجيَّات السِّريانيَّة الأخرى، إذ يأتي الاستدعاء بعد الأواشي وليس قبلها، فضلاً عن أنه يخلو من طلب صريح بأن يحل الرُّوح القُدُس على القرابين ليجعل منها جسد المسيح ودمه الكريمين، مكتفياً بطلب الحلول على القرابين ليباركها ويقدِّسها، لتكون سبباً للصَّفح عن الزَّلات وغفران الخطايا، ومنح الحياة الجديدة في ملكوت السَّموات، فيقول نص الاستدعاء:

"فلتأت أيها الرَّب، وليحل روحك القدُّوس على تقدمة عبيدك فيباركها ويقدِّسها، فتكون لنا أيها الرَّب من أجل الصَّفح عن الذُّنوب، ومغفرة الخطايا، ومن أجل الرَّجاء الكبير بالقيامة من الأموات، ومن أجل حياة جديدة في ملكوت السَّموات، مع كل أولئك الأموات الصَّالحين في نظرك".

وفي الحقيقة فإن الجدل القديم بين الأرثوذكس والكاثوليك عما إذا

٧- كعادة الكنيسة الكاثوليكيَّة التي يسهل لديها التعديل والتغيير حتى في النصوص اللِّيتورجيَّة، ظهرت كتب القدَّاس الكاثوليكيَّة الكلدانيَّة المالاباريَّة الأكثر قدماً تحوي كلمات رواية التأسيس كإضافة فقط في نهاية الأنافورا. أما الكُتُب الأكثر حداثة فأوردتها ضمن الأنافورا بعد التَّقديس، دون ذكر لأرقام الصَّفحات التي تحوي كلماتها!!

كان حضور المسيح في سر القربان يتم في لحظة استدعاء الرُّوح القُدُس، أو بواسطة كلمات التَّأسيس، هو أمر مستحدث. لأن كل اللّيتورجيًا بكل صلواتها وأقسامها، لا غنى عنها بكليتها لتتميم السِّر. واختيار لحظة معيَّنة تنصَّب عليها الأهميَّة الكُبرى دون غيرها في الصَّلاة اللّيتورجيَّة هي نتاج فكر لاتيني غزا الشَّرق منذ القرن الثَّاني عشر تحت اسم "اللاهوت المدرسي"، وهو اللاهوت الذي اعتمد على المنطق في إثبات العقيدة دون التحام حقيقي باللّيتورجيًا. وعلى الرَّغم من أن الكنيسة الأرثوذكسيَّة لم تنزلق في متاهات اللاهوت النَّظري الغربي عن اللّحظة التي تصير فيها القرابين جسد الرَّب ودمه الأقدسين، إلاّ أن صدى هذه التَّعاليم قد تسرَّب في تعليم الكنيسة الأرثوذكسيَّة برغم أن ليتورجيتها ظلّت حتى اليوم لا تحمل أي سند يدعِّم هذه التَّعاليم النظريَّة.

فالتَّقليد القبطي القديم شاهد أصيل على التَّقليد الشَّرقي، فهناك أكثر من استدعاء في ليتورجيَّة القدِّيس مرقس (القدَّاس الكيرلسي)، فضلاً عن أن قداس القدِّيس سرابيون المصري والذي يعود إلى القرن الرَّابع يتم فيه استدعاء الابن لتقديس الأسرار وليس استدعاء الرُّوح القُدُس.

ومن بين الأنافورات الكثيرة التي تستعملها الكنيسة السِّريانيَّة الغربيَّة، هناك ثلاث أنافورات تفتقد كلمات التَّأسيس هي أنافورا القدِّيس بطرس، وأنافورا إكسيستوس Xystos الرُّوماني، وأنافورا ديوتيسيوس يعقوب بار صليبي.

وكذلك الأنافورا الإثيوبيَّة للقديس يعقوب السُّروجي[٨]، والتي هي

٨- هذه اللّيتورجيًا موجودة في الوثائق القديمة التي تم اكتشافها في الدّير الأبيض بسوهاج في مصر، وكل هذه الوثائق ذات مصدر سوري. ومعروف أنه كانت هناك اتصالات بين سوريا والحبشة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

ذات أصل سرياني، فهي تروي حقيقة أن المسيح قد احتفل بالقربان مع تلاميذه، ولكنها لا تذكر أية كلمات قالها الرَّب في تلك المناسبة. فيقول الكاهن في تلك الأنافورا:

"أنت أخذت خبزاً بيديك المقدَّستين لتعطيه لرُسلك الأطهار. أنت الذي باركت آنئذ، بارك أيضاً الآن هذا الخُبز. ومرَّة أخرى (كنت أنت) تمزج كأساً من الخمر بالماء لتعطيه لتلاميذك. أنت يا من قدَّست آنئذ، قدِّس الآن أيضاً يارب هذه الكأس. أنت يا من وزَّعت آنئذ، وزِّع الآن أيضاً هذه الكأس. يا من وحَّدت آنئذ، وحِّد الآن أيضاً هذه الكأس مع هذا الخبز ليكونا جسدك ودمك[٩]".

هذا بالإضافة إلى أن أنافورا القدِّيس يوحنا ذهبي الفم، وفقاً للتَّقليد السِّرياني لا تحتوي سوى على كلمات ذات دلالة فقط لرواية التَّأسيس، وذلك فيما يختص بالخُبز فقط، أما عن الكأس، فرواية التَّأسيس واضحة:

"... كذلك أخذ الكأس، بارك، قدَّس، وأعطي تلاميذه، قائلاً: خذوا اشربوا جميعاً من أجل غفران الدُّيون، ومغفرة الذّنوب، ومن أجل الحياة الأبديَّة[١٠]".

إلاَّ أن التَّأسيس في هذه الحالات مسجَّل كحقيقة، ولكن في أنافورا الرَّسولَين أدّاي وماري غير مذكور على الإطلاق. وبرغم هذا فإن لاهوتيي كنيسة المشرق الآشوريَّة يرون أن هناك من الأسباب الهامة ما يدفع إلى الاعتقاد بأن أنافورا أدّاي وماري هي دليل قديم على أن حضور المسيح في القرابين يتم عن طريق الاحتفال اللِّيتورجي بأكمله مع الأنافورا التي تمثل صلاته العُليا. وأن الاحتفال اللِّيتورجي بدون رواية التَّأسيس قد

٩- الحوار السرياني، مرجع سابق، ص ٣٤١

١٠- نفس المرجع، ص ٣٤٢

يُعتبر تقليداً صحيحاً يرجع إلى بدايات الكنيسة، وهو التَّقليد المحفوظ بشكل أساسي في سوريا، والمشهود له في ليتورجيًا الدِّيداخي التي تعود إلى أواخر القرن الأوَّل المسيحي[١١].

أنافورا نسطور

لقد دارت مباحثات بين بعض من علماء اللِّيتورجيًا[١٢] عن العلاقة بين أنافورا القدِّيس يوحنا ذهبي الفم البيزنطيَّة وليتورجيَّة القسطنطينيَّة التي استُخدمت في كنائس المدن. فاتجه رأي البعض إلى أنه قد أُعيدت صياغة هذه الأخيرة باللُّغة السِّريانيَّة، وأصبحت تُعرف باسم "ليتورجيَّة نسطور"، أو "أنافورا نسطور". بينما رأى البعض الآخر أن ليتورجيَّة نسطور هي الأقدم، من حيث أنها الأقصر، والتي ربما كانت نتاج صياغة جديدة لنص قديم حُفظ لدى النَّساطرة.

ثم أثبت الأب انجبردينج Fr. Engberding بما لا يدع مجالاً للشَّك، بأن نسطور هو الذي أعاد صياغة ليتورجيَّة القدِّيس يوحنا ذهبي الفم بعد أن أضاف عليها من مذاقه الخاص، مسهباً فيها ومكسباً إياها خاصيَّة لاهوتيَّة جعلتها قريبة الشَّبه بليتورجيَّة القدِّيس باسيليوس في بنيتها الدَّاخلية. ولكن مع إعادة صياغة النَّص في ظل معتقد نسطور، لم يكن ممكناً أن يظل النَّص في إطار استخدامه الأرثوذكسي الصَّحيح.

وانتشرت هذه اللِّيتورجيَّة التي تسمت باسم نسطور انتشاراً واسعاً في معقل الأريوسيَّة في بلاد فارس. مثلما حدث لكثير من ليتورجيات قبلها،

١١- نفس المرجع، ص ٣٤٧

١٢- مثل أنطون بومشتارك Anton Baumstark ، ثيؤدور شيرمان Theodor Schermann ، والأب إنجبردنج Fr. H. Engberding, o.s.b .

كليتورجيَّة القدِّيس يعقوب التي انتشرت انتشاراً واسعاً نظراً لأهميَّة المدينة المقدَّسة التي خرجت منها هذه اللِّيتورجيَّة، وكذلك ليتورجيَّة القدِّيس باسيليوس، والذي كان من أكثر المتحمِّسين للرَّهبنة، وهو الطَّريق الذي انتشر في أرجاء العالم كله(١٣).

خامساً: الموسيقى والألحان الآشوريَّة

الموسيقي الآشوريَّة هي موسيقى دينيَّة، وقلَّما نعرف شيئاً عن الموسيقى القوميَّة لأهل البلاد، أو قلَّما نجدها ضمن ألحان خاصة ببعض قصائد قوميَّة أو أناشيد ترفيهيَّة أو قصص تاريخيَّة باللَّهجة الآراميَّة الفُصحي أو الدَّارجة.

والموسيقي الآشوريَّة كغيرها من الموسيقى الشَّرقيَّة، غير مقيَّدة بأساليب النوتة الموسيقيَّة وتعابيرها وأوزانها. ولقد نشأت الألحان الآشوريَّة منذ نشأة الكنيسة بدون نوتة موسيقيَّة.

واللَّحن الآشوري هو من أقدم الألحان الكنسيَّة، وأسوة ببقيَّة سلالم الألحان الشَّرقيَّة، فهو يتضمَّن أكثر من عشرة أنغام من أشهر الأنغام الشَّرقيَّة. وأكثرها موجود في السُّلَّم الصَّغير، وهو أغنى بكثير من السُّلَّم الصَّغير الغربي من حيث أبعاده. وهذا يجعل الألحان الآشوريَّة شجيَّة الإنشاد، غنيَّة الإبداع، وتحمل في هزَّاتها في الأعياد السَّيديَّة كثيراً من البهجة والحبور، كما أن ألحان الصَّوم تبعث على الخشوع والتَّوبة.

ويرى أحد أساتذة الموسيقي في جامعة السوربون بباريس؛ أن اللَّحن

13- Anton Baumstark, *op. cit.* p. 55.

الغريغوري في الكنيسة الغربيَّة والذي نشأ في القرن السَّابع الميلادي متأثِّر باللَّحن الآشوري القديم(١٤).

والألحان الآشوريَّة أخذت طابعها الخاص منذ زمن القدِّيس مار أفرآم السِّرياني سنة ٣٧٣م والملقَّب بقيثارة الرُّوح القُدُس، وهو من أوائل من ألَّفوا الألحان في الكنيسة السِّريانيَّة. ويذكر المؤرِّخون القدامى والمحدثون(١٥) أن توما الرَّهاوي في القرن السَّادس عشر كان ملحِّناً شهيراً، وله رسائل عن الموسيقى الكنسيَّة والألحان الطَّقسيَّة الآشوريَّة.

وانتقلت الألحان الآشوريَّة من جيل إلى جيل شفاهاً حتى وصلت إلينا. ولم يطرأ عليها في الشَّرق الأوسط سوى تغيُّر جزئي فقط بسبب عدم تقيُّد الألحان بالنوتة الموسيقيَّة. أما كنيسة المالابار في الهند فقد تأثَّرت ألحانهم تأثراً كبيراً بسبب التغيُّرات الطَّقسيَّة التي طرأت عليهم في القرن السَّادس عشر على إثر مجمع ديامبر.

وفي القرن العشرين وُضعت الألحان الآشوريَّة على النوتة الموسيقيَّة. وكان المستشرق جانان، والدكتور هوزمان، هما من جملة من دوَّنوا الألحان الآشوريَّة على النوتة الموسيقيَّة. والغاية من ذلك فنيَّة علميَّة أكثر منها استعماليَّة، إذ أن الألحان في القدَّاس وفي صلوات الفَرض تُرتَّل غير مقيَّدة بالوزن على النوتة الموسيقيَّة.

ولا تستخدم الكنيسة الآشوريَّة من الآلات الموسيقيَّة سوى الصِّنج والأجراس. فالصُّنوج لا تزال مستخدمة كآلة إيقاع أثناء التَّرتيل. أما الأجراس فهي قلَّما تُستعمل الآن في بعض الإيبارشيَّات. وكانت عبارة عن مجموعة مؤلَّفة من عشرة أجراس صغيرة معلَّقة على عكاز أو أكثر

١٤- نشرت مجلة الجامعة المذكورة في سنة ١٩٦١م، أمثلة عديدة لذلك.

١٥- مثل المؤرخ عبد يشوع الصوباوي، والعلامة شابو، والعالم بومشتارك.

يهزها أحد الشَّمامسة مرافقاً إيقاع الألحان مع الصنوج.

ولم يدخل الأرغن في استعمال الكنيسة الكلدانيَّة إلاَّ بدءًا من الخمسينيَّات من القرن العشرين، محاذية بذلك حذو الكنائس الغربيَّة التي أصبحت لديها هذه الآلة الموسيقيَّة ضرورة كضرورة النوتة الموسيقيَّة لتدوين الألحان[١٦].

سادساً: الأدب الدِّيني السِّرياني الشَّرقي

كان الأدب السِّرياني موحداً قبل القرن الخامس، أي قبل انقسام الكنيسة سنة ٤٣١م إلى كنيسة سريانيَّة شرقيَّة وأخرى سريانيَّة غربيَّة. والأسماء اللامعة في تاريخ الأدب السِّرياني تنتسب إلى تلك الفترة المبكِّرة قبل الانقسام. وإلى جانب المؤلَّفات السِّريانيَّة الكتابيَّة (أي المختصَّة بشرح الكتاب المقدَّس) واللاهوتيَّة والشِّعريَّة، كان الاتجاه أيضاً إلى نقل العلوم الكنسيَّة من اليونانيَّة إلى السِّريانيَّة.

وشهد القرن السَّادس نشوء أدب مسيحي باللُّغة الفارسيَّة الوسطى، وذلك قبيل نهاية عهد جوستنيان حوالي سنة ٥٦٢م[١٧].

ولقد برز في العصر السِّرياني الأوَّل قبل الانقسام **أفرآتس**، **وأفرآم السِّرياني**، **ورابو**. أما بعد الانقسام، فكان من أبرز الكُتَّاب عندهم، **نرسيس** (٥٠٧م)، **وباباي الكبير** (أواخر القرن السَّادس)، **وأبو زكريا يحيى**

١٦- انظر: مجلة "الوحدة في الإيمان" إبريل - يونيو سنة ١٩٧٠م، ص ١٤٦- ١٥٠ بتصرّف.
١٧- الحوار السرياني، مرجع سابق، ص ١٣٩

بن البطريق[١٨]، وبعد الفتح العربي أصبحت مهمة ترجمة الأدب السِّرياني وقفاً على العلماء النَّساطرة فحسب. ولم يكن ذلك يعني نضوب حقل السِّريانيَّة، إذ نسمع في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عن واحد يُدعى "حزايا"، وهو نسطوري من أصل فارسي، اختطفه جنود الخليفة وباعوه عبداً رقيقاً، ولكنه استرد حريَّته في كردستان، وهناك أسَّس ديراً كان له دوراً كبيراً في العُلوم اللاهوتيَّة السِّريانيَّة، وقد بلغت مؤلفاته في السِّريانيَّة ألف وتسعمائة مؤلَّف، كما يذكر ذلك عبد يشوع، ولكن معظمها قد فُقد. وباستثناء هذه الحالات الفرديَّة، لم تعد السِّريانيَّة تحت حكم العرب لغة الأدب بل لغة التَّخاطب فحسب.

حنين بن اسحق (٨٠٩- ٨٧٣م)

اسمه بالكامل هو أبو زيد حنين بن اسحق العبادي، وهو طبيب نسطوري كبير بالحيرة في بلاد العراق. كان أبوه صيدلانياً قصد بغداد وحضر مجلس يوحنا بن ماسويه، وهذا الأخير أيضاً هو طبيب نسطوري من الطبقة الأولى، قلده المأمون رئاسة بيت الحكمة الذي أسَّسه ببغداد سنة ٨٣٠م وتوفي سنة ٨٥٧م. وكان حنين بن اسحق كثير الأسئلة ليوحنا بن ماسويه. وكان يصعب على يوحنا استقصاؤه وتواتر أسئلته. وإذ سأل يوماً أستاذه للاستفهام حرد عليه وقال: ما لأهل الحيرة والطب. وأمر فأُخرج من داره.

فتوجَّه حنين إلى بلاد الرُّوم، وأقام بها سنتين، فأحكم اللِّسان اليوناني، وحصَّل كثيراً من كتب الحكمة، ثم عاد إلى البصرة التي كانت

١٨- وله كتاب "السِّياسة في تدبير الرِّياسة" المعروف بـ "سر الأسرار". ولقد كان لهذا الكتاب شأن كبير في العصور الوسطى، وهو مترجم أيضاً لكتاب منسوب خطأً إلى أرسطو في عشر مقالات، وهو عبارة عن إرشادات موجهة إلى اسكندر ذي القرنين.

آنئذ أكبر معهد لعلوم اللُّغة العربيَّة، فتفقَّه فيها وبرع في اللّسان العربي، وكان يجيد الفارسي والسّرياني، وها لسانه الأصلي.

وعاد إلى بغداد واشتهر بالتَّضلُّع في الفلسفة والطّب، وأبدى عظائم في التأليف والتَّفسير والنقل، إلى أن غدا ينبوعاً للعلوم ومعدناً للفضائل. فأقرَّ له العُلماء بالرياسة، وأجلّ أطباء بغداد مقامه، ومنهم يوحنا بن ماسويه أستاذه السَّابق.

وصار رئيس المترجمين الذين استعان بهم الخليفة المأمون لنقل الكُتُب التي وضعها الفلاسفة اليونان وأطباؤهم إلى العربيَّة. وسافر حنين إلى أرجاء العراق وسوريا وفلسطين ومصر للتَّنقيب عن الكُتُب القديمة. ومن بعد المأمون (٨٣٣م) عاصر أيضاً المعتصم (٨٤٢م)، والواثق (٨٤٧م)، والمتوكّل (٨٦١م)، الذي بعد أن اختبر أمانته قرَّبه إليه وجعله طبيبه الخاص، وأجزل له العطاء، ولقّبه برئيس الأطباء والفلاسفة. ومن بعده أيضاً المنتصر (٨٦٢م)، والمستعين (٨٦٦م)، والمعتز (٨٦٩م)، والمهتدي (٨٧٠م)، والمعتمد (٨٩٢م)، فكان طبيبهم وأمين سرهم، فغالوا في احترامه وإكرامه. وكان على سعة علمه متمسِّكاً بدينه، مكمّلاً بالفضائل، كريم الأخلاق.

وآثر حنين بن اسحق مع مدرسته في أيام الخلفاء الأوَّلين أن يكتبوا جلّ مؤلفاتهم بالعربيَّة على الرَّغم من أنهم كانوا يجيدون السِّريانيَّة أيضاً.

ونقل حنين من اليونانيَّة إلى العربيَّة التَّرجمة السَّبعينيَّة لأسفار العهد القديم كلها، ونقل من اليونانيَّة إلى السِّريانيَّة ثم من السِّريانيَّة إلى العربيَّة نحو مائتين وستين مصنَّفاً فلسفياً وطبياً، من مصنفات أرسطاطاليس، وأبقراط، وجالينس، وبولس الأجنيطي وغيرهم. وألّف في السِّريانيَّة

والعربيَّة ما يربو على المائة والخمسة عشر كتاباً في الطب والفلسفة والدِّين. وله من بين كتبه الدينية:

- "تاريخ العالم" منذ البدء حتى العصر الذي عاش فيه.
- "مقالة في خلق الإنسان"، وأن من مصلحته أن جُعل محتاجاً.
- "إدراك حقيقة الأديان".
- "مقالة في دلالة القدر على التَّوحيد".
- "مقالة في الأجل".
- "ترجمة العهد القديم إلى العربيَّة"، وهي من أجود التَّرجمات كما يروي المسعودي في كتاب التنبيه.

إسحاق بن حنين

وهو أصغر أولاد حنين، ومن أشهر أطباء عصره وقد نال شهرة أبيه، وكانت مكانته كبيرة لدي الخُلفاء الثلاثة: المتوكّل والمعتمد والعاضد، وتوفي سنة ٩١٠م. وله من بين كتبه في الطب، كتاب في الدِّين وهو "مقالة في التَّوحيد"، وترجم إسحاق بن حنين من الأصل اليوناني كتاب "في طبيعة الإنسان" ويظهر أن العالم القبطي أبو إسحاق المؤتمن بن العسَّال قد استفاد من هذه التَّرجمة، وضمَّن أجزاء منها في كتابه "مجموع أصول الدِّين" لاسيَّما في الفصل الثَّالث عن "صلة الجسد بالرُّوح[١٩]".

وفي هذه الفترة ظهرت القواميس السِّريانيَّة الكثيرة تعبيراً عن خوف العُلماء من اندثار السِّريانيَّة تحت زحف العربيَّة. وهذا ما نراه من أعمال "**يشو بار علي**" أحد تلاميذ حنين، والذي وضع قاموساً مزدوجاً يضم السِّريانيَّة إلى جانب العربيَّة. وكذلك **يحيي بن مساويه** الذي ألّف في الطب بالسِّريانيَّة والعربيَّة. و**إلياس النَّصيبي** وغيرهم.

١٩- الأب الدكتور جورج قنواتي، المسيحيَّة والحضارة العربية، مرجع سابق، ص ١٦٣

واشتهر **البطريرك تيموثاوس الأوّل** في القرنين الثّامن والتّاسع (٧٢٨- ٨٢٣م)، وهو من أعظم الكُتّاب، وعمَّر حتى الخامسة والتسعين. وهو الذي رتَّب طقوس كنيسته، وأرسل المبشرين إلى أواسط آسيا وبلاد العرب كما سبق أن ذكرنا، وله مؤلّفات كثيرة أشهرها رسائله ودفاعه أمام الخليفة المهدي (٧٧٥- ٧٨٥م)[٢٠]، وقوانينه الكنسيَّة. وله كتاب رسائل البطاركة الفصحيَّة من القرن الرّابع حتى القرن التاسع.

عبد المسيح الأنباري

كان كاتباً للجاثليق تيموثاوس، وكاتب سر والي الموصل في القرن التاسع وله من المؤلفات:

- تفنيد القرآن.
- مقالة في التّوحيد.
- مقالة في التّثليث.

حبيب عبد يشوع بن بهريز

وهو مطران الموصل، وكان صديقاً لجبرائيل بن بختيشوع وناقلاً له، في أيام الخليفة المأمون (٨١٣- ٨٣٣م). ومن مؤلّفاته مقالة في التّثليث والتّوحيد[٢١].

وفيما بين القرنين العاشر والثالث عشر نعرف:

يوحنا بن أبي الصلت

وهو راهب نسطوري من القرن العاشر، ومن بين مؤلفاته:

٢٠- نُشر النص السرياني وترجمة إنجليزية له في جامعة كمبردج بلندن سنة ١٩٢٨م، وكان الأب شيخو قد نشر النّص العربي في مجلة المشرق سنة ١٩٢١م، وأعاد طبعه في كتابه Trois traits في بيروت سنة ١٩٢٣م.

٢١- الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، المسيحيَّة والحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٢٢٩

- كتاب الهدى.
- كتاب الإقناع.
- كتاب البرهان.
- كتاب دليل الحائر.
- ثلاث رسائل استخرجها من كلام مار اسحق السِّرياني أسقف نينوى (من القرن السابع) في الزهد والرهبنة. وهي في أسلوب عربي بليغ.

البطريرك إيليا الأوَّل (١٠٢٨- ١٠٤٩م)

كان مطراناً لمدينة ترهان، وقد ألَّف عدَّة كتب للخدمة الكنسيَّة باللُّغة السِّريانيَّة، وكتاب نحو (قواعد) للُّغة السِّريانيَّة، وأهم كتبه:

- "أصول الدين"، ويحوي ٢٢ باباً.

مار بن سليمان

وقد عاش في القرن الحادي عشر، ووضع موسوعة لاهوتيَّة سمَّاها "كتاب البُرج".

أبو الفرج عبد الله بن الطيب

وهو من الأطباء المشهورين، واسع العلم كثير التَّصنيف، كثير الاشتغال بالفيلسفة. أما مؤلَّفاته الدِّينية فمنها:

- "فردوس النصرانيَّة" وفيه فسَّر الكتاب المقدَّس كله. وهو أضخم تفسير للكتاب المقدَّس باللغة العربيَّة حتى اليوم.
- "مدخل في تفسير المزامير[٢٢]".
- تفسير المزامير[٢٣].

٢٢- نُشر هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٩٠٢م. وفي تفسيره للمزمور الثامن عشر، والآية الثامنة، يميز ابن الطيب بين ثلاثة أنواع من الشَّريعة: ناموس طبيعي، ناموس كتابي، وناموس أفضالي.

- تفسير الأناجيل[٢٤].
- مقالات في أصول الدين، والتثليث[٢٥] والتوحيد، والأقانيم والجوهر[٢٦]، والتوبة[٢٧]، والقيامة[٢٨].

وجدير بالذِّكر أن النُّسخة العربيَّة للكتاب المقدَّس والتي عنيت بنشرها الكنيسة الأسقفيَّة للنَّشر والتأليف بالقاهرة، مأخوذة عن ترجمة عربيَّة قام بها **أبو الفرج عبد الله بن الطيِّب** لمخطوطة سريانيَّة نقلها أحد تلاميذ حنين بن اسحق.

أبو الحسين البصري

توفي سنة ١٠٣٨م، وهو تلميذ عبد الله بن الطيب، وله من المؤلفات:
- كتاب "البُرهان". وفيه يثبت أبو الحسين أن صفة "الحي" في الله هي صفة حقيقية قائمة بذاتها، وهو غير ما ذهب إليه رأي المشايخ والمعتزلة.
- رسالة في وحدانية الخالق وتثليث أقانيمه[٢٩].

٢٣- نُشر هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٩٠٢م بواسطة يوسف منقريوس، وحبيب جرجس، تحت عنوان "الروض في تفسير المزامير".

٢٤- نشر الأب سمير خليل هذه الرِّسالة جزئياً في مجلة "رسالة الكنيسة" سنة ١٩٧٢م، سنة ١٩٧٤م.

٢٥- أشاد الأستاذ بيستون من جامعة أكسفورد بهذه المقالة وقد عقَّب عليها بدراسة تحليليَّة.

Cf. A. F. L. Beeston, An Important Christian Arabic Manuscript in Oxford, *Oriantalia Christiana Periodica (O.C.P.)*, 19, (Rome 1953), p. 197-205.

ونشرها الأب سمير خليل اليسوعي ضمن سلسلة مقالاته عن "التراث العربي السِّرياني".

٢٦- نشرها الأب سمير خليل في مجلة "صديق الكاهن" في يونيو سنة ١٩٧٤م.

٢٧- وهي تحوي أربعة وعشرين فصلاً، وأشار المؤتمن بن العسال لشذرات منها في كتابه "مجموع أصول الدين".

٢٨- اقتبس بن العسال شذرات من هذه المقالة في كتابه "مجموع أصول الدين" في الفصلين ٦٣، ٦٨

٢٩- نشرها الأب لويس معلوف في مجلة "المشرق" سنة ١٩٠٣م

- رسالة في الخالق.
- رسالة في حدوث العالم ووحدانيَّة الخالق تقدس اسمه وتثليث الأقانيم.
- البُرهان على صحيح الإيمان[٣٠].
- مقالة في نعيم الآخرة[٣١].
- خمسة شكوك وأجوبتها.
- رسالة في فضيلة العفاف[٣٢].
- كتاب دفع الهم[٣٣].
- الحكم النَّافعة للنَّفس والبدن[٣٤].
- تفسير الأمانة الكبير[٣٥].

مكّخيا بن سليمان

نسطوري وُلد في بغداد، وكان بطريركاً من سنة ١٠٩٢- ١١٠٩م، وكان حريصاً على أن يفهم شعبه ما يُقرأ لهم من الكتاب المقدَّس، فترجم لهم القراءات إلى العربيَّة. ومن مؤلفاته:

- كتاب في حقيقة دين النصرانية. ألّفه لأحد علماء المسلمين.
- كتاب في حقيقة الدين المسيحي.
- قول مختصر في الأبوة والبنوة على مذهب النصرانية، ورأي عقيدة السِّريان المسيحيين الساكنين في الجهة الشَّرقيَّة.

ماري بن سليمان

أحد كتبة النَّساطرة في القرن الثاني عشر، وصاحب كتاب "المجْدل

٣٠- تُرجم هذا الكتاب إلى الألمانية سنة ١٨٨٦م. (انظر: الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، المسيحيَّة والحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٢٤٠).

٣١- نشرها الأب سمير خليل في مجلة "بين النهرين" الجزء الخامس.

٣٢- نشرها جورج رحمة الله في مجلة المشرق سنة ١٩٦٨م.

٣٣- نُشرت في مجلة "رسالة الكنيسة" سنة ١٩٧٤م.

٣٤- نشرها وترجمها إلى الإيطالية الأب بولس سباط في القاهرة سنة ١٩٣٦م.

٣٥- نشر جزءاً منه الأب عمانوئيل دلّلي في مجلة "النَّجم" بالموصل سنة ١٩٥٤.

للاستبصار والجدل"، وهو أوَّل كتاب منهجي شامل في علم اللاهوت عند النَّساطرة، جمع فيه المؤلِّف جميع العُلوم الخاصة بالدِّين من عقائد وأخلاق وطقوس ونظام كنسي[٣٦].

يوسف إيشوعياب بن ملكون

وُلد في النصف الثاني من القرن الثَّاني عشر، أُقيم مطراناً على نصيبين، وتوفي في النصف الأول من القرن الثالث عشر. ومن مؤلفاته:

- عقيدة الإيمان، وبخاصة في سر التَّجسُّد[٣٧].
- تفسير قانون إيمان مجمع نيقيه.
- مجموعة رسائل، في البرهان على صحة الإنجيل، وفي الرد على من يتهم النَّصارى بعبادة الأصنام، من حيث أنهم يسجدون للصَّليب ويكرمون الصُّوَر.
- مقالة في القيامة.

أبو حاتم إيليا بن الحديثي

وُلد في ميافرقين، وهو مطران نصيبين، ثم صار بطريركاً سنة ١١٧٦، تحت اسم إيلياس الثَّالث، وتوفي سنة ١١٩٠م. وله:

- تراجم الأعياد. وهو كتاب جليل بليغ الإنشاء، يحتوي على خطب مسجعة[٣٨].
- التراجم السَّنية للأعياد المارانية[٣٩].
- كتاب تعزيات تُقال على الموتى. وهو أيضاً خطب تُلقى في الجنازات.

٣٦- نُشر الجزء الأول منه في روما سنة ١٨٩٩م، وتُرجم إلى اللاتينيَّة.

٣٧- تُرجم هذا الكتاب إلى اللاتينيَّة.

٣٨- طبع في الموصل ونُشرت عدة خطب منه في مجلة "المشرق".

٣٩- ورد جزء منها في كتاب "الجوهرة النفيسة في خطب الكنيسة" الذي طُبع في القاهرة سنة ١٩٠٤م.

محيي الدين العجمي الأصفهاني

هناك خلاف عما إذا كان نسطورياً أو يعقوبياً، ولا يُعرف شيء عن حياته إلاَّ النَّذر اليَّسير، وهو على الأرجح من القرن الثَّالث عشر. ومن مؤلَّفاته:

- رسالة إلى أحد فقهاء المسلمين.
- كلام في العقل والمعقول.
- أشرف الحَّديث في شرفي التَّوحيد والتَّثليث.

عمَّار البصري

ذكره أبو اسحق بن العسَّال في كتابه "مجموع أصول الدِّين"، وعاش ما بين القرنين العاشر والثالث عشر. وله من الكتب:

- كتاب البُرهان في الدِّين. وهو على نسق كتاب التَّدبير الإلهي.
- كتاب المسائل والأجوبة. وهو أربع مقالات تعالج المسائل الآتية:

(أ) قدم ووحدة الخالق. في ٢٨ مسألة.

(ب) صحة الأناجيل، وكيف تتَّفق ووجود الله. ١٤ مسألة.

(ج) الثالوث القدوس، ٩ مسائل. الإنسان، ٥١ مسألة.

أسطورة بحيرا الرَّاهب

أسطورة مسيحيَّة نشأت في حضن جماعة فارسيَّة، وقد كُتبت بالسِّريانيَّة ثم نُقلت إلى العربيَّة، وكان لها انتشار واسع في الأوساط المسيحيَّة في القرون الوسطى.

والكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام. يتكلَّم المؤلِّف في الجزء الأوَّل منه عن لقاء بحيرا الرَّاهب النَّسطوري بالرَّبان إيشوعياب الذي يقرأ له الكتاب. وفيه القصص التي تتحدَّث عن القبائل العربيَّة التي شاهدها سرجيوس في جبل سيناء. ويبدو أن هذا الجزء قد وُضع في نهاية القرن الحادي عشر أو في مستهل القرن الثَّاني عشر.

أما الجزء الثاني فيتطرَّق إلى المحادثات التي جرت بين محمد وبحيرا، الذي يزوده بمعلومات عن الدِّين المسيحي. وهذا الجزء الذي يكوّن أسطورة بحيرا الحقيقيَّة يرقى إلى عهد أسبق. وقد ورد في هذا الجزء كيف لقن سرجيوس محمداً عقيدته وشرائعه وأجزاء من القرآن، وذلك بقصد أن يجعل العرب يعترفون بإله واحد.

أما الجزء الثَّالث فهو سلسلة رؤى عن الأزمنة المقبلة من حكم العرب وحتى مجئ المسيح الثَّاني. وهو من زمن الجزء الأوَّل تقريباً أو متأخِّر عنه قليلاً(٤٠).

وبشكلٍ عام لم يكن للنَّساطرة جبابرة في الأدب السِّرياني في العصور الوسطى، إلاَّ أن تدهور الأدب السِّرياني قد استغرق وقتاً طويلاً. ففي القرن الثاني عشر قدَّم معظم الكتَّاب إنتاجهم بالعربيَّة عدا واحد يُدعى **سيمون الشنكلاوي**، فقد ترك لنا بالسِّريانيَّة تاريخاً لبطاركة الكنيسة الآشوريَّة. ويمكننا القول أن القرن الثَّالث عشر هو الحد الفاصل الذي توقَّف فيه الأدب السِّرياني توقفاً شبه تام.

وفي القرن الرابع عشر نعرف:

صليبا بن يوحنا

وهو قسيس نسطوري من الموصل، عاش في القرن الرابع عشر. ومن تآليفه:

- كتاب "تاريخ بطاركة الكلدان". وطُبع في روما سنة ١٨٩٧م.
- "مجادلة في أمر يسوع المسيح".

٤٠- نشر كوتايل Gottheil Richard النَّص السِّرياني والتَّرجمة العربيَّة لهذه الأسطورة سنة ١٨٩٨م، مع ترجمة إنجليزيَّة لها، وتعليقات. (انظر: الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، المسيحيَّة والحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٢٣٠).

- تعريب كتاب "الإقرار والأمانة التي يعتقدها النصارى السريان المشارقة"، وهو من تأليف ميخائيل أسقف آمد وميافرقين.
- رسالة "البرهان والإرشاد".

أما أشهر الكُتَّاب السِّريان في الحقبة الأخيرة من تاريخهم الأدبي فهو:

عبد يشوع الصُّوباوي

مطران نصيبين وأرمينيَّه (+ ١٣١٨م)، ومن بين ما كتبه بالعربيَّة:
- "ترجمة الأناجيل المقدَّسة"، وهي ترجمة مسجعة مقسَّمة على ترتيب قراءات الطَّقس الكلداني.
- مقالة في "التثليث والتَّوحيد والحلول والاتحاد" (٤١).
- كتاب "فرائض الفوائد في أصول الدين والعقائد".

وبعد عصر عبد يشوع، أو كما يُسمَّى عبد إيشو، لم تعد السِّريانيَّة سوى مجرَّد لغة الصَّلوات الكنسيَّة، باستثناء ما كتبه **البطريرك تيموثاؤس الثَّاني** سنة ١٣٢٨م عن الأسرار.

٤١- نشرها الأب شيخو في كتابه تحت عنوان: "مقالات دينية قديمة".

المراجع

أولاً المراجع الأجنبيَّة

- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F. L. Cross, London, 1958.

- Brightman, F.E., M.A., *Liturgies, Eastern and Western*, Vol. 1, *Eastern Liturgies*, Oxford, 1967.

- Cross F.L. & Livingstone E.A., The Oxford Dictionary of the Christian Church (ODCC), (edition 2), 1988.

- Lamp, G.W.H., D.D., A Patristic Greek Lexicon.

- Martimort A.G., *L'Eglise en Priére, Introduction à la Liturgie*, Belgium, 1961.

- New Catholic Encyclopedia (NCE), vol. 8.

ثانياً: المراجع العربيَّة

– أحمد أمين، فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٦م.

– إغناطيوس ديك (الأب)، الشَّرق المسيحي، لبنان، ١٩٧٥م.

– إغناطيوس يعقوب الثالث (بطريرك أنطاكية وسائر المشـرق)، الشُّـهداء الحميريون العرب في الوثائق السِّريانيَّة، دمشق ١٩٦٦.

– ألفريد جوا بتلر (الدكتور)، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، عرّبـه محمـد فريد أبو حديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م.

– ألفريد جوا بتلر، الكنائس القبطيَّة القديمة في مصر، جزءان، ترجمة إبراهيم سلامة إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف كتاب الثاني، القاهرة، ١٩٩٣م.

– المسرة (مجلة)، الأعداد ٧٨١-٧٨٤ السنة السابعة والسبعون، نيسان، تموز (آب) سنة ١٩٩١م.

– النور (مجلة)، لبنان، مايو ١٩٥٩م.

- الوحدة في الإيمان (مجلة)، إبريل - يونيو سنة ١٩٧٠م.

- إلياس إسطفان معدني (الأرشيمندريت)، بهجة النفوس في الصلوات إلى الرب القدوس، عني بجمعه وترتيبه، الإسكندرية ١٩٤٠م.

- جان كومبي (الأب)، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، دار المشرق، بيروت، سنة ١٩٩٤م.

- جورج شحاته قنواتي (الأب الدكتور)، المسيحيَّة والحضارة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، بدون تاريخ.

- حياتنا الليتورجية (مجلة)، السنة الرابعة، سنة ١٩٩٢م، سنة ١٩٩٣م.

- خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧م.

- ساويرس بن المقفع (الأنبا)، كتاب مصباح العقل، تحقيق الأب سمير خليل اليسوعي، القاهرة، ١٩٧٨م.

- سكرتارية المجمع المقدَّس، القرارات المجمعيَّة في عهد صاحب القداسة والغبطة البابا شنوده الثالث (١١٧)، القاهرة، الطبعة الأولى، نوفمبر ١٩٩٦م.

- طه حسين (الدكتور)، في الشعر الجاهلي.

- عزت زكي (الدكتور)، كنائس المشرق، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩١م.

- مؤسسة برو أوريني، الحوار السِّرياني، المداولة الأولى غير الرسمية حول الحوار ضمن التقليد السِّرياني، فينا، ١٩٩٤م.

- مرقس (مجلة)، سنوات ٨٦، ٨٧، ٨٨، ١٩٩٠م.

- مرقس داود (القس)، قداسات الكنيسة الإثيوبيَّة، القاهرة ١٩٥٩م.

- ناريمان عبد الكريم (الدكتورة)، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.

- هنري دالميس الدومينكي (الأب)، الطُّقوس الشَّرقيَّة، تعريب الشماس كامل وليم، المعهد الكاثوليكي، المعادي، ١٩٧٨م.

الدُّرَّة الطَّقسيَّة للكنيسة القبطيَّة

بين الكنائس الشَّرقيَّة

للرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

www. Athanase. net

◆ السِّلسِلة الأولى: مصادر طقوس الكنيسة

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النَّشر
١/١	الدِّيداخي أي تعليم الرُّسل (طبعة ثانية)	يناير ٢٠٠٦م
١/٢	التَّقليد الرَّسولي (طبعة ثانية)	ديسمبر ٢٠٠٦م
١/٣	المراسيم الرسوليَّة – دراسة موجزة — نص الكتاب الثَّامن	أكتوبر ٢٠٠٤م
١/٦	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة – الكتابات اليونانيَّة	يناير ٢٠٠٣م
١/٧	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة – الكتابات القبطيَّة	يوليو ٢٠٠٦م
١/١٠	قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة (طبعة ثانية)	ديسمبر ٢٠٠٦م
١/١١	قوانين هيبوليتس القبطيَّة	أكتوبر ٢٠٠٤م

◆ السِّلسِلة الثانية: مقدِّمات في طقوس الكنيسة

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٢/١	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها الجزء الأوَّل: رؤية عامة—كنيسة المشرق الآشوريَّة (طبعة ثانية)	أكتوبر ٢٠٠٦م
٢/٢	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها – الجزء الثَّاني: كنيسة مصر	يناير ٢٠٠٧م
٢/٣	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها الجزء الثَّالث: الكنائس الشَّرقيَّة القديمة (طبعة ثانية)	أكتوبر ٢٠٠٦م
٢/٤	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها – الجزء الرَّابع: الكنائس البيزنطيَّة	يناير ٢٠٠٥م
٢/٥	الكنيسة، مبناها ومعناها	يناير ٢٠٠٤م
٢/٦	مُعجَم المصطَّلحات الكنسيَّة، الجزء الأوَّل (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٤م
٢/٧	مُعجَم المصطَّلحات الكنسيَّة، الجزء الثَّاني (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٥م
٢/٨	مُعجَم المصطَّلحات الكنسيَّة، الجزء الثَّالث	نوفمبر ٢٠٠٣م

◆ السِّلسِلة الثالثة: طقوس أسرار وصلوات الكنيسة

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٣/١	معموديَّة الماء والرُّوح	يناير ٢٠٠٣م
٣/٢	سرّ الرُّوح القُدُس والميرون المقدَّس	لم يصدر بعد
٣/٣	تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر	نوفمبر ٢٠٠٥م

الرقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٣/٤	صلوات رفع البُخور في عشيَّة وباكر	يناير ٢٠٠٦م
٣/٥	القدّاس الإلهي سرّ ملكوت الله، الجزء الأوّل	لم يصدر بعد
٣/٦	القدّاس الإلهي سرّ ملكوت الله، الجزء الثّاني	لم يصدر بعد
٣/٧	الدّبلة والإكليل	مارس ٢٠٠٥م
٣/٨	الأجبية أي صلوات السّواعي	إبريل ٢٠٠٦م
٣/٩	سرّ التّوبة والاعتراف	لم يصدر بعد

◆ السّلسّلة الرابعة: طقوس أصوام وأعياد الكنيسة

الرقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٤/١	الزّمن الطّقسي من عيد النّيروز إلى عيد الصّليب	لم يصدر بعد